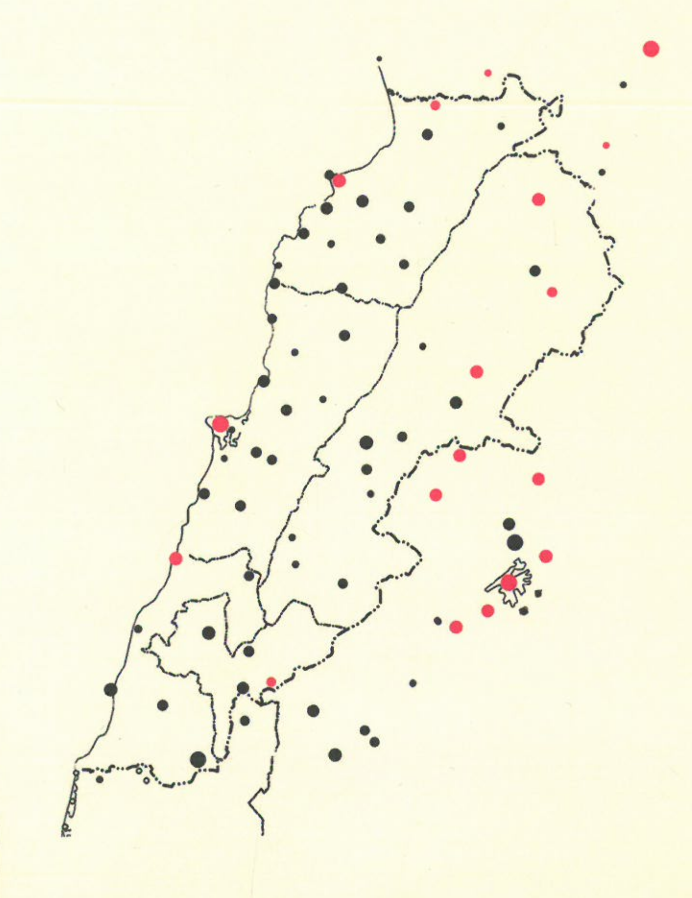
حـازم صاغيّة بيـسان الـشيـخ

شعوب الشعب اللبناني

مدن الطوائف وتحوّلاتها في زمن الحرب السوريّة



دار الساقي

صدر للكاتب حازم صاغية عن دار الساقي:

- العرب بين الحجر والذرّة
- وداع العروبة
- بعث العراق
- مأزق الفرد في الشرق الأوسط
- هذه ليست سيرة
- نواصب وروافض
- نانسي ليست كارل ماركس
- مذكّرات رندا الترانس
- هجاء السلاح
- البعث السوري
- الانهيار المديد

تصميم الغلاف: شذا شرف الدين

حازم صاغيّة بيسان الشيخ

شعوب الشعب اللبنانيّ

مدن الطوائف وتحوّلاتها في زمن الحرب السوريّة



الطبعة الأولى 2015

ISBN 978-6-14425-833-0

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: 113/5342، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 6114–2033
هاتف: 442 866-1-961+، فاكس: 443 866-1-961+
email: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

تابعونا على

@DarAlSaqi
دار الساقي
Dar Al Saqi

إلى حازم الأمين وحسام عيتاني، العضوين الآخرين
في "عصابة الأربعة"، رفيقي قهوة الصباح

المحتويات

تقديم

بين أوائل ٢٠١٣ وأواسط ٢٠١٤ قمنا بـ١٣ جولة صحافيّة في مناطق لبنان، بدأناها بطرابلس وأنهيناها بمرجعيون، وقد نُشرت جميعاً في جريدة "الحياة".

كان الإقدام على هذا العمل يستجيب لاقتناع ينمو لدينا مفاده أولويّة العمل الميدانيّ، لا سيّما في ظلّ تهالك ما هو سائد لدينا من "أفكار كبرى" لا تمنح إلاّ القليل من المعرفة بما يجري حولنا، ولا تهيّئ كثيراً لفهم ما يجري حولنا وتحت أقدامنا. هكذا تعلّمنا الكثير ممّا هو جديد علينا، وتأكّد لنا أنّ بعض ما كنّا نعرفه صحيح وبعضه خاطئ.

لم نكن، مثلاً، غرباء عن واقع التفتّت الذي ينتظم طوائف لبنان ومناطقه. إلاّ أنّ جولاتنا أقنعتنا، فيما الانهيارات الجيولوجيّة تضرب مجتمعنا، بأنّ التفتّت هذا يرقى بـ"الشعب اللبنانيّ"، أو ينحطّ به، إلى سويّة شعوب، شعوبٍ يصعب أن تجتمع على شيء كما تجتمع على تناقضاتها.

ولا نعرف ما إذا كان جائزاً ترشيح هذا الكتاب لسدّ بعض النقص في معرفة لبنان الراهن. ما نعرفه أنّنا حاولنا، وفي غضون المحاولة اكتشفنا وجوهاً من ثقافات فرعيّة وأطللنا على وجوه من تواريخ محلّيّة بعضها القليل مشترك وبعضها الكثير متنافر. وكان ممّا راعنا، وهذا من المشتركات القليلة، ندرة النساء اللبنانيّات اللواتي يتحدّثن في الشأن العامّ أو يُعنين به. بل كان لافتاً أنّ رجالاً كثيرين ممّن تحدّثنا إليهم لا يألفون توجيه مخاطبتهم إلى المرأة. وحتّى حين تكون المرأة فينا (بيسان) مَن يطرح السؤال، يكون الرجل فينا (حازم) من يتلقّى الجواب.

وهذا عمل ناقص بطبيعة الحال، ونقصه الأبرز أنّ مناطق أساسيّة في انشغالات اليوم، كمثل عكّار، لم يُتح لنا أن نغطّيها، آملين أن نسدّ هذا النقص في جهد آخر. أمّا لماذا لم

نتطرّق إلى بيروت، على ما قد يتساءل كثيرون، فلظنّنا أنّ جزءاً معتبراً من "البيروتيّ" هو مَصبّ المناطق والطوائف الطرفيّة في العاصمة.

و لم يكن ممكناً، في جوار الثورة والحرب السوريّتين وما نجم عنهما من نزوح، تجاهل هذا الأثر الكبير على لبنان، والذي قد يتحوّل عنصراً تأسيسيّاً في لبنان المستقبل أو لبنانات المستقبل.

وفي الحالات جميعاً، لا يسعنا إلاّ أن نشكر عشرات الأشخاص الذين تحدّثوا إلينا واستضافونا في بيوتهم ومنحونا بعض وقتهم الثمين، لا سيّما منهم أولئك الذين علّقوا على الموادّ بعد نشرها وصحّحوا لنا بعض أخطائنا وهفواتنا.

ب ش

ح ص

أطوار طرابلس

في أحد أيّام ١٩٨٤ تقدّم شبّان مسلّحون من تمثال عبد الحميد كرامي في المدخل الجنوبيّ لطرابلس فأزاحوه. وفي المكان الذي حلّ فيه نُصب رئيس حكومة سابق، وُضع آخر عليه اسم "الله" الذي يعلو قرابة مترين، كما كُتب تحته: "طرابلس قلعة المسلمين". وبعدما عُرفت الساحة المحيطة بالتمثال بـ"ساحة عبد الحميد كرامي"، صار اسمها "ساحة النور"، فيما جعلتها التسمية الشعبيّة الشائعة "ساحة الله".

كان ذاك الفعل الغريب الذي أقدم عليه شبّان "حركة التوحيد الإسلاميّ" إيذاناً بأنّ طرابلس المعهودة اكتمل تغييرها وتمّ. فمَن يعرف "عاصمة الشمال" في الستينات والنصف الأوّل من السبعينات، يذكر كيف كانت السينمات الحديثة، من الكولورادو إلى بالاس ومتروبول وسواها، تصطفّ في بولفار عزمي، عارضةً آخر الأفلام التي ظهرت في نيويورك وباريس. يومها كان نظام القيم مختلفاً، وكان سكّان طرابلس يُقبلون على التعليم والوظائف، إذ الطبيب والمهندس والمحامي و"ابن الدولة" هم المرغوبون. كذلك كانت "شركة نفط العراق"، شمال المدينة، تغري الطرابلسيّين بحياة بدت في المتناول.

وكان للمدينة في تلك الغضون قوام المدن: ساحة التلّ مركزها الموروث عن الزمن العثمانيّ، غير بعيدة عن الأسواق الداخليّة التي تحضن الميراث المملوكيّ. وباب التبّانة، في شمالها، الأهراء الذي تصبّ فيه الحبوب والخضر والفاكهة الوافدة من عكّار والضنيّة، والزاهريّة حيث مدارس الإرساليّات الأجنبيّة وبيوت الطبقة الوسطى، والميناء إلى الغرب يفتحها على البحر الأبيض المتوسّط. يومذاك لم يكن السنّة والمسيحيّون والعلويّون يهيمون واحدهم بالآخر، إلاّ أنّهم، مع هذا، لم يكونوا يتقاتلون و لم يكن أحدهم يهجّر

الثاني، بل درجوا على تبادل الزيارات والمعايدات وباقي "اللياقات" المعهودة.

لقد نقل خالد زيادة في كتابه "يوم الجمعة، يوم الأحد" ما كانت تعيشه طرابلس من توتّر ضامر، لكنّه نقل أيضاً الأفق المشرع أمامها بوصفها "مدينة متوسّطيّة" تعيش وتسعى وتتثاقف. فهذا كان زمن الدولة والتفاؤل باحتمالات مفتوحة. لكنّ طرابلس اعتنقت، قبل سواها، دين اللادولة. ففي ١٩٧٤، وقبل أن تنفجر "حرب السنتين"، نشأت فيها "دولة المطلوبين" التي استقرّت في أسواقها الداخليّة، بزعامة الطافر العكّاري أحمد القدّور. وكانت تلك الحركة التي دعمتها وسلّحتها منظّمة "فتح"، الإشارة المبكرة إلى أسبقيّة طرابلسيّة دفع سكّان المدينة أكلافها الباهظة.

أصول السلفيّة الطرابلسيّة

لكنّ اللادولة قطعت شوطاً طويلاً مذّاك، ربّما كان السلفيّون الحاليّون تتويجه المنطقيّ. والسلفيّون يتّفقون، في رصد نشأتهم، على أنّ إمامهم الأوّل ابن بلدة القلمون الملاصقة لطرابلس جنوباً، الشيخ محمّد رشيد رضا الذي تتلمذ على الشيخ المصريّ محمّد عبده وعُرف بصحيفته الشهيرة التي أصدرها في القاهرة، "المنار". وقد تأثّر بالأخيرة، من دون أن يعرفا رضا، المحدّث محمّد ناصر الألباني الذي أقام في دمشق، والشيخ سالم حسن الشهّال الذي باشر الدعوة السلفيّة في طرابلس أواسط القرن الماضي، وهكذا ظلّ إلى أن توفّي في ٢٠١٠.

لكنّ الدعوة، كما يلخّصها الشيخ حسن الشهّال، ابن شقيق الشيخ سالم، تنهض على تجاوز عصور الخلاف بين المسلمين، من بداية العصر الأمويّ حتّى يومنا هذا، والرجوع إلى صدر الإسلام الأوّل الذي هو عصر النبوّة والخلفاء الراشدين. لكنْ لئن فات الشيخ حسن أنّ ذاك العصر شهد "حرب ردّة" فيما قضى قتلاً ثلاثة من خلفائه الراشدين الأربعة، بقي الهدف عنده وعند باقي السلفيّين الأخذ عن النبيّ وأصحابه وأتباعه من بعده. فالدعوة السلفيّة، إذاً، هي العودة إلى الإسلام ببساطته الأولى التي تُرسم حقبةً مثلى.

والشهّال إذ يستعرض يستدرك، مبرّراً المكث الطويل في الماضي: "الدين ليس

كالعلم، لأنّ حركته تعاكس التطوّر العلميّ المادّيّ. العلم يتغيّر فيما الدين ثابت في أصوله مثلما علّمه الرسول. أمّا باب الاجتهاد فمفتوح لتطبيق الدين على واقع جديد".

استقبلنا الشيخ حسن في مكتب متواضع تابع لـ"جمعيّة الدعوة والإرشاد" في أبي سمرا، تزيّنه شعارات ورموز إسلاميّة، ووراءه علم "لا إله إلا الله" باللون الأخضر. فهناك يشرف الشهّال على مسجد ومدرسة يعلّمان، بين أشياء أخرى، الرواية السلفيّة للتاريخ.

ولا يخفى أنّ وطأة التاريخ ثقيلة على تلك الرواية، تحتلّ فيها بدايات الدول الإسلاميّة ونهاياتها، لا سيّما انهيار السلطنة العثمانيّة، أمكنة فسيحة. مع ذلك ليس هناك كبير خلاف بين السلفيّين في أصلهم العقيديّ ومراجعه، وإنّما الخلاف يكمن، بحسب الشيخ حسن، في السياسة والانتخابات. وبما يذكّر بنقاشات يساريّة شهيرة في الموقف من العمل البرلمانيّ، يشير الشيخ إلى سلفيّين يختارون العزوف عن الانتخابات لأنّ رأي الأكثريّة من عامّة الشعب يغلب فيها رأي العلماء، فضلاً عن أنّ هناك بين المقترعين من يُشترى بالمال. لكنْ إلى جانب هؤلاء النقّاد النخبويّين، ثمّة سلفيّون أكثر راديكاليّة يعترضون انطلاقاً من رفضهم الخضوع لنظام وضعيّ والانضواء في برلمان يعمل بموجب فكر سياسيّ غربيّ.

هكذا تتنوّع الآراء في السياسة وفي الإقبال عليها بين السلفيّين، وصولاً إلى رأي بالغ التطرّف يبديه الشيخ عمر بكري فستق الذي يرفض البرلمان "لأنّ الله وحده هو المشرّع".

حدود القوّة

لكنْ ما حدود قوّة السلفيّين الفعليّة في طرابلس؟ فالشيخ بلال الدقماق الذي قصدناه في مكتبه الذي تزيّنه كتب دينيّة طُبعت أغلفتها بحروف ذهبيّة، وصُفّت بعناية لا ارتجال فيها، يرى أنّ الحركة السلفيّة هي الأقوى، ليس في طرابلس فحسب، بل في مناطق الشمال السنّيّة عموماً، لكنّه ينعى فقدانها القائد وتعدّد قادتها. وفعلاً فإنّ الباحث عن قياديّ كاريزميّ للسلفيّين يجتمعون حوله لا يلبث أن يعود بخفّي حنين، إذ يتبدّى أنّ

كلّ شيخ من شيوخها لديه "تنظيمه" انطلاقاً من الجامع الذي يصلّي فيه أو الحارة التي ينشر ظلّه فيها. والواقع هذا الذي ينمّ عن التركيب الأحيائيّ والحاراتيّ للمدينة، سبق أن استعرض نفسه في "حركة التوحيد". فآنذاك، في الثمانينات، سريعاً ما تفسّخت الأخيرة إلى عدد من "الأمراء" الذين استقلّ كلّ واحد منهم بالسلطة على شطر من طرابلس.

مع هذا تبقى ثمّة أسماء تفوق غيرها بروزاً. هكذا مثلاً يظهر اسم الشيخ سالم الرافعي الذي أعلن أميراً. لكنّ ما يقال عن الرافعي يقتصر على إقامته سابقاً في ألمانيا، وعلى أنّه "يأكل السندويش مع الشباب" تدليلاً على بساطته وشعبويّته. أمّا النجم الصاعد الآخر فالشيخ حسام الصبّاغ، الأصغر سنّاً، والذي يوصف بـ"الأسترالي" لهجرته إلى أستراليا التي يهاجر إليها الكثيرون من فقراء الشمال حتّى عُدّ مهاجروها مصدراً من مصادر الدعم الماليّ لسلفيّي طرابلس.

ويضيف الدقماق أنّ "السلفيّين متشرذمون، وكلّ واحد منهم يريد أن يتقرّب من بلد ما". وقد كان للتشرذم هذا، معطوفاً على "ضعف الماديّات"، أن تسبّب بإغلاق بعض المعاهد السلفيّة في المدينة. لكنّ الشيخ السلفيّ رائد حليحل، الذي يرى أنّ السلفيّين أقوى أطراف الحالة الإسلاميّة، ينبّه إلى سبب آخر وراء التشرذم، هو أنّ السلفيّة تاريخيّاً حركة دعويّة وليست تنظيميّة، فهي بالتالي لا تملك التقليد الحركيّ الذي يترجم فعاليّتها على أحسن وجه.

والسلفيّون في معظمهم جاؤوا إمّا من "حركة التوحيد" التي أسّسها الشيخ الراحل سعيد شعبان أو من "الجماعة الإسلاميّة" الإخوانيّة. لكنْ في ١٩٨٩، وكانت أربع سنوات قد انقضت على تصفية "التوحيد"، تعزّزت الحركة السلفيّة بوصول جيل جديد درس في السعوديّة، كان أبرزه الشيخ أسامة القصّاص الذي قتله في أواخر الثمانينات الأحباش، أو "جمعيّة المشاريع الخيريّة الإسلاميّة"، المدعومة سوريّاً.

مع هذا، ففي ١٩٩٨، سنة رحيل سعيد شعبان، اتّفق جميع الإسلاميّين، وفي عدادهم السلفيّون، على تشكيل لائحة غير مكتملة تقتصر على تسعة مرشّحين من أصل ٢٤ لخوض المعركة البلديّة، فيما شكّل الرئيسان رفيق الحريري وعمر كرامي لائحتين كاملتين متنافستين. وعلى رغم الوجود العسكريّ السوريّ، فاز ثمانية من

أصل المرشّحين التسعة، علماً بوجود أصوات مسيحيّة وعلويّة يستحيل أن تنتخب أيّاً منهم. وهي تجربة يستنتج منها الشهّال أنّ الإسلاميّين "حين يتّفقون ويتعاونون يكونون القوّة الأولى، وهذا قبل الربيع العربيّ، فكيف الآن؟".

ومُحدّثنا يبدو معنيّاً بالتوصّل إلى اتّفاق كهذا، جازماً بأنّ الإسلاميّين سيطالبون بحصّتهم في الانتخابات العامّة المقرّرة في ٢٠١٣. فطرابلس يُرجّح أن تشهد قائمتين على الأقلّ، واحدة لكرامي والأخرى لـ"تيّار المستقبل"، أمّا الحالة الإسلاميّة فستكون "بمثابة العروس" التي يخطب ودّها الطرفان.

ولا شكّ في أنّ المعنويّات ارتفعت مع رحيل القوّات السوريّة، في ٢٠٠٥، فأعيد فتح المعاهد السلفيّة التي سبق أن أُغلقت وكانت تضمّ ألف طالب وطالبة يدرسون العلم الشرعيّ. وقد حاول السلفيّون مبكراً تقليد "الجماعة الإسلاميّة" في إنشائها المدارس والمؤسّسات الخيريّة، فأقاموها من ضمن المساجد، وكان معظمها مدارس للتعليم الدينيّ وتحفيظ القرآن، فضلاً عن ملعب لكرة القدم. وهو ما يراه الأستاذ الجامعيّ سامر أنّوس محاكاة لـ"النموذج الإسلاميّ الجزائريّ" في بناء مجتمع مضادّ.

بيد أنّ تعريف القوّة يبقى على شيء من الغموض. فالشباب السلفيّ يعدّ بالمئات، كما يقدّر الشيخ بلال. إلاّ أنّ عدد السلفيّين ليس مهمّاً في نظر الناشط والمدرّس غابي سرور. فهم "ربّما كانوا قلائل، غير أنّ الجوّ العامّ في طرابلس يذكّر بمناخ احتضان الثورة الفلسطينيّة في الستينات والسبعينات". فالأمر في النهاية أمر مناخ، لا أمر عدد.

أيّة سياسة وأيّة جذريّة؟

ليس الشيخ حسن الشهّال من الذين يدعون إلى مقاطعة السياسة. فهو، على العكس، من دعاة الانخراط فيها، يستشهد بتجربة السلفيّين المصريّين البرلمانيّة، ويجزم بأنّ السلفيّين لو اتّفقوا لاستطاعوا، بالتفاهم مع إسلاميّين آخرين، أن يحصدوا نصف المقاعد البرلمانيّة في طرابلس. غير أنّه لا يلبث أن يضيف بأسى: "لكنّ بعضهم اليوم عند الرئيس عمر كرامي، وبعضهم عند الرئيس نجيب ميقاتي، وهكذا دواليك...".

وبالفعل فالشيخ حسن الستينيّ، الذي نال شهادة دكتوراه في الأدب العربيّ من

الجامعة اليسوعيّة، أقلّ السلفيّين راديكاليّة. فهو فخور بعائلته وبـ"أبناء العائلات" عموماً، كما أنّه فخور بمدينته طرابلس، بحيث إنّ تقديره للشيخ الصيداويّ أحمد الأسير لا يمنعه من القول "إنّ طرابلس لا تكون إلاّ مركزاً قياديّاً". وإلى ذلك تراه لا ينسى الاعتزاز بلبنانيّة صريحة.

والشهّال الذي يجيد عرض آرائه وشرحها، على غرار الكوادر المتقدّمة في الأحزاب اللبنانيّة، يرطن بكلام ميثاقيّ كان يمكن لميشال شيحا أن يكتبه. فعنده أنّ العلاقات المسلمة – المسيحيّة، وكذلك السنّيّة – الشيعيّة، لا تقوم إلاّ على الحوار لنشر ثقافة السلام، ذاك أنّ لبنان "ينبغي أن يكون مثالاً يُحتذى". أمّا مأخذه الأوّل على حزب الله فأنّه إيرانيّ أكثر منه لبنانيّاً، بدلالة أخذه بـ"ولاية الفقيه (...) فيما أنا لبنانيّ أوّلاً". لكنّه يأخذ أيضاً على الحزب أنّه اتّخذ قرار الحرب من دون مراجعة باقي اللبنانيّين ومشاورتهم، علماً بأنّهم دفعوا ويدفعون الأكلاف الباهظة لحربه. ولا يلبث الشهّال أن يضيف: "النبيّ نفسه في معركة بدر استشار المسلمين (...) قرار الحرب مع إسرائيل ليس بسيطاً وتلزمه شروط كثيرة لا يستطيع لبنان كلّه أن يوفّرها".

وهو يميل إلى كلام مباشر في السياسة أكثر من ميله إلى القضايا النظريّة والمجرّدة. هكذا يتحدّث بمرارة عن شعور لدى الطرابلسيّين بأنّهم مُستهدَفون من ميشال عون الذي يصفه بأنّه "أسوأ من حزب الله"، ويعتبر، وهو السلفيّ الضارب في الزمن، أنّ "القانون الأرثوذكسيّ يعيدنا ٢٠٠ سنة إلى الوراء". لكنّه، في غمرة الكلام اليوميّ، يسجّل لرئيس الحكومة نجيب ميقاتي انتماءه إلى عائلة متديّنة ظهر فيها مُفتون، فيما يسجّل عليه، بلغة مُعاتبة، تحالفاته وقيام حكومته على دعم حزب الله وعون.

وبمعنى مشابه يرى بلال الدقماق أنّ ميقاتي "بلا تاريخ أسود، ولم يؤذ أحداً"، إلاّ أنّه "ارتكب خطأً بتشكيله هذه الحكومة وتحالفه مع السوريّين وحزب الله". وحين يأتي الشيخ بلال على ذكر اللواء أشرف ريفي واللواء الراحل وسام الحسن يُرفق ذكر كلّ منهما بكلمة "صديقي". وبدوره، فحين يأخذ الشيخ رائد حليحل، الآتي إلى السلفيّة من صفوف "الجماعة الإسلاميّة"، على ميقاتي سياسته السوريّة، يحرص على تلقيبه "دولة الرئيس"، وعندما يشير إلى مفتي الجمهوريّة يسمّيه "سماحة المفتي". أمّا حسن الشهّال فيصف العلاقة بدار الإفتاء في طرابلس بأنّها "جيّدة"، وإن كانت "طبيعيّة"

بحسب مفتي الجمهوريّة، مضيفاً: "إنّنا لا نريد لدار الفتوى أن توضع في جيب أيّ سياسيّ، بل أن تُصلح ذات البين بين السياسيّين السنّة في حال خلافهم".

والحال أنّ الوحيد الذي يشذّ عن اللغة التسوويّة هذه هو الشيخ عمر بكري فستق متحفّظاً عن "جميع" مشايخ لبنان. فهو يقول إنّه "جرّبهم كلّهم"، ورأى أنّهم يستشهدون بأقوال لسياسيّين وقادة عسكريّين وأمنيّين، فيما الإسلاميّ الصحيح لا يقول إلاّ "قال الله وقال الرسول".

... وأيّ قطع؟

واقع الأمر أنّ السلفيّين ليسوا ثوّاراً راديكاليّين، بل يقدّمون أنفسهم، لفظيّاً على الأقلّ، بوصفهم متصالحين مع جميع القوى والمؤسّسات السائدة، وأحياناً طامحين إلى رضاها. ولا يملك متأمّل المشايخ السلفيّين إلاّ أن يلاحظ ذاك الميل الموارب إلى التعويل على ما هو غير سلفيّ البتّة، عملاً بوجهة كونيّة بات يُنعت بها الإسلاميّون. فالشهّال الفخور بدراسته في اليسوعيّة يتعاطى الإي ميل وإن كلّف به مساعداً له، فيما البكري يقول إنّه يدرّس طلاّبه في بريطانيا عبر الإنترنت. وحين يسخر الدقماق من سلفيّين أقلّ "علماً" يقول إنّهم "يستفتون الشيخ غوغل والشيخ ياهو". أمّا الشيخ رائد حليحل فأمامه كومبيوتر يعاود النظر إليه والتحديق فيه. وهو يحدّثنا عن "فايسبوك" وا لـ"واتس أب" كأدوات تواصل يستخدمها السلفيّون في الدعوة إلى تظاهراتهم ومناسباتهم الكبرى، وهذا بالطبع فضلاً عن المساجد بوصفها "البيئات الحاضنة". وإذ يودّعنا الشيخ رائد لا ينسى إبداء اهتمام أبويّ بأهميّة الإعلام، كما لا يفوته تعليمنا كيف نكون إعلاميّين جيّدين. وكمثل الباحث عن شهادة حسن سلوك من بيئة متّهمة بسوء سلوكها، يتشارك فستق والدقماق في التباهي بأنّهما شاركا في جلسات "توك شو" تلفزيونيّة، وأنّ محاورهما الصحافيّ قال لهما إنّهما غيّرا رأيه في السلفيّة.

غير أنّ هذا الامتثال، وكما تقول تجارب لا حصر لها، لا يعني أنّ الممتثل سيبقى هكذا إلى ما لا نهاية. فحين يستكمل الضعيف، المدجّج بالأفكار الحاسمة، تحوّله إلى قويّ، لا يظهر منه إلاّ تلك الأفكار الحاسمة التي توجّه شفرتها إلى أقوياء الزمن الماضي.

وهذا لا يعني أصلاً أنّ السلفيّة تنمو من دون قطع، لكنّ ما تباشر القطع معه هو العدوّ الضعيف، أي في التأريخ الطرابلسيّ، العهد الفلسطينيّ – اليساريّ. فأبناء ذاك العهد لا يتحسّسون فقط الغربة عن السياسة كما يمارسها السلفيّون، بل شيئاً من فقدان المعنى الذي يوقع صاحبه في الاكتئاب. هكذا حدّثنا شابّ متفرّع عن تلك الحقبة النضاليّة، فروى أنّ أهل الحيّ كانوا يحيّونه ويتقاطرون للسلام عليه قبل سنوات قليلة، فقد لديهم امتيازه هذا مع الصعود السلفيّ، خصوصاً منذ اندلاع الثورة السوريّة، فصار يمرّ بينهم كمثل أيّ عابر سبيل.

وقد يكون الشيخ إبراهيم الصالح عيّنة أخرى، ولو اختلفت قليلاً، عن الفئة هذه. فابن شقيق الشيخ صبحي الصالح الذي انتقل من "منظّمة العمل الشيوعي" إلى المشيخة، على جناح الانتساب إلى "حركة التوحيد"، يقول إنّ المرحلة "صعبة كثيراً"، مشكّكاً في صلاح تعبير "حالة إسلاميّة" في طرابلس. ففي رأيه أنّ الثمانينات شهدت مثل هذه الحالة التي جسّدتها "مدارس فكريّة" كالإخوان وحزب التحرير وحزب الدعوة وأجواء الثورة الإيرانيّة. أمّا اليوم فلا شيء من هذا. ذاك أنّه منذ اغتيال الرئيس رفيق الحريري في ٢٠٠٥، سيطر على الشارع الإسلاميّ "خطاب متوتّر وشديد العاطفيّة". وإذ غاب العقل، صارت السياسة تقتصر على اتّهام سوريّة بكلّ شيء، علماً بأنّ سوريّة، في نظر الشيخ، لم تقصّر في الإساءة إلى طرابلس.

والصالح الذي يتحدّث بمصطلحات حديثة، ويدخّن الغليون ويظهر في زيّ "مودرن" لابساً سترة جلديّة أنيقة، يُقحم تعابير أجنبيّة في كلامه، ويعرض أفكاره بدماثة، لكن بصلابة ضمنيّة تميّز طرق المجادلات اليساريّة القديمة. وهو لئن اتّهمه خصومه بـ"علاقات مع حزب الله"، ردّ بتأكيد تمسّكه بـ"المقاومة"، وإعلان تحفّظاته عمّا تبقّى من نظريّات حزب الله. لكنّ الصالح يملك، في مواجهة السلفيّين، حججاً أخرى، منها نسيانهم موضوع فلسطين، وعدم طرحهم مسألة العدالة، بل اقتصار دعواهم على الخلاف السنّيّ – العلويّ. وهو إذ يُلمح إلى "أوامر مصدرها الأجهزة الأمنيّة" يتقيّد بها السلفيّون، يغازل التفسير التآمري بنفيه كلّ عنصر داخليّ عن نشأتهم وإحالتها على تحريك خليجيّ وسعوديّ، وإلى "قرار بتعطيل دور الأزهر ومرجعيّته". ولأجل أغراض كهذه، تعرّضت طرابلس وتتعرّض لدفق ماليّ "خياليّ" تجاوز المال الذي

كان يبذره ياسر عرفات في المدينة.

لكنّ الصالح الذي يرعى "منتدى طرابلس"، كان وحده من مضيفينا مَن أعدّ لنا القهوة والشاي بنفسه، من دون أن يزعم النطق بلسان قوى جماهيريّة معلنة أو مخبّأة.

الديموغرافيا والثقافة

لم تصل طرابلس بين ليلة وضحاها إلى الحالة التي هي فيها اليوم. وهي ما كانت لتبلغ هذا الدرك لولا جملة من التحوّلات التي تتصدّرها الديموغرافيا. فتاريخ المدينة ربّما كان تاريخ انتقال مديد، لكن متّصل، من دواخلها إلى ظاهرها.

ويبدو أنّ العمليّة هذه بدأت في النصف الثاني من الخمسينات، حين أقيمت منطقة "المنكوبين" بسبب فيضان نهر أبو علي. هكذا توالت حركات هجرة من الأسواق الداخليّة وجوارها في منطقة الكويرة وساحة الأميركان التي غادرتها "عليّة القوم"، المتعدّدة الطوائف.

وهناك، إلى يومنا هذا، عديد البيوت الشرقيّة البديعة المبنيّة في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، والتي غدت، بجدرانها المقشّرة وشرفاتها المتصدّعة ونوافذها المتهالكة، أقرب إلى أطلال تنمّ عن ماضٍ يزداد ابتعاداً.

والأمر نفسه حصل، على نطاق أوسع، في السبعينات والثمانينات، فانتقلت عائلات أخرى من منطقة الزاهريّة إلى شوارع المتين وعزمي الجديدة والحديثة، ثمّ هجرت عائلات مسلمة ومسيحيّة الزاهريّة لتقيم في قضاء الكورة. ودائماً كانت الأحياء المتروكة تجد في سكّان المناطق الشماليّة السنّيّة الوافدين إلى طرابلس من يشغلها.

وهذا ما يفسّر أنّ قسماً كبيراً من السلفيّين غير طرابلسيّين، يعودون في أصولهم إلى عكّار والضنيّة وإن سكنوا مناطق طرابلس، لا سيّما منها باب التبّانة. لكنّه يفسّر أيضاً ترييف القيم بحيث يقول أحد الطرابلسيّين "القدامى" المتذمّرين ممّا آلت إليه الأحوال إنّ ثلثي النساء في المدينة محجّبات اليوم، أمّا الثلث غير المحجّب فنسبة مرتفعة منه تعود إلى الأرياف المسيحيّة المجاورة. وتندرج في قلب الترييف هذا أسلمة شعبيّة وجدت طريقها إلى رئاسة البلديّة التي حلّ فيها نادر غزال، الموصوف لوقت طويل بالتعاطف في الآن

ذاته مع "الجماعة الإسلاميّة" و"المستقبل" قبل أن يبتعد عن الثاني لاحقاً. فاليوم تنفتح أجهزة الكومبيوتر التابعة للبلديّة على "الله أكبر"، وترنّ التليفونات مصحوبة بالصلاة.

وفي هذا الاختلاط الديموغرافيّ والقيميّ تتحوّل طرابلس، بحسب وصف سامر أنّوس، مكاناً شبيهاً بالغرب الأميركيّ كما تنقله أفلام الوسترن. فالسلاح والأمن فالتان، فيما يمتدّ انكفاء الدولة عن "عاصمة الشمال" من غياب الأدوات الأمنيّة إلى ضمور الخدمات، بما فيها إصلاح الطرق. وقد باتت هذه الصورة القاتمة أشدّ انقشاعاً مع توسّع رقعة شبّان الأحياء العاطلين من العمل وانتشارهم في المزيد من شوارع المدينة ومناطقها.

لكنّ الوجهة هذه لم تجد في مقابلها ما يحدّ منها. ففي التسعينات بدأ البناء في منطقة "الضمّ والفرز" التي راحت تقيم فيها، منذ ٢٠٠٦، عائلات بورجوازيّة متوسّطة وحديثة النشأة، بعضها جنى أمواله في الخليج. إلاّ أنّ المنطقة الجديدة هذه تبدو شديدة المراعاة للقيم التي لا تبتعد كثيراً عن قيم الوافدين الريفيّين إلى طرابلس. وكما يحصل عادة في أحياء حديثة النشأة، أتى قاطنوها من أمكنة شتّى، يناط بالدعوات الإيديولوجيّة الكبرى أن تشكّل اللحمة التي تعوّض الافتقار إلى حياة وتجربة جامعتين. هكذا تخلو "الضمّ والفرز" من المشروبات الكحوليّة، لكنّها أيضاً تخلو من كلّ وجود ثقافيّ، فلا دور سينما هناك ولا مسرح أو مكتبات. فالفتيات يفضّلن حجاب الموضة وتدخين النراجيل، فيما الشباب يسرّحون شعورهم بـ"الجلّ" ويقودون سيّارات الدفع الرباعيّ. وحينما أقدم شبّان قليلون على إحياء أمسيات ثقافيّة محدودة النطاق في مقهى صغير سمّاه أصحابه "طافش"، صوّر أهل الحيّ روّاده بأنّهم "غريبو الأطوار ومثليّون".

صحيح أنّ طرابلس شهدت، في مطالع التسعينات، وفي توازٍ مع الحركة الحريريّة في بيروت، إنشاء مجمّعات تجاريّة قليلة تضمّ دور سينما حديثة، غير أنّ تلك المجمّعات ودُورها تبدو فارغة اليوم، فلا يَبثّ فيها شيئاً من الحياة إلاّ عاملات المنازل الفيليبينيّات أيّام الآحاد.

أمّا الطرابلسيّون الذين يريدون لأوقات فراغهم أن تمتلئ بشيء من المتعة، فما عليهم إلاّ السهر في قضاء البترون المسيحيّ.

بطبيعة الحال هناك الإسلام التقليديّ في طرابلس الذي تترجّح رموزه التمثيليّة بين "تيّار المستقبل" ونجيب ميقاتي ومصباح الأحدب. لكنّ الطرابلسيّين هؤلاء يجمعون

بين استئناف حياة عاديّة لا سياسة فيها، ولا تستثني السباحة المختلطة خارج مدينتهم، وبين العيش المحافظ والمندمج، بما في ذلك أداء الفروض الدينيّة، في طرابلس ذاتها.

وهذا الفصام الثقافيّ سمة طرابلسيّة مميّزة. ذاك أنّ الحرّيّة تحصل "هناك"، في المكان البعيد وغير المرئيّ، فيما الامتثال والإجماع يحصلان "هنا". لكنْ لمّا كانت الحرّيّة لا تجد من يدافع عنها ويتصدّى لطلبها "هنا"، تمّ ذلك عن خجل بالحرّيّة كما لو أنّها، في قرارة النفس، شيء مرذول.

هكذا يكسب السلفيّون المعركة الثقافيّة في طرابلس قبل أن تبدأ، وبهذا تجني على نفسها براقش.

الطبقة السياسيّة

يكمّل هذا المنحى الانحداريّ سلوك الطبقة السياسيّة الطرابلسيّة. فالزعامات التقليديّة، بحسب الشيخ بلال الدقماق، تقلّصت وتحوّل بعضها زعامات ماليّة. ذاك أنّ أُسَر المقدّم وحمزة والأحدب إمّا اندثرت سياسيّاً أو انكمش نفوذها، فيما تراجع آل كرامي تراجعاً يجعل البعض يعيّر الوزير فيصل كرامي بأنّه "ممثّل الشيعة في حكومة ميقاتي".

والحال أنّ الضمور في شعبيّة "تيّار المستقبل" والرئيس سعد الحريري، التي لا تزال تُعدّ الشعبيّة الأولى في الوسط التقليديّ، بات واضحاً. فقد دلّ عليه هزال الحفل التأبينيّ الذي أقيم للّواء وسام الحسن، الأمر الذي يردّه البعض إلى توقّف خدمات "المستقبل" في المناطق الشعبيّة قبل ثلاث سنوات. فإذا أضفنا تبخّر الوعود بالمشاريع التي أطلقها الرئيس سعد الحريري قبيل الانتخابات العامّة، فهمنا سرّ الانكماش ذاك.

ليس هذا فحسب، فالسياسيّون التقليديّون يسترضون السلفيّين، لا بالمواقف وحدها، بل بالأعطيات الماليّة أيضاً. والشائع أنّ ميقاتي "أكثر من يدفع"، فيما "يدفع" مصباح الأحدب لغويّاً برفعه الجرعة السنّيّة والدفاع عن المساجين الإسلاميّين في كلامه. لكنّ نائب تيار المستقبل سالم كبّارة أنشأ أيضاً "اللقاء الإسلاميّ" لجمع التيّارات الإسلاميّة فيه والاحتفاظ به جسراً يربطه ويربط "المستقبل" بها. وبين الصفات القليلة التي يوصف بها الشيخ السلفيّ سالم الرافعي أنّ "المستقبل" يغازله لأنّه يهدّد بسحب بعض شبابه إليه.

ونزعة الالتحاق هذه ليست جديدة في طبقة يصفها غابي سرور بأنّها رضخت، في ما مضى، لكافّة الموجات المشابهة، من الناصريّة إلى المقاومة الفلسطينيّة إلى التوحيد، واحتملت التوحيد التي أقامت "إمارة" لا تُحتمل. فحتّى لو كانت التذمّرات تشمل ٩٠ في المئة من السكّان المحبّين للأمن والاستقرار، تبقى الطبقة السياسيّة أسيرة صمتها المقدّس. ولئن اعتصم أمام سراي طرابلس مئات الشبّان المطالبين بمدينة منزوعة السلاح، فإنّ جهودهم ظلّت أضعف كثيراً ممّا يتطلّبه إنقاذ مئات آلاف الطرابلسيّين.

والحال أنّ الزعامة الطرابلسيّة عرفت في العهد الاستقلاليّ طورين لم ينطو أيّ منهما على علاقة فعليّة بين السياسيّ والمسوس. فمع الرئيس الراحل رشيد كرامي، بدت السياسة، أقلّه حتّى صعود المقاومة الفلسطينيّة، أشبه باحتكار مغلق تجرّأ قليلون، كالمحامي قبولي الذوق والطبيب البعثيّ عبد المجيد الرافعي، على تحدّيه. والزعامة الوطيدة والواثقة هذه لم تنهض فحسب على التفويض الكامل للعهد الشهابيّ الذي أبقى كرامي رئيس حكومة لسنوات متتالية، ولا على التماهي الذي أقيم بين الناصريّة والكراميّة، فضلاً عن بنوّة رشيد لعبد الحميد كرامي، أحد زعماء الحقبة الاستقلاليّة. فإلى ذلك كلّه ارتكزت الكراميّة على حقيقة أنّ الإفتاء في طرابلس بقي في بيتها طوال أربعة قرون مديدة.

أمّا في الطور الثاني الذي سادته الحركات العاميّة والجماهيريّة، فصار السياسيّ تابعاً وملحقاً لا يطلب إلاّ الاحترام اللفظيّ والبقاء على قيد الحياة إلى أن "تتغيّر الظروف"، فيما الظروف لا يغيّرها إلاّ الله الذي هو على كلّ شيء قدير.

وبالطبع لعبت مسألة الهويّة دوراً بارزاً في هذا التبادل الذي أحلّ، مرّة بعد مرّة، أولويّة القضايا على أولويّات المدينة ومصالحها. فالتشنّج المتوارث حيال لبنان والوطنيّة اللبنانيّة كان يخلق تباعاً للعروبة الناصريّة والمقاومة الفلسطينيّة والإسلام النضاليّ سحراً لا يُقاوَم، وإن كان التفتّت الطرابلسيّ نفسه يبدّد هذا السحر بأن يترجمه حارات متقاتلة وزعامات متناحرة.

ولأنّ التجارب المتكرّرة لم تعلّم الطرابلسيّين شيئاً، نشأ للمدينة سياق آخر مستقلّ عن باقي لبنان، فيما نشأت لها لغة قائمة بذاتها، وغدت المسافة التي تفصلها عن بيروت

أكثر كثيراً من ٨٠ كيلومتراً. فإذا جاز النقاش في ما إذا كان لبنان دولة فاشلة أو لا، فالأمر المؤكّد أنّ طرابلس مدينة فاشلة.

المظلوميّة...

لئن كانت "عاصمة الشمال" ظالمة نفسها، فهذا لا يلغي وجود ظالمين آخرين لها. والراهن أنّ المظلوميّة واحد من مصطلحات الأدب السياسيّ الطرابلسيّ الجامع.

فالأمر، عند السلفيّين، ظلم مركّب يطالهم كطرابلسيّين وكسنّة وكسلفيّين. وهم يبدون كمن استجلب هذا المفهوم من الأدبيّات الشيعيّة بغرض استخدامه ضدّ شيعة حزب الله. إلاّ أنّ غيرهم قد يستعمله كراسب من رواسب الرطانة اليساريّة التي لم تُراجَع.

فعلى مكتب الشيخ حسن الشهّال جريدة محلّيّة اسمها "الرقيب" يقول مانشيتها العريض: "المدينة المظلومة". وبدوره، يستعيد الشيخ إبراهيم الصالح، المناوئ للسلفيّة، هذه المظلوميّة ويردّ بداياتها إلى ١٩٣٢، حين "عوقبت" المدينة لتأييدها الوحدة السوريّة، كذلك دُمّر مرفأ طرابلس الذي كان مرفأً لأجزاء واسعة من الداخل السوريّ، وذلك لمصلحة مرفأ بيروت.

على أنّ الثمانينات تبقى مفصلاً أساسيّاً من مفاصل الوعي هذا. ففي مطالعها نشأت "حركة التوحيد" في طرابلس، فيما نشأ حزب الله في بيروت والجنوب. غير أنّ المقارنة بين مصائر الحزبين كفيلة بإقناع الإسلاميّ الطرابلسيّ بواقع المظلوميّة الذي كان النظام السوريّ مهندسه الأوّل. ذاك أنّ السوريّين الذين عزّزوا الحزب الشيعيّ، ومدّوه بأسباب القوّة كلّها، دمّروا الحركة السنّيّة ودمّروا معها أجزاءً من المدينة قبل أن يُحكموا إخضاع الاثنتين.

والرموز الطرابلسيّة التي اتّهم النظام السوريّ بقتلها أو بتهجيرها كثيرة. فلقد انتهى الأمر بفاروق المقدّم، أحد وجوه المدينة في السبعينات، "لاجئاً" في جونية، حيث كانت تسيطر القوّات اللبنانيّة، فيما استقرّ النائب البعثيّ عبد المجيد الرافعي في بغداد. أمّا الشيخ صبحي الصالح والصحافيّ سليم اللوزي فكانت حظوظهما أسوأ إذ قضيا

اغتيالاً. وعلى الصعيد السنّيّ الأوسع، قُتل باليد ذاتها مفتي الجمهوريّة الشيخ حسن خالد.

وفي هذه الغضون رعى السوريّون إنشاء "جمعيّة المشاريع الخيريّة الإسلاميّة"، أو "الأحباش"، ودعموها. وبما لا يخفى من استفزاز خطّطوا لإيصال أحد شيوخها، نزار الحلبي، إلى منصب مفتي الجمهوريّة. و لم تكن الجمعيّة هذه غير مخلب قطّ للقوّات السوريّة في طرابلس وفي سواها.

ويروي الشيخ بلال الدقماق الذي تحوّل إلى السلفيّة في ١٩٨٦ وكان له من العمر ١٦ سنة، أنّ "جمعيّة الهداية والإحسان الإسلاميّة" إنّما "تمّ ضربها في ١٩٩٥ بسبب حقد النظام السوريّ، وكان ذلك من خلال الأحباش. حصل هذا لدى العثور على كتاب في الجمعيّة يتحدّث عن النصيريّة وعن حافظ الأسد. هكذا تمّ توقيفي، أنا والشيخ رائد كبّارة والشيخ راضي الإسلام الشهّال وإسماعيل إسماعيل، وحُوّلنا إلى التحقيق في عنجر حيث كان التعذيب شرساً. لقد حُلّت الجمعيّة وأُقفلت بالشمع الأحمر".

ثمّ كانت أحداث الضنّيّة في ٢٠٠٠، حيث حاول السلفيّ أبو عائشة، الذي قاتل في أفغانستان، إقامة إمارة إسلاميّة هناك. وكان لتلك الأحداث أن أدّت إلى مقتل أكثر من ٣٥ سلفيّاً واعتقال نحو ستين.

وجاءت أحداث ١١ أيلول وكانت طرابلس، كما يقول الدقماق، ممسوكة بقوّة من السوريّين، فعوملوا "بوصفهم سنّة". هكذا أُخضعوا لموجبات التنسيق الأمنيّ بين السوريّين والأميركيّين. بعد ذاك طرأت المواجهة الطاحنة، والغامضة، في ٢٠٠٧، في مخيّم نهر البارد شمال طرابلس. وهذه خلّفت، بدورها، تدمير المخيّم وسقوط أعداد من القتلى، سلفيّين وغير سلفيّين، فضلاً عن قتلى الجيش اللبنانيّ. وهنا أيضاً أضيف معتقلون آخرون إلى معتقلي الضنّيّة ليتحوّل "مساجين سجن رومية" إلى أبرز علامات المظلوميّة السلفيّة، وربّما رافعتَهم إلى مزيد من القوّة والتمكين. ولئن شكّل الموقع الذي احتلّه رفيق الحريري في "دولة بشّار وحزب الله" تسكيناً نسبيّاً للجرح السنّيّ، فإنّ اغتياله في ٢٠٠٥ أضفى على تلك المظلوميّة طابعاً إطلاقيّاً. ثمّ أتى احتلال بيروت في ٢٠٠٨ ملحاً على الجرح، الأمر الذي أثار، بحسب الدقماق، ندماً واسعاً على ضرب "فتح الإسلام" في نهر البارد و"عصبة الأنصار" في صيدا ممّن كان في وسعهم أن

يدافعوا عن السنّة المظلومين.

وفي عمومها كانت تلك وجهة ملتوية يختطّها النظام السوريّ. فهو قمع هذه البيئة بقسوة، مباشرة أو مداورة، بيد أنّه باليد الأخرى سهّل انتقال كثيرين من أبنائها للقتال في العراق ضمن صفوف المقاومات السنّيّة.

ولدى سؤاله عمّن هو عدوّه الرقم ١، لا يتردّد الشيخ بلال الدقماق في الإجابة القاطعة: "الفرس". والتعبير الأخير يغطّي، عنده، رقعة تمتدّ من إيران إلى حزب الله ممّن يصفهم بالمذهبيّة والوقوف مع النظام السوريّ.

والحال أنّ سلاح حزب الله يبقى الذريعة الأولى لدى من يدافعون عن السلاح في طرابلس، إذ لماذا يحقّ لهم التسلّح في العاصمة الأولى ولا يحقّ لنا التسلّح في العاصمة الثانية؟

أكثر من هذا، يقول حسن الشهّال إنّ لدى حزب الله مجموعات في طرابلس نفسها، وإنّ لديه حلفاء يموّلهم. لكنّ هؤلاء، على رغم التمويل والسلاح، لا يستطيعون الوقوف ضدّ جوّ المدينة العامّ. ويشير آخرون إلى أنّ حزب الله يخترق "حركة التوحيد" والشيخ بلال شعبان، لكنّ الشيخ حليحل يرى أنّ ذلك لم يمنع شعبان من تقديم مساعدات إنسانيّة للنازحين السوريّين بسبب ذاك الإجماع العريض حول الموضوع السوريّ في المدينة.

وهو بالفعل إجماع يحمل المتّهمين بعلاقة ما مع حزب الله على التنصّل. فعمر بكري فستق ينفي ما يتردّد عن دعم الحزب له: صحيح أنّه "أخرجني بكفالة من السجن"، لكنّ النائب والمحامي نوّار الساحلي الذي كلّفه الحزب بالدفاع عنه، لم يحضر، بحسب فستق، سوى جلسة واحدة في المحاكم من أصل عشر جلسات. ومع الخلاف في الموقف من الثورة السوريّة "لم تبق هناك أيّة علاقة بيننا".

القاعدة؟

ويرفض الشيخ رائد حليحل المبالغة التي تصف طرابلس بأنّها تورا بورا، مؤكّداً أنّها مدينة متديّنة أصلاً. وهو محقّ على الأرجح، إذ لم تقم في "عاصمة الشمال" إمارة سلفيّة

بعد، كذلك فإنّ المسيحيّين والمسلمين غير السلفيّين لا يزال في وسعهم أن يتمتّعوا بحياة يتعاظم الحصار المضروب عليها. لكنّ حليحل، القندهاريّ اللحية والعمامة، اختار لنفسه مظهراً لا يطابق أقواله كثيراً. وبدوره يعترف الشيخ حسن الشهّال بـ"تأثّرات بالقاعدة"، إلاّ أنّه يصفها بأنّها غير منظّمة ولا مؤطّرة، مضيفاً أنّ القاعدة أعطت صورة سيّئة عن الإسلام ساهم فيها "الإعلام الغربيّ واليهوديّ".

ويبقى الصوت الأعلى في إعلان قاعديّته الشيخ عمر بكري فستق، غير الطرابلسيّ والضعيف التأثير في طرابلس. ففستق الذي عاش في بريطانيا وأُبعد عنها، تحوم حول شخصه وحول تمويله علامات استفهام كثيرة تمعن في إضعافه. وهو إذ يردّ قائلاً إنّ لديه في بريطانيا أربعة آلاف طالب مسلم يشترون شرائطه، لا يفعل إلاّ توسيع جيب الشكّ به. لكنّ ما لا ينتبه إليه الكثيرون من نقّاده أنّ عدم الصدق الذي ينسبونه إليه أقلّ أذى وضرراً من الصدق الذي ينسبه إلى نفسه. فهو، بحسب وصفه، "قاعديّ الهوى، قندهاريّ المدرسة"، وعنده أنّ "نسور التوحيد" هم من نفّذوا ١١ أيلول، الذي لولاه لما كان "الربيع الإسلاميّ".

والحقّ أنّ الشيخ عمر أكثر من تشعر في حضوره بحضور القرون الوسطى وبانطواء العقل المعتم على ألاعيب بهلوانيّة. فهو الكاريكاتور السلفيّ في ذروة تألّقه، ولكنْ أيضاً في انفلات لـ"الأنا" المتورّمة عزّ مثيله. فهو يتحدّث عن نفسه في صيغة "عمر فعل" و"عمر قال"، كما ينسّب ذاته إلى تاريخ نضاليّ مديد توّجه طرده من بريطانيا "لأنّني كنت أدعو للخلافة" هناك.

لقد استقبلنا الشيخ عمر في منزله في أبو سمرا، حيث يتراءى أنّ الرطوبة تقيم في جدران المنزل الذي أغلق أبوابه ونوافذه طويلاً في وجه الشمس. لكنّ المنزل يضجّ في داخله بالكيتش الخشبيّ الذي يلائم ذوق صاحبه.

وهو حين يطلق العنان للسانه، لا ينسى الافتخار بـ"أقارب" له هم من "الذوات" الذين لا يربطهم رابط بإسلامه. لكنّه، في المقابل، يضع الإسلام في مواجهة الديموقراطيّة التي "ظنّ الغرب أنّها ستنتصر في انتخابات بلدان الربيع الإسلاميّ، فإذا بالناس ينتخبون الإسلام". وهنا يُستثنى من الإسلام كثيرون في طليعتهم "الإخوان" الذين "دعمتهم أميركا كي يكونوا الحاجز دون الإسلام الفعليّ". ومستخدماً بعض لوازم الأدبيّات

الإرهابيّة، يحدّثنا عن "حواضن جهاديّة" باتت متوافرة في مصر وتونس وليبيا، وعن "مغانم" على شكل ذهب غنمته القاعدة من بيوت ليبيّي النظام السابق. وهو بالطبع لا ينسى التفاخر بدعم "الجهاد" في أفغانستان والشيشان والبوسنة وسواها.

بيد أنّ الشيخ بلال الدقماق يرى أيضاً في أسامة بن لادن مثاله، ويقول إنّ القليل النادر من السلفيّين هم من لا يحبّون زعيم القاعدة. فحين تسأله عن صدّام حسين يجيب: "صدّام كان طاغية، لكنّ أفعاله في أواخر حياته كانت جيّدة، وطريقة قتله والتمثيل بالجثّة أجّجا الخلافات بين السنّة والشيعة".

وفي ذلك كلّه شيء مقلق.

علويّون ومسيحيّون

يشكّل التأزّم السنّيّ – العلويّ وما ينجرّ عنه من اشتباكات بين منطقتي باب التبّانة السنّيّة وبعل محسن العلويّة، نقطة الانفجار المباشرة التي زادها الصراع في سوريّة احتقاناً وخطورة. فالنظام السوريّ رعى طويلاً هذه البؤرة الملتهبة، حتّى إذا اهتزّ زادت حاجته إلى الرعاية والتوظيف بحيث باتت الاشتباكات تحصد عشرات القتلى ومئات الجرحى.

والحرب الأهليّة المصغّرة والمتقطّعة تلك مرشّحة للتجدّد في أيّة لحظة، خصوصاً أنّها أقلّ الحروب الأهليّة اللبنانيّة تعرّضاً للمراجعة والدرس، وأكثرها اتّصالاً بمجريات الأوضاع في سوريّة وبمصالح نظامها المترنّح.

وبلغة لا تسمّي ولا تعيّن، رأى الشيخ حليحل أنّ كلّ الأطراف مستفيدون من النزاع، رافضاً استخدام الدم لتغيير المعادلات السياسيّة، ونافياً، بالسذاجة المعهودة أو بالخبث المعهود، وجود مشكلة بين السنّة والعلويّين. ذاك أنّ المشكلة عنده هي قيادة رفعت عيد التي ينبغي أن تُطاح، أمّا أهل بعل محسن فمغلوبون على أمرهم، لكنّهم قد يطيحون عيد بعد إطاحة الأسد في سوريّة.

ولا يشذّ حسن الشهّال عن لغة إنكار المشاكل أو التخفيف منها: "فالعلويّون والمسيحيّون من أهل المدينة، لهم ما لنا وعليهم ما علينا، نحن نحترم أحوالهم الشخصيّة ولا نريد تحويلهم عن دينهم، كلّ ما نبغيه أن تُحترم حقوقنا وديننا". وفي محاولة لتعزيز

كلامه بالتاريخ، يضيف أنّ الطرابلسيّين لم "يحسّوا بشيء اسمه علويّ" قبل النظام السوريّ الحاليّ، فيما المشكلة مع رفعت عيد وحزبه "العربيّ الديموقراطيّ"، لا مع العلويّين. لكنّ الأمثلة التي قدّمها على التعايش السابق هي أنّهم "كانوا يشتغلون عندنا في الزيتون والليمون"، وقد "تسنّن بعضهم". أمّا بالنسبة إلى حقوقهم وحقوق المسيحيّين في أن يمارسوا شعائر أو عادات لا يقرّها الإسلام، فهذه كلّها مضمونة لهم في بيوتهم وفي أحيائهم. لكنْ أن تكون هناك أحياء مختلطة ومتداخلة فهذا ما لا يقع أصلاً في المخيّلة السلفيّة.

يعزّز تلك المخاوف أنّه خلال الأعياد الأخيرة للميلاد ورأس السنة، قامت حملة مناهضة لتزيين الأسواق بشجرة العيد شكّلت سابقة في تاريخ المدينة. وهذا واقع يرادف أفكاراً كأفكار عمر بكري فستق الذي يرى أنّ المسلم وغير المسلم يعيشان في كنف النظام الإسلاميّ ويكونان من رعايا الدولة. وهو يضيّق نطاق حرّيّة غير المسلمين وغير السنّة فيحصرها في "بيوتهم" فحسب، جازماً بأنّ القانون في الدولة الإسلاميّة هو الإسلام، وفي ظلّه لن يوجد المكان الذي يقدّم الخمور بتاتاً. أمّا الدقماق فيسمّي العلويّ نصيريّاً، تاركاً لإبراهيم الصالح أنْ يركّز على أنّ المستفيد الوحيد من "ذبح" العلويّين في طرابلس هو بشّار الأسد، مشيراً إلى "صورة العلويّين كفقراء وإلى التحرّر الاجتماعيّ لنسائهم، وإلى أنّهم ظلّوا، إلى ما قبل ١٥ سنة، يتزوّجون في المحاكم السنّيّة".

لقد سمّى الكثيرون من المعلّقين حرب التبّانة وبعل محسن "حرب الفقراء"، وهي فعلاً كذلك، ولو كانت حروبُ هؤلاء الفقراء أحد الأسباب الأبرز لفقرهم.

فطرابلس، التي دمّرتها المواجهات الدمويّة المتوالية منذ ١٩٧٥، لا سيّما تلك التي شنّتها القوّات السوريّة على ياسر عرفات و"التوحيد" في الثمانينات، لم تعرف أيّ مشروع جدّيّ يبني ما تهدّم، ولم تتعرّض لتجربة حريريّة كالتي تعرّضت لها بيروت وصيدا. صحيح أنّ نجيب ميقاتي رمّم بعض المباني ودهنها في ساحة التلّ، فيما أقام الوزير محمّد الصفدي، بالتعاون مع مؤسّسات أميركيّة وأوروبيّة، مركزاً ثقافيّاً لمحو الأمّيّة وتعليم الكومبيوتر، لكنّ ذلك لا يزن شيئاً بقياس الحاجات الطرابلسيّة الملحّة.

ولمن اعتاد بصره مرأى البنايات الشاهقة في المدن الأخرى، تبدو مباني طرابلس القديمة كأنّها قصرت وزمّت، تماماً كما يبدو كلّ شيء آخر كأنّه توقّف في ١٩٧٥ حين

كفّ زمن الدولة وبدأ زمن السيبة.

ومؤخّراً عقد آل الحلاّب، أباطرة الحلويات العربيّة في المدينة، مؤتمراً صحافيّاً قالوا فيه إنّ ٤٠ في المئة من مداخيلهم تقلّصت، وإنّ هناك ٦٠٠ مؤسّسة كبيرة وصغيرة في طور الإفلاس.

لقد دُمّر سوق الخضر في التبّانة بسبب الاشتباكات السنّيّة العلويّة وسوف يُنقل إلى مكان آخر، وثمّة محالّ تُغلق بالعشرات في شارع عزمي وشارع نديم الجسر وحتّى في مناطق "الضمّ والفرز" الجديدة نسبيّاً. وهذا كلّه معطوف على انهيارات أكثر بنيويّة، كمثل تدمير المصانع والمؤسّسات الخدميّة وغير الخدميّة على امتداد الحروب الأهليّة، أو زحف كتل الباطون العشوائيّ ممّا أحلّه المقاولون محلّ بساتين الليمون التي سُمّيت طرابلس "فيحاء" بسبب رائحتها.

وعلى العموم، فـ"عاصمة الشمال" مدينة لا تعمل ولا تلهو. إنّها تصلّي وتقاتل.

هنا الثورة السوريّة

لا يدعم السلفيّون الثورة السوريّة كلبنانيّين متضامنين معها، مؤمنين بحقّها، بل يفعلون ذلك كسوريّين منخرطين فيها. فالثورة أظهرت الواقع السلفيّ ولم تنتجه، أو بلغة فستق: "لم يعد أحد، منذ ثمانية أشهر، يجرؤ على مدّ يده إلى واحد من أهل السنّة في لبنان. الشبّان يتجوّلون بأسلحتهم في طرابلس".

وعند حسن الشهّال ترقى الثورة إلى معيار تقاس عليه التحالفات والعداوات الداخليّة في المدينة. ذاك أنّ عاطفة الإسلاميّين الأقوى "مع الشعب السوريّ ضدّ النظام الظالم". وإذا كان نجيب ميقاتي "يمون على جزء من الحالة الإسلاميّة بسبب مساعداته للجمعيّات الإسلاميّة"، فهذا لا يلغي أنّ المحكّ هو الموقف من النظام السوريّ ومن الثورة عليه.

أمّا الذين يدعمون النازحين السوريّين فليسوا السياسيّين، بل "الطرابلسيّ الشهم الذي يضع السوريّ في قلبه"، وميقاتي لا يستطيع إلاّ أن يأخذ هذا الواقع في اعتباره.

ويرفض الشهّال أن يصبح التأييد تدخّلاً. فحتّى الذين هم في داخل سوريّة يريدون لبنان ملاذاً آمناً لا منطقة صراع. أمّا الشبّان الذين توجّهوا إلى تلكلخ وقُتلوا في كمين

نُصب لهم، فهم، في رأيه، شبّان غُرّر بهم واستُدرجوا، "وهناك علامات استفهام كبيرة حول من أخذهم ومن خطّط لهم ومن رتّب ذلك مع النظام السوريّ. لقد سمعنا، ولا نستطيع أن نؤكّد، وجود دور لحزب الله في ذلك".

ويرى الشيخ رائد حليحل أنّ توجّه الشبّان إلى تلكلخ كان خطأً، لكنّ هناك "من تدفعهم عواطفهم إلى الذهاب".

وحين يحضر الكلام على السلاح في طرابلس، يخفّف الشهّال الأمر، معتبراً أنّ ذاك السلاح في طرابلس فرديّ، وأنّه ربّما هُرّب منه شيء إلى سوريّة، لكنّ الجيش اللبنانيّ المنتشر على الحدود يستطيع ضبط ذلك. فالكلام عن تهريبه مبالغ فيه كثيراً، في نظره، خصوصاً أنّ الأسلحة غدت مرتفعة الأثمان فيما الخوف من المعارك مع بعل محسن يحضّ الطرابلسيّين السنّة على ادّخاره.

وبدوره، يجزم حليحل بوجود تجّار سلاح كثيرين من كلّ الأطراف، نافياً أن يكون السوريّون "في حاجة إلى سلاحنا". فهذه الحاجة ربّما وُجدت في بدايات الثورة، أمّا الآن فالأمور تغيّرت كلّيّاً. لكنّ الشيخ متفاجئ، هو أيضاً، بهذا الكمّ الضخم من السلاح في المدينة، لا سيّما في جبل محسن وباب التبّانة!

وإذ يسجّل الشيخ بلال الدقماق أنّ الجمعيّات السلفيّة الخيريّة تساعد النازحين السوريّين، تُسمع تذمّرات خارج البيئة السلفيّة من هذا "الجموح" وهذا "الميل الأعمى" إلى تبرير كلّ شيء بذريعة "صدّ المؤامرة الإيرانيّة والأسديّة". ويتردّد بصمت في هذه البيئة المعترضة أنّ الدعم الراهن للثورة معطوفاً على الوجود السوريّ الطارئ جعل الأموال والمساعدات الخليجيّة تتدفّق على الجمعيّات السلفيّة.

ويبدو الشيخ رائد حليحل، الذي يرعى "معهد الأمين" التابع لوقف إسلاميّ خيريّ، وتتفرّع عنه "دار أُبيّ بن كعب لتحفيظ القرآن"، مهموماً بالمأساة الإنسانيّة في سوريّة. وهو إذ يسجّل أنّ "مدارس الإيمان" ومدارس وزارة التربية استوعبت بعض الطلاّب السوريّين، لا تفوته الإشارة إلى أنّ المطلوب أكثر كثيراً. ويخبرنا الشيخ رائد بأنّ بعض سكّان طرابلس قدّموا بيوتهم للنازحين، وبعضهم قدّموا لهم الغرف التي لا يستخدمونها في بيوتهم، وأنّ الكثيرين، رغم فقرهم، يتبرّعون لهم.

وفي ما خصّ تدامج هذين الجسمين، يسجّل أنّ جامعه وحده تفد إليه قرابة ٢٥٠

سيّدة سوريّة كلّ خميس وأحد لتلقّي دروس دينيّة وتسلّم مساعدات.

وإذ يرفع أحد الناشطين غير المتعاطفين عدد السوريّين اليوم في طرابلس إلى ٢٠٠ ألف، يقول الشيخ رائد إنّهم لا يتجاوزون سبعين ألفاً في منطقة الشمال كلّها. فإذا ظهرت إشارات متفرّقة وطفيفة إلى انزعاج الدهّانين والطرّاشين وبعض أبناء المهن الحِرَفيّة من "منافسة السوريّين الذين يقبلون بأجور أقلّ"، فإنّ هذا، في عرف الشيخ، لا يُحسب له حساب قياساً بموجة التأييد الشعبيّ العارم.

نودّع الشيخ حليحل، اللطيف والودود، ونقفل عائدين إلى بيروت. لكنّ شيئاً في طرابلس يُمسك القلب بقبضة من حديد.

النبطيّة قلعة حزب الله[1]

يقول نبطانيّ، لا يُخفي انتسابه إلى التقاليد والأعراف القديمة في التديّن، إنّ الشيعة اليوم فئتان: فئة تريد الدفاع عن السيّدة زينب ومقامها، وفئة ترى بصمت أنّ السيّدة زينب هي مَن يدافع عنّا.

يرد الكلام هذا في معرض الحديث عن حزب الله وعن مشاركته في القتال السوريّ. لكنّ إيراده غالباً ما يشوبه الالتواء والتورية، وكثيراً ما يطلب قائلوه المتململون ألاّ يُنسب كلامهم إليهم.

والحال أنّ الصور، المتعدّدة الأحجام والألوان، التي تستقبل قاصد النبطيّة ترسم لوحة بليغة لهويّتها السياسيّة. فمن مدخل المدينة تطالع قاصدَها صورُ حسن نصرالله وعماد مغنيّة والخمينيّ وخامنئي ومعها صور لنبيه برّي. وبين هذه وتلك بُثّت صور، هي أيضاً متعدّدة الأحجام والألوان، للرئيس السوريّ بشّار الأسد.

لا يعني هذا أنّ حزب الله يحكم النبطيّة بالقمع والزجر والقوّة. غير أنّه، مع ذلك، يحكمها بأدوات قد تكون أشدّ تأثيراً.

فتوفير فرص العمل والخدمات الطبّيّة والتعليميّة التي يقدّمها الحزب كثيرة تتعدّى الوظائف والمنح الدراسيّة وسواها إلى تقديمات يوميّة كـ"بطاقة نور" مثلاً، التي يبلغ رسم الاشتراك فيها ٢٠ ألف ليرة لبنانيّة (١٣ دولاراً)، لكنّها تتيح لدافعها حسومات في

[1] بين كثيرين التقيناهم، نبطانيّين ونبطانيّات، في مدينتهم الجنوبيّة كما في بيروت وضاحيتها، طلبت الغالبيّة ألاّ تُذكر أسماء أصحابها، فيما قالت الأقليّة إنّها لا تمانع في ذكر الأسماء. وخوفاً من ميل القرّاء إلى نسبة كلّ ما يرد في هذا التحقيق إلى أصحاب الأسماء التي تُذكر، آثرنا حجب الأسماء جميعاً، مع إدراكنا للنقص الذي يتسبّب به ذلك.

جميع المتاجر والمخازن ذات الصلة بالحزب، فضلاً عن مجالات الترفيه ودور الأطفال والملاهي، وصولاً إلى تنظيم الرحلات إلى الحجّ في مكّة.

يترافق هذا مع طقوس ومناسبات جرى تكثيرها بتوسّع وإفراط، واستُعين على ذلك بالطقوس والمناسبات الإيرانيّة التي جعلتها الخمينيّة فروضاً، أو بما حفّ بالتاريخ التنظيميّ والسياسيّ لحزب الله. وهذه مأخوذةً معاً، تخلق هويّة زائفة موحّدة يحسّ من يخرج عنها بالعيش وحده في الصقيع.

وبالفعل ازدهر في السنوات الفائتة، في النبطيّة كما في باقي المناطق التي يسيطر عليها الحزب، ما لم يكن مسموعاً به من مناسبات: فهناك "أسبوع العباءة الزينبيّة" و"الليالي الفاطميّة" و"الشهر الفاطميّ" و"مجالس أمّ البنين" و"مولد السيّدة زينب" و"مولد السيّدة خديجة" و"مولد الإمام الخميني" و"مولد السيّد حسن نصرالله"، وعلى نطاق أضيق تداولاً، "مقتل عمر بن الخطّاب"...

صناعة الأطفال

ويُستكمَل هذا المجتمع الموازي في ألوان وأزياء، كهيمنة الأسود وارتداء النساء العباءات والتحاء الرجال وتلاعب بعضهم بالسبحات، أو في أجسام صلبة كالمدارس وفرق الكشّافة على نحو يؤطّر المجتمع بأكمله بقدر ما يكيّفه في صلبه العميق.

ولا ينجو الأطفال من صناعة البشر على هذا النحو. فمنذ ثلاث سنوات باتت تقام مجالس عزاء لمن هم بين الثالثة والسادسة، فتُروى لهم على نحو مؤثّر ومبسّط، وأحياناً عبر أفلام كرتون، قصّة كربلاء ومصرع الحسين، كما يُحتفل بتحجيب الفتيات البالغات تسع سنوات بوصف ذلك "تكليفاً شرعيّاً". وفي موسم الحجّ يوضع مجسّم للكعبة في وسط النبطيّة يدور حوله الأطفال، في تقليد لفعل الحجّ، وهم يرتدون لباس الإحرام.

وعبر الأطفال ينفتح الحزب على عائلات ليست مؤيّدة له تقليديّاً، أكان من خلال تحميل الطفل صوراً ومثالات حزبيّة تشطر البيت وأهواءه، أم من خلال الاستيلاء على مؤسّسات اللهو والفراغ حيث تُضطرّ الأمّ، كائناً ما كان هواها السياسيّ، إلى الانتفاع بها إبّان عطل أبنائها. وكما في الحياة كذلك في الموت. فعبر الشهداء تجري

مصادرة عائلاتهم بالمعنيين الماديّ والرمزيّ: ذاك أنّ الشهيد قد يخلّف وراءه أسرة تتطلّب الإعالة، وهو ما قد لا يتمكّن ذووه من توفيرها، والأمر نفسه يصحّ في الجريح الذي يستدعي العلاج والمتابعة الطبيّة. ثمّ إنّ الصورة التكريميّة التي يرسّخها الحزب لشهيده هو ما لا تملك عائلته أن تجافيها، لأنّها تكون بذلك كمن يتنكّر لابنها الراحل.

وهناك في ربط الحزب بجمهوره ما يشبه محاسبة المرتدّ. ذاك أنّ عقوبة ارتداد الحزبيّ عن الحزب مكلفة، لأنّه قد يغدو، فضلاً عن تأثيمه، مطالَباً بإعادة ما أعطي قبلاً وما دُفع له ولعائلته من مال ومن تقديمات. فمن اختار الخروج عن هذه العلاقة ربّما وجد نفسه مطالَباً بسداد كلّ قرش تكبّده الحزب على بيته أو أبنائه أو طبابة فرد من أفراد أسرته.

لكنّ آلة الصهر والاستيعاب تذهب أبعد من ذلك، بحيث يتراءى أنّ حزب الله أيضاً يحكم جمهوره بالإجماعات المشتركة في ما بينهم. فمنذ الـ ٢٠٠٠ على الأقلّ، وباستناد موارب إلى ترسانة من الأفكار خلّفها اليسار والناصريّة والبعث والمقاومة الفلسطينيّة، عُمّمت معانٍ لا تقبل النقاش عن المقاومة والقضيّة وما يتفرّع عنهما. ومعانٍ كتلك يتشارك الجميع فيها، حاكمين ومحكومين، إذ يردّد نقّاد كثيرون لحزب الله عبارات تفيد "أنّنا كلّنا مع المقاومة".

"أنت خائن"

بيد أنّ حزب الله الذي يمتلك السلطة في تحديد هذه المعاني، وفي تعيين السلوك المطابق لها، يستطيع أن يُشهر تهمة "الخيانة" في وجه كلّ من لا يتقيّد بما يحدّده ويعيّنه. لا بل يستطيع الحزب أن يفتح ملفّات قديمة، على نحو انتقائيّ، فيشير إلى صلة ما، أو قرابة ما، جمعت هذا المشكوك في ولائه بعميل سابق لإسرائيل. وهي مهمّة سهلة في منطقة أخضعها الاحتلال الإسرائيليّ مدّة ١٨ سنة ونسج فيها من العلاقات ما ينسجه كلّ احتلال مديد.

مقابل هذا التنزيه، بل التقديس، لكلّ ما يمتّ بصلة إلى التاريخ "الجديد" البادئ مع حزب الله، هناك استهانة متعدّدة الأوجه والأشكال بالتاريخ "القديم" الذي انطوت صفحته وأُحيل عدماً. فإذا استحال تخيّل مدّ اليد إلى صورة لحسن نصرالله أو آية الله

خامنئي، فهذا ما لا يصحّ في تمثال عالم النبطيّة حسن كامل الصبّاح الذي وصفت إحدى الصحف ما جرى لنُصبه بالآتي: "مرّة جديدة، يمعن تلامذة "ثانويّة حسن كامل الصبّاح" في مدينة النبطية في طيشهم، مشوّهين النصب التذكاريّ للمخترع اللبنانيّ الراحل، الذي تحمل مدرستهم اسمه. إلى جانب كتابات "المراهقة" و"فسيفساء" أسماء التلامذة وبعض حبيباتهم التي تغطّي قاعدة التمثال وجسده، عمد بعضهم إلى "تزيينه" برسوم "مسيئة". لم يكتف هؤلاء بما دوّنته الطباشير والأقلام البيضاء، بل وضعوا زجاجة بيرة فارغة فوق الكتاب الذي يحمله صاحب التمثال بيمينه".

وفي تواطؤ بين سطوة حزب الله وزحف الباطون والمصالح التي تحرّكه، تحوّل هدم البيوت التراثيّة والقديمة واحداً من الهموم اليوميّة لأهل النبطيّة. ولم يكن بلا دلالة أنّ هدم قصر آل الفضل في ١٩٩٢، وهم الزعماء التقليديّون للمدينة حتّى الستينات، لا يزال "الإنجاز" الأكبر للوجهة الانقلابيّة هذه.

"حاضرة جبل عامل"

والنبطيّة تملك تاريخاً "قديماً" يعتزّ به النبطانيّون. فحتّى الخمسينات، كانت تُسمّى "حاضرة جبل عامل"، يقصدها المتعلّمون "فلا يكون الشاعر شاعراً إن لم يكسب نعته هذا في النبطيّة". والمكانة هذه إنّما عادت إلى المدارس الدينيّة القديمة لعلماء الدين الشيعة في جباع ومشغرة وجزّين، والتي كانت جميعاً تصبّ فيها. ولئن خبت حركة المدارس قليلاً، فإنّها ما لبثت أن تجدّدت مع "المدرسة الحميديّة"، أو "أمّ المدارس"، التي أنشأها أحمد يوسف مكّي في أواخر القرن التاسع عشر، هي التي استقطبت المواهب الشيعيّة، طلاّباً ومعلّمين، فكان في عدادهم سليمان الضاهر ومحمّد جابر آل صفا ومحمد رضا وعلي فحص ومحمّد علي الحوماني وغيرهم.

وتلك المدارس كانت دينيّة أساساً إلاّ أنّها علّمت الموادّ الأخرى التي تعلّمها المدارس الحديثة، ما مهّد له ورافقه تسلّم رضا الصلح، والد رياض، مديريّة ناحية النبطيّة في ١٨٨٣، هو الذي كان يولي التعليم رعاية خاصّة ومميّزة. وفي ١٩٠٩ حين أسّس مجلّة "العرفان" الشيخ الصيداويّ أحمد عارف الزين، هي التي اعتُبرت بداية التعبير الشيعيّ

والجنوبيّ الحديث، كان معه الشيخان النبطانيّان أحمد رضا وسليمان الضاهر. ثمّ في الأربعينات، مع الاستقلال، أقيمت مدرسة تكميليّة رسميّة عُرفت بـ"مدرسة الجزائر" تولّى إدارتها أنطون الصايغ. وفي ١٩٦٢، وكان كامل الأسعد وزير التربية والتعليم، أنشئت دار معلّمين وثانويّة، وكان ذلك من ضمن التوجّه التحديثيّ العريض للعهد الشهابيّ.

هكذا كان للمثقّفين والمتعلّمين البارزين في الجنوب، كعلي الزين وأحمد جابر وجعفر شرف الدين ومحمّد سرحان، حضورهم الملحوظ في النشاط الثقافيّ لنبطيّة الستينات والسبعينات، وهو ما وازاه انتقال الشيخ عبد الحسين صادق، ذي الرصيد الدينيّ والأدبيّ، من بلدته الخيام إليها وإنشائه فيها، عام ١٩٠١، أوّل نادٍ حسينيّ في لبنان.

مناخ التفاؤل

على العموم كان لهذا التراكم الذي وفّره العلمان الزمنيّ والدينيّ أن انعكس على أوضاع النساء، فعُرفت المرأة النبطانيّة بأنّها الأشدّ انفتاحاً بين الجنوبيّات. ولئن بقي النقاب والحجاب حاضرين بقوّة في الخمسينات، فذلك ما كان نقاباً وحجاباً اجتماعيّين بلا مضمون مذهبيّ أو دلالة سياسيّة، حتّى إنّ النساء المسيحيّات كنّ يرتدين غطاءً على الرأس، قبل أن ينحسر هذا كلّه في الستينات والسبعينات.

والتفاؤل بالمستقبل كانت له مصادر أخرى. ذاك أنّ التمثيل السياسيّ بدأ يخضع للتحديث، هو الآخر، في الستينات.

فقد انقرض سياسيّاً آل الفضل، وكان آخرهم محمّد الفضل، النائب والوزير الذي عُدّ غريب الأطوار وبيروتيّ الهوى والاهتمام أكثر منه نبطانيّاً، ومعه انتهت حزبيّة آل الفضل فورثها حلفاؤهم الأسعديّون الذين كانوا يتنافسون مع خصومهم العسيرانيّين. ذاك أنّ ملاّكي القرى الثلاثة، أحمد الأسعد وعادل عسيران ويوسف الزين، ظلّوا حتّى الستينات أصحاب الشعبيّة الأوسع هناك. صحيح أنّ نطاق القوّة الأسعديّة كان يتعدّى النبطيّة إلى باقي الجنوب الشيعيّ، إلاّ أنّ اتّفاق اثنتين من هذه القوى الثلاث كان يؤمّن

لهما الانتصار على الثالثة في تلك المدينة وقضائها. وأهمّ من ذلك أنّ ملكيّة الأرض بذاتها كانت سبباً كافياً للزعامة لا يستدعي سبباً آخر يكمّله.

غير أنّ النبطيّة، من خلال أبنائها الذين دخلوا الحلبة السياسيّة عقدذاك، تولّت مهمّة تجديد الزعامة والتمثيل. فقد كان من هؤلاء رفيق شاهين الذي درس العلوم السياسيّة في أوائل الستينات، ثمّ ابن خالته أنور الصبّاح الذي درس الهندسة، وأيضا دكتور العلوم السياسيّة غالب شاهين. وإلى الثلاثة الذين تخرّجوا كلّهم من الولايات المتّحدة، حلّ المحامي عبد اللطيف الزين، من قرية كفر رمّان المجاورة، محلّ والده يوسف.

والنبطيّة، تقليديّاً، وكمثل الحاضرات المدينيّة، لا تؤتَمن على ولاء مضمون لعقيدة أو حزب. فهي ذات تقاليد تجاريّة عزّزتها، من جهة، الهجرة العريقة التي بدأت في الثلاثينات حاملةً بعض النبطانيّين إلى بلدان نائية كالمكسيك وكوبا، ومن جهة أخرى، "سوق الاثنين"، أهمّ أسواق الجنوب الشعبيّة، لا سيّما في اللحوم وما يتّصل بها من سلع. وهذا ما كان شهادة مبكرة على دور القطاع التجاريّ في حياة المدينة.

قلب الجنوب

والحال أنّ النبطيّة تتميز بوقوعها في قلب الجنوب، قريبة من صيدا والزهراني وغير بعيدة عن صور وبنت جبيل، محاطةً بـ٢٨ قرية في قضائها، ما سهّل تحوّلها مركز استقطاب تجاريّ وثقافيّ لمنطقتها. بيد أنّها تتميز أيضاً بكونها أرفع أقضية الجنوب الشيعيّ صفاءً طائفيّاً.

وهذان التوسّط والصفاء ما يفسّران اهتمام حزب الله المبكر بها، خصوصاً أنّها الحاضنة التقليديّة لاحتفالات عاشوراء التي تُقدّم على شكل مجالس عزاء منذ مئات السنين، وإن اتّخذت شكلها الحاليّ في ١٩٠٩، علماً بأنّ رواية أخرى تردّ إحياءها في النبطيّة إلى إيرانيّ يُدعى بهجت ميرزا أتى بها في العشرينات من بلده.

وكان ما أغنى رمزيّة عاشوراء، بالمعنى الذي يستهوي الحزب، أنّها شهدت بداية الانتفاضة على الإسرائيليّين بُعيد اجتياحهم في ١٩٨٢. وهذا فضلاً عن دور الشيخ راغب حرب، وهو من جبشيت في قضاء النبطيّة، في المقاومة، وقريب الشيخ حسن

ملك، من كفررمّان، من الحزب، هو الآتي أصلاً من حزب الدعوة العراقيّ.

هكذا، ومنذ التحرير في عام ٢٠٠٠، ارتسم ما يشبه المعادلة الجنوبيّة التي تقول إنّ مدينة صور لحركة أمل فيما النبطيّة لحزب الله.

بيد أنّ الطريق المتعرّج إلى تلك المحطّة كان سابقاً على ولادة الحزب نفسه.

موسى الصدر

لم يعرف أهل النبطيّة حدّة الاستقطابات كما عرفوها في العقدين الماضيين. صحيحٌ أنّ الخلافات والمنازعات ليست جديدة عليهم، إذ ترجع بهم إلى الانقسام أسعديّين وعسيرانيّين، كما تعرّج على المقاومة الفلسطينيّة وصعود اليسار وما أثاره، لكنّ الصحيح أيضاً أنّ الحرارة التي كانت تتسبّب بها تلك الخلافات لا تُقاس، عمقاً واتّساعاً، بما أسّسته نشأة حزب الله وتعاظم دوره.

ففي حرب ١٩٥٨ الأهليّة مثلاً، حيث حُسب المسيحيّون في النبطيّة وفي عموم لبنان، على كميل شمعون وعهده، لم يحصل ما يؤذيهم فكانوا، بحسب وصف أحدهم، "يزرعون البستان ويغيبون لأسابيع ثمّ يعودون ويجدون أكواز الذرة لم تُمسّ". واستمرّ الهدوء بين ١٩٥٨ و١٩٧٥، على رغم الاستياء الواسع من السلاح الفلسطينيّ. على أنّه لم يظهر تحوّل ملحوظ إلاّ مع القصف الإسرائيليّ للمخيّم الفلسطينيّ قرب حي البيّاض ردّاً على العمليّات الفدائيّة. وفي ١٩٧٨، مع اشتداد ذاك القصف، اتّسعت موجة النزوح إلى بيروت.

في هذه الغضون ظهرت زعامة موسى الصدر وكان لظهورها دويّ قويّ في النبطيّة. فبسبب وفاة النائب الأسعديّ غالب شاهين في ١٩٧٤، خيضت معركة فرعيّة بدت يومذاك بعيدة الدلالات. فقد رشّح كامل الأسعد كامل علي أحمد فيما رشّح الصدر رفيق شاهين. وبعد الفشل في الاتّفاق على مرشّح واحد، هو هاني فحص، يتولّى مواجهة المرشّح الأسعديّ، رشّح الشيوعيّون عادل الصبّاح، والبعثيّون العراقيّون الشاعر موسى شعيب. وقد فاز شاهين، مرشّح الصدر، بعشرة آلاف صوت، وكان علي أحمد، مرشّح الأسعد، أوّل الراسبين بنيله ستّة آلاف وخمسمائة صوت، بينما لم يصل الشيوعيّ

الصبّاح إلى ألفي صوت، ولم يحصد البعثيّ شعيب إلاّ ١٢٠٠ صوت.

لقد فُتحت صفحة جديدة في التاريخ السياسيّ للنبطيّة وللجنوب عنوانها العريض موسى الصدر. ولمّا ناوأته الرموز التقليديّة الدينيّة في معظمها، استقوى الإمام بالمتعلّمين والموظّفين والمهاجرين كما بالفلاّحين، وتراءى لكثيرين أنّه رمز خلاص من "الإقطاعين" السياسيّ والدينيّ في آن واحد.

لكنْ بقدر ما نمّ صعود الصدر عن تطييف الشيعة، عملاً بما حلّ بالموارنة والسنّة قبلهم، فإنّه أشار إلى بدايات ضمور الأسعديّة بوصفها أبرز حالات السياسة التقليديّة في الجنوب، ونبّه إلى أنّ ضجيج أحزاب اليسار، بوصفها البديل الوحيد للأسعد، أقرب إلى الجعجعة ممّا إلى الطحن.

وبدوره، لم ينفصل بروز الصدر، ومعه الزواج الشيعيّ الجديد بين الدين والطائفة والسياسة، عن تراجع "حركة التحرّر العربيّة"، ابتداءً بهزيمة جمال عبد الناصر في ١٩٦٧، وهو ما لم تستطع تعويضه المقاومة الفلسطينيّة التي وقعت على اللبنانيّين وقعاً خلافيّاً، كما تردّت علاقاتها سريعاً بأهل الجنوب الشيعة.

١٩٨٢ وما بعد

مع الاجتياح الإسرائيليّ في ١٩٨٢ رُشّ الأرزّ على الإسرائيليّين في النبطيّة كما في مناطق أخرى من الجنوب. كذلك مَنع أهالي النبطيّة الفلسطينيّين من العودة إلى مخيّمهم واستعادوا الأراضي والأملاك التي كانت منظّماتهم المسلّحة تضع اليد عليها.

وما لبث الاشتباك مع الإسرائيليّين أن حلّ محلّ الاشتباك مع الفلسطينيّين، بحثاً عن "هويّة عامليّة لا يدنّسها غريب". لكنْ ظلّت أمور العيش اليوميّ، مع هذا، معقولة نسبيّاً. فالذين عادوا إلى مدنهم وقراهم استطاعوا أن يستأنفوا بعضاً من أوجه الحياة القديمة، على رغم خوفهم من عمليّات الانتقام الإسرائيليّة ردّاً على عمليّات تُشنّ على الجنود المحتلّين.

وفي طور ولادة حزب الله، انسحبت القوّات الإسرائيليّة، عام ١٩٨٥، من مدينة النبطيّة وإن بقيت على التلال المحيطة بها، تشرف عليها من فوق. آنذاك سادت حقبة

"القبضة الحديد"، فيما انتعش الحزبان الشيعيّان، حزب الله وأمل، واكتسب أوّلهما علنيّة نضاليّة لم تكن له من قبل.

لكنْ في موازاة قفزة عمرانيّة تسبّبت بها تحويلات المغتربين مع عودة النبطانيّين إلى مدينتهم، بدأ التحكّم الحزبيّ الصريح في المدينة: "في البداية"، كما يروي واحد ممّن عاشوا تلك المرحلة عن قرب، "كان دخولهم عنفيّاً جدّاً. منعوا المشروبات ومنعوا الموسيقى كما منعوا الانتماء إلى أحزاب أو تيّارات سياسيّة أخرى، وما لبث أن بدأت مرحلة الاغتيالات، فيما استتبّ الخوف في نفوس الناس. طبعاً لم تجر تحقيقات في أعمال الاغتيال ولم يُسمَّ الفاعلون، لكنّ الجميع أدرك أنّها قبضة حزب الله الحديد. الذين تمّ اغتيالهم كانوا في غالبهم شيوعيّين، لكنّ بعض من أقدموا على عقد زيجات مختلطة، شيعيّة – مسيحيّة، اغتيلوا أيضاً. كوادر اليسار الذين نجوا من القتل تعرّضوا للتعذيب كي يسكتوا، وقد سكتوا، أو غادروا الجنوب هرباً. والجميع راحوا يلتزمون بيوتهم بعد الغروب".

الحزب والحركة

بيد أنّ التعايش القلق بين الحزبين الشيعيّين لم يعمّر طويلاً. ففي أواخر الثمانينات بلغ التوتّر بينهما أشدّه، وإلى النبطيّة وسواها امتدّ مناخ الاشتباكات التي عرف إقليم التفّاح ذروتها.

على أنّه بعد التسوية التي أنتجتها وساطات السوريّين والإيرانيّين، استقرّ تركيز الحزب على المقاومة فيما ركّزت الحركة على الوظائف والتنفيعات التي تتيحها الدولة، لا سيّما مجلس الجنوب، ومنذ ١٩٩٢، رئاسة مجلس النوّاب التي حلّ فيها نبيه برّي.

وكان لتلك التطوّرات أن رسمت بعض ملامح الخريطة الحزبيّة في النبطيّة: فقد لوحظ أنّ معظم شبّان البيئة الأسعديّة تقليديّاً، ممّن ورثوا التحفّظ على موسى الصدر وحركة أمل، اتّجهوا إلى حزب الله، بينما اتّجه أغلب شبّان البيئة العسيرانيّة، المتحفّظة على الأسعد والمتعاطفة مع الصدر، إلى أمل. وفي النبطيّة، كما في عموم الجنوب، تحوّلت أمل ملاذاً واسعاً للخارجين عن عقائد الحزب ونفوذه، كما للباحثين عن وظيفة

أو دخل أو مكانة أهليّة. ولمّا كان الحزب أكثر إيديولوجيّةً بلا قياس، وكانت إيران توفّر له المداخيل التي تعفيه من التورّط في شبكات الزبونيّة اللبنانيّة، اتّسم الحركيّ بصورة مشوّشة أخلاقيّاً وبشيء من الفظاظة في التعامل مع السكّان، بينما اتّسم الحزبيّ بصورة الأخلاقيّ المؤدَّب. لقد كان في ذلك شيء من "طالبان" الأفغانيّة قياساً بأمراء الحرب "المجاهدين".

بيد أنّ الأمور إذ هدأت بينهما واستقرّت في التسعينات، بدآ يتكيّفان مع السكّان بالتي هي أحسن. هكذا حلّ شيء من التساهل، الذي تسنده الثقة بالنفس، في ما خصّ الكحول وفي عموم التعامل مع الناس. وبعدما كان مديرو المدارس، مثلاً، يتبلغون كتابيّاً ضرورة حضور اجتماع يُعقد في مركز الحركة أو الحزب، وكانت الطريقة آمرة وفوقيّة، بات ممثّل عن الحزب يحضر إلى المدرسة ويقابل الجسم التعليميّ ليبلغه المطالب، والمطالبُ يتصدّرها بالطبع إدخال الدروس الدينيّة في المنهاج وتغيير العطلة الأسبوعيّة من سبت وأحد الى جمعة وأحد. وقد طُبّق ذلك حتّى في مدارس الإرساليّات المسيحيّة، ومنها المدرسة الإنجيليّة العريقة التي التزمت مرغمةً بالقرار.

والحال أنّه بعد الـ ٢٠٠٠ ودخول الجيش نتيجة التحرير، أُوقفت دروس الدين وأعيد يوم السبت يوم عطلة أسبوعيّة عملاً بالنظام الداخليّ وما تقرّه وزارة التربية. وهذا وغيره لم يدلاّ على امتلاك الدولة سلطة فعليّة، بقدر ما دلاّ على استعداد الحزب، وقد راكم في يديه مجد انتصار الـ ٢٠٠٠، لتقديم تنازلات مؤقّتة في التفاصيل. ذاك أنّ الثقافة الدينيّة كانت قد استحكمت مع التحرير الذي عزّز قيم التعبئة ومعانيها، و لم يعد فرضها يتطلّب الهراوات الثقيلة.

بؤر الشغب

يستحيل على النبطانيّين أو سواهم من الجنوبيّين أن يقاوموا حزب الله، وهم ليسوا في هذا الوارد أصلاً. لكنّ ذلك لا يلغي وجود بؤر للمشاغبة عليه تتجسّد أهمّها بالشيخ عبد الحسين صادق، حفيد عبد الحسين الكبير.

ومن غير أن يكون مشهوداً له بالقيادة الكاريزميّة، يحظى صادق بالرصيد الدينيّ –

العائليّ المتين، كما يبدو أنّ قضيّته الأولى التزام عاشوراء والحفاظ على طابعها التقليديّ وما ينجرّ عن ذلك من إحياء للمناسبات الحسينيّة. وفي حرصه على شيعيّة تقليديّة ما قبل خمينيّة، تذكّر برجال دين كآية الله شريعتمداري مثلاً، وقف صادق ضدّ تحريم الحزب التطبيرَ واللطم على أجساد عارية. وأغلب الظنّ أنّ صادق في موقفه هذا يستند إلى موقف وقفه جدّه حتّى بات إرثاً بيتيّاً، وعارضه فيه رجال الدين الشيعة الأكثر تنوّراً آنذاك وعلى رأسهم محسن الأمين. بيد أنّ ما يؤجّج اعتراض صادق خروج حزب الله، من خلال مسيراته في عاشوراء وعبر علامات وإشارات إيرانيّة متكاثرة، عن إجماعات قديمة في ممارسة تلك الطقوس، وهذا فضلاً عن التدخّل في تحديد مواعيد الأعياد أو ظهور الهلال. وربّما كان ما يفوق ذلك أهمّيّة صراع الاثنين على المساجد الدينيّة في النبطيّة، الأمر الذي دفع به إلى التحالف مع حركة أمل للوقوف في وجه الزحف الحزبيّ.

وبالفعل تمكّن الحزب من أن يضع يده على مساجد لا شيوخ لها، ولا يستطيع صادق، بشبكته المشيخيّة، أن يغطّيها كلّها. إلاّ أنّ الحسينيّة المركزيّة بقيت في عهدته، وهي ربّما كانت الوحيدة التي تخلو من صور لخامنئي أو لحسن نصرالله. على أنّ ما يعين صادق في شغبه على الحزب خلوّ الأخير من رجال دين مرموقين. ففي مقابل ترسانته المتوارَثة في علوم الدين، يبقى الشيوخ الحزبيّون محكومين بسقف المرجعيّة الخامنئيّة الذي يخفض كلّ قامة طموحة. فإذا قيل إنّ ثمّة ثلاثة أو أربعة من شيوخ الحزب الذين يجري إعدادهم لمرحلة ما بعد صادق، قيل، في المقابل، إنّ نجل الأخير، علاء، سوف يعود قريباً من دراسته في إيران كي يتولّى زمام أمور الدين والدنيا.

لقد حال صادق دون اجتماع السياسيّ والشيخ في مشروع حزب الله، وهذا نقص يؤرّق كلّ حزب دينيّ يسعى إلى امتلاك الأرض بقوّة السماء.

النبطانيّون "الأصليّون"

لا تخفى عصبيّة النبطانيّين "الأصليّين" لمدينتهم التي يرون أنّ معظم عناصر الحزب والحركة أتوا إليها من خارجها، أي من القرى التي يميل المدينيّون عموماً إلى التباهي عليها. أمّا الحزبيّون من المدينة نفسها فيبدون لهم أقلّ تزمّتاً وتعبويّة.

وحتّى اليوم لا تملك هذه المدينيّة الكثير تشاغب به على حزب الله، ما خلا تأوّهات البيوت والغرف المغلقة. لكنّنا، هنا، نسمع الكثير ممّا يتعدّى السياسة والتحكّم الحزبيّ. فبحسب رواية، بات معظم المحالّ التجاريّة يعود إلى أهل القرى المجاورة ممّن حملوا معهم معتقداتهم وعاداتهم إلى المدينة. هكذا صارت صناديق الخضر المعروضة للبيع مثلاً تندفع من دكاكينها إلى منتصف الطريق العامّ فتقضم الأرصفة أو تضيّقها.

كذلك نسمع عن الرموز التي غدت شكلاً من أشكال السيطرة على النبطيّة وتغيير ما كان هويّة لها. فإلى جانب الصور والشعارات واليافطات الكثيرة، و"القماش البالي المتدلّي هنا وهناك"، تحمل السيّارات مكبّرات الصوت في كلّ وقت وتجوب الشوارع ناقلة اليقين إلى من يطلبونه ومن لا يطلبونه. "ففضلاً عن الأعلام والأصوات وصور الشهداء والقادة المحليّين، فإنّ لزعماء إيران صورهم الكثيرة أيضاً. وهذا ما يضرب على حسّك الحضاريّ"، على ما قال نبطانيّ "أصليّ". وهو ما يجعل "الأصليّين" ميّالين إلى "التقوقع في بيوتنا"، وإلى فتور في ممارسة العلاقات الاجتماعيّة بين العائلات بسبب أجواء التعبئة، بحيث بتنا "لا نلتقي إلا في مناسبات العزاء".

وثمّة من يتحدّث أيضاً عن إطلاق النار في الجنازات بوصفه سلوكاً جديداً يشبه "التحلّل الفلسطينيّ" في السبعينات. لكنّ ثمّة من يذهبون أبعد، فيقولون إنّ ما من نبطانيّ "أصليّ" واحد يرأس دائرة رسمية في النبطيّة، وحتّى "فتوّات" الأحياء و"الزعران" باتوا كلّهم من خارجها.

وعاشوراء التي كانت "احتفالاً تطغى عليه مسْرَحة مقتل الحسين أمام وفود تأتي من سائر القرى على أحصنتها وجِمالها"، بما في ذلك من متعة ولهو وإيكزوتيك، صارت بدورها "طقساً عسكريّاً ومسيرات حزبيّة محاطة بصور القادة السياسيّين والدينيّين، اللبنانيّين والإيرانيّين".

والتحكّم يصل إلى التمثيل السياسيّ بأشكال عدّة. فالنوّاب الثلاثة الذين يحتلّون مقاعد النبطيّة اليوم يتقدّمهم محمّد رعد، نائب حزب الله ورئيس كتلة الوفاء للمقاومة، الذي دخل البرلمان بـ٦٢٧٢٠ صوتاً، بينما لم ينل ابن مدينة النبطيّة ياسين جابر إلاّ ٦٠٠٦٨ صوتاً، فيما تراجع تأييد السياسيّ التقليديّ عبد اللطيف الزين إلى ٥٥٢٥٠ صوتاً. وهذا فضلاً عن أنّ جابر محسوب على نبيه برّي الذي سبق أن أحلّه على اللائحة

محلّ قريبه عماد، فيما الزين طاعن في السنّ يُشكّ كثيراً في قدرته على تشكيل وزن سياسيّ مستقلّ ومؤثّر.

ولا يلوح التمثيل البلديّ أفضل حالاً. صحيح أنّ الحزب درج على مراضاة النبطانيّين "الأصليّين" بتحالفه مع مصطفى بدر الدين، رئيس البلديّة السابق ونجل الدكتور علي بدر الدين الطبيب الإنسانيّ والمحبوب، في مواجهة أمل وصادق، إلاّ أنّه ما لبث، في الانتخابات الأخيرة، أن عدّل شروط المراضاة، بحيث أزيح بدر الدين وسُلّم رئاسة "جمعيّة العمل البلديّ"، وجيء إلى الرئاسة بنبطانيّ عضو في حزب الله هو الدكتور أحمد كحيل الذي يُجمع الكثيرون على وصفه بـ"الأودمة" والنزاهة، فيما يتّهمه بعض خصوم الحزب بأنّه مسؤول أمنيّ في حزبه.

وفي الحالات جميعاً، فإنّ نسبة الاقتراع في المدينة التي جرت توأمتها أخيراً مع طهران، لم تتعدّ ثلاثين في المئة، دلالةً على ما يصفه البعض بـ"استنكاف النبطيّة السياسيّ".

الثقافة المحرّمة

ما يزيد البَرَم الصامت لأهل النبطيّة بسلطة حزب الله وحركة أمل تلك المحاصصة بينهما التي لا تكلّ عن العمل.

فمعروفٌ أنّ الحساسيّة التي تربط كلاًّ من الطرفين بالآخر هي ما لم يبدّده اتّفاق الأمر الواقع الذي توصّلا إليه أواخر الثمانينات. وفي المنافسة مع الحزب، بقدراته الماليّة الإيرانيّة المصدر وبطاقته الإيديولوجيّة والتعبويّة النشطة، راهنت الحركة على اعتصار المؤسّسات، العامّة منها والخاصّة. وثمّة أكثر من إشارة إلى أنّ الحزب، ربّما بسبب الأزمة الماليّة في إيران المحاصَرة وتراجع معوناتها، شرع ينافس الحركة، بعد طول ترفّع، في مجالها هذا.

وعلى العموم، غدا معظم المؤسّسات الخاصّة والعامّة اليوم في أيدي أشخاص من محيط الحركة والحزب، حيث يُعدّ مَنح العمالة والخدمات لحمةً مضمونة تربط المانح بجمهور واسع كما تستقطب المتردّد والمتحفّظ. يكفي، وهذا مجرّد مثل غير حصريّ،

أنّ فاتورة الألف دولار في المستشفى الحكوميّ تصبح للمريد والتابع ٢٠٠ دولار، فيما يعفى منها الحزبيّ بشكل كلّيّ.

والمحاصصة وما ينتج منها من حصر الوظائف في الحزبين، لا سيّما أمل، تعطّل عمل المؤسّسات في النبطيّة، كما توسّع، بطبيعة الحال، الفجوة القائمة بين الكفاءة وفرصة العمل.

لكنْ لئن تركت هذه التطوّرات آثارها على نوعيّة الحياة، فأوضح ما يشهد للانحدار هو الحياة الثقافيّة التي كانت قد نجحت في الحفاظ على نفسها ونشاطها حتّى إبّان الحروب الأهليّة السابقة. فاليوم تكاد محاضرات "مركز الإمام الخمينيّ" تختصر الحيويّة الثقافيّة لمدينة مُنع الكونسرفتوار اللبنانيّ من أن ينشئ فيها مقرّاً لتعليم الموسيقى. صحيح أنّ نائب النبطيّة الوزير ياسين جابر وبعض الذين يمثّلون حركة أمل في بلديّتها يهرّبون أحياناً، ومن وراء ظهر الحزب، سهرة أو أمسية أو مهرجاناً أو تكريماً لواحد من "أعلام المدينة"، لكنّ الثقافة الجديدة تبقى، في متنها العريض، امتداداً للتعبئة الدينيّة والحزبيّة المتزايدة الحضور في الحياة اليوميّة. وهذه متعدّدة المستويات والتعابير، بحيث إنّ طرق السلام والتحيّة المألوفة اختفت أو كادت، بحسب أحدهم، فيما تولّت "السلام عليكم" طرد "صباح الخير" والـ"مرحبا" من التداول العام.

نوعيّة الحياة

وقد ضاقت كثيراً، حتّى كادت تنعدم، فسحات السهر المختلط التي استمرّت حتّى أواخر التسعينات. وليس صدفة بالتالي أنّ روائيّة من النبطيّة، هي علويّة صبح، كانت من سجّل في روايتها "مريم الحكايا" تدهور أحوال النساء في مناخات الحروب والتعبئة ونكوصهنّ نحو التديّن والطائفيّة.

وفي المقابل خفتَ بريق حزب الله في السنوات الأخيرة، وتراجع بالتالي تعويضه الأخلاقيّ عن أشكال البؤس الواقعيّ. ففي حرب تمّوز ٢٠٠٦ "لم يفقد أحد شيئاً من بيته... لقد حافظوا على بيوتنا بينما كانوا يقاومون إسرائيل". لكنّ مال التعويضات المتدفّق ما لبث أن نمّى جمهور حزب الله، لا بوصفه "مقاومة نؤيّدها كلّنا"، بل بوصفه

فئة تُخضع السياسيّ للدينيّ. وبدوره، طرأ نموّ عمرانيّ هائل بين ٢٠٠٦ و٢٠١٢ بسبب أموال التعويضات التي تكفّل بها الحزب، ما رفع أسعار العقارات كثيراً. هكذا وُزّع المال بحجّة إعادة التعمير وأيضاً لإسكات الأصوات المتململة، فدخلت كمّيات هائلة منه بلا رقيب عليها أو حسيب، كما نشأ أثرياء جدد هم واجهات ماليّة لحزب الله وممتلكاته، حتّى بات البعض يهمس ساخراً بأنّ الحزب بات "شركة نصرالله". وبالفعل لم يكن لإفلاس صلاح عزّ الدين، ثمّ فضيحة الأدوية الفاسدة التي ارتبطت بعبد اللطيف فنيش، شقيق الوزير الحزب اللهيّ محمّد فنيش، إلاّ رفع جرعة السخرية الهامسة تلك.

غير أنّ تلطّخ الصورة الأخلاقيّة لم يحل دون المضيّ في حملة أخلاقيّة مباشرة تارةً ومداورة طوراً. فالذين آثروا، من المسلمين الشيعة، المضيّ في بيع المشروبات الكحوليّة، عُرّضوا لمقاطعة دكاكينهم ومخازنهم، ما جعلهم يعيدون النظر في قرارهم ذاك. أمّا نادي الشقيف مثلاً، الذي كان له في السابق دوره الثقافيّ والاجتماعيّ البارز على نطاق الجنوب كلّه، فوضعت حركة أمل يدها عليه واستمرّ يقدّم المشروبات الكحوليّة وتُحيى فيه أماس راقصة. إلاّ أنّ وقوع النادي في عجز ماديّ حمل حزب الله، من خلال أحد أفراده المُتموّلين، على أن يضمن الكافتيريا، وعلى هذا النحو مُنع المشروب والرقص.

وقد حصل شيء مشابه مع "قصر الملوك" الذي "أنقذته" أيضاً أموال حزب الله فكفّ عن تقديم الخمر الذي بات ينحصر بيعه في دكاكين قليلة ومتناثرة، أهمّها يملكه شيوعيّ، من غير أن يأمن أصحابها خطر التفجير. أمّا الذي يريد أن يشرب بأمان فعليه التوجّه إلى قرى وبلدات مسيحيّة في الجوار. وهذا، بدوره، انقلاب آخر، إذ يتذكّر مَن هم فوق الأربعين من النبطانيّين أنّ أهل المنطقة كلّها كانوا يتزوّدون بالخمر من دكّان سليمان بو رعد الذي جاء دركيّاً من عمّاطور إلى النبطيّة فاستقرّ فيها وسمّى نفسه "أبو محمود".

سوريّة... والسياسة الصعبة

لقد ظلّت السياسة عملاً سهلاً على حزب الله حتّى اليوم. فابتداءً بانتخابات ١٩٩٢، حين شطب كامل الأسعد من المعادلة بخليط من تجاوزه الطبيعيّ ومن الابتزاز المنظّم للوائحه ومرشّحيه، تربّع حزب الله وحركة أمل في صدارة تمثيل الجنوب، يحتكرانه

ويوزّعان فتاته على من يرضى بالتبعيّة والإذعان. ثمّ جاء التحرير في ٢٠٠٠ ليجعل انتخابات ٢٠٠٥ ربحاً صافياً لا يرقى إليه الشكّ، وبعده جاء "النصر الإلهيّ" في ٢٠٠٦ ليزيد في صفائه الذي شهدت عليه انتخابات ٢٠٠٩.

لكنْ يبدو أنّ القضايا ذات الربحيّة السهلة تراجعت اليوم فيما بدأت الصعوبات تحفّ بالسياسة. وهذا، على ما يبدو جليّاً، بعض نتائج الثورة السوريّة وتورّط حزب الله القتاليّ في القصير وحمص وربّما سواهما.

فأنت تسمع من النبطانيّين، المؤيّدين له والمعارضين، تنويعات على الحجج التي ساقها حزب الله تبريراً لتورّطه: من الدفاع عن الشيعة اللبنانيّين المقيمين داخل الأراضي السوريّة إلى الدفاع عن مقام السيّدة زينب في دمشق، ومن تأمين طريق المقاومة وسلاحها الآتي من إيران كي لا تضعف أمام إسرائيل إلى ضرورة القضاء على التكفيريّين هناك كي لا يقضوا هم "علينا" هنا. وثمّة من يربط أداء "الواجب الجهاديّ" بإملاءات ولاية الفقيه، مستنتجاً أنّ المشاركة في القتال "فوق النقاش"، وثمّة أيضاً من يتحدّث عن بدء ظهور منظومة الغيبيّات والسحريّات في بيئة الحزب، وأنّها تتّخذ شكل علامات وإشارات وأخيلة تبرّر الانخراط القتاليّ وتحدّد مواعيد الانتصارات المقبلة.

والحال أنّه منذ سنة تقريباً بات بعض الشبّان يتغيّبون عن مدارسهم مدّة شهر أو أكثر، من غير أن يدري بأمرهم أهلهم الذين يحضر بعضهم إلى المدارس للسؤال عنهم. وحين يعود التلاميذ يجيبون سائلهم في المدرسة بأنّهم كانوا "في دورة"، بينما يطلب بعضهم عدم نقل الخبر إلى الأهل.

صحيح أنّ ثمّة درجة بعيدة من الإجماع بين مردّدي الحجج هذه، غير أنّ تعدّد الحجج وتفاوتها في تبرير "الواجب الجهاديّ"، وخلال فترة قصيرة نسبيّاً، يبثّان ضعفاً ملحوظاً في منطق قائلها. فحين نضيف تزايد أعداد القتلى من شبّان حزب الله ويافعيه، وكون حمص والقصير لا تقعان في المخيّلة "العامليّة" كما رعاها الحزب طوال عقود ثلاثة، يرتفع احتمال التدرّج من تململ صامت إلى تململ ناطق.

يعزّز هذا الافتراضَ صعوبة أنّ يأتيهم حزب الله بنصر حاسم وساطع من سوريّة، هو الذي بنى مجده على ما رسمه انتصارات حاسمة وساطعة لا يكفّ عن إحرازها. وهذا جميعاً ما قد يفسّر تكتّم الحزب، أقلّه في المراحل المبكرة لتورّطه العسكريّ، على

شهادة شهدائه، "ومتى – على ما قال أحد أكثر نقّاده جذريّة – كان حزب هو حزب الشهداء يمتنع عن التباهي بشهدائه؟".

لكنّ تأثيرات الأزمة السوريّة لا تقف هنا. ففي الجنوب، كما في كلّ لبنان، يتكاثر عدد اللاجئين السوريّين الذين يعيش معظمهم في ظروف شديدة البؤس وفي شروط سكنيّة شديدة الاكتظاظ. أمّا العدد الشائع فهو خمسون ألفاً في مدينة النبطيّة وحدها، كلّهم تقريباً من السنّة، وغالبيّتهم من درعا.

ويقول نبطانيّون إنّهم باستقبالهم السوريّين "يردّون الجميل"، قاصدين استقبال السوريّين للجنوبيّين النازحين في حرب ٢٠٠٦، كما يبدي بعضهم التذمّر الذي بات يُسمع في مناطق مختلفة من لبنان لأسباب تتعلّق بالعمالة الرخيصة أو بالسرقات. في الأحوال جميعاً، فالشائع أنّ حزب الله وحركة أمل قدّما بعض المساعدات الغذائيّة والصحّيّة للاجئين السوريّين في مناطق نفوذهما. بيد أنّ طول الأزمة السوريّة وازدياد تورّط الحزب في سياسات القتل هناك قد يجعلان الاحتكاك خطيراً في الجنوب، بما فيه النبطيّة، بحيث تعجز تلك المساعدات عن ضبط العلاقة بين جيش قائم وجيش محتمل القيام!

أيّ تعايش؟

ليس في النبطيّة أقليّات طائفيّة أو مذهبيّة وازنة. هناك أرمن لم يعد منهم أحد هناك، وهناك سنّة يُقدّر عددهم بألف، هم فلسطينيّو الأصل تجنّسوا. صحيح أنّ المرشّحين إلى النيابة يزورونهم في المواسم الانتخابيّة طلباً لأصواتهم، إلاّ أنّ أحداً منهم لا يستجيب لمطلبهم البسيط: ذاك أنّ هؤلاء لا يملكون مقبرة خاصّة بهم، ما يدفعهم إلى تكديس موتاهم جثّةً فوق جثّة، إذ المقبرة الإسلاميّة الوحيدة موقوفة على شيعة النبطيّة وحدهم، لا تتعدّاهم حتّى إلى شيعة المناطق الأخرى.

أمّا المسيحيّون فهم ذوو وجود تاريخيّ قديم في النبطيّة. وكثيراً ما يقال إنّهم لم يتعرّضوا لأيّ أذى أو مضايقة، وإنّ حزب الله دفع تعويضات للّذين منهم تضرّرت منازلهم في حرب ٢٠٠٦. هكذا يمضي المسيحيّون في احتفالاتهم ومناسباتهم الدينيّة

كما دأبوا عليها، متمتّعين بمختار لحارتهم وبعضو يمثّلهم في المجلس البلديّ. لكنّهم، وهذه سمة لازمة في العلاقات الذمّيّة، لا يتدخّلون بتاتاً في السياسة. ففي الستينات والسبعينات انتسب بعض شبّانهم إلى الحزب السوريّ القوميّ الاجتماعيّ، وأقلّ منهم إلى الحزب الشيوعيّ. غير أنّهم اليوم، وفي ما يستدعي المشهد القبطيّ في مصر، "لا يفعلون إلاّ ما تقوله لهم الكنيسة" التي يعود بناؤها إلى ١٩٠٢.

فوق هذا، أقيم قبل سنوات ثلاث "مصلّى السيدة مريم" على تخوم حارتهم المتفرّعة عن السوق، ما حدا بهم إلى الطلب من ميشال عون أن يتدخّل لدى حليفه حزب الله لإبعاد المصلّى قليلاً. وبالفعل أُنزل مكبّر الصوت الذي كان موجّهاً إلى الحارة، لكنّ المصلّى نفسه ما لبث أن وُسّع وزُيّن بالحجر.

ثمّ إنّ حارة المسيحيّين التي هي واحدة من أربع حارات تتشكّل منها المدينة تقليديّاً (حيّ السراي، حيّ المسلخ، حيّ البياض)، شهدت انخفاضاً سكّانيّاً، اتّخذ منحى تدريجيّاً. ذاك أنّ الحارة التي ضمّت في ١٩٧٦ أكثر من ٦٥ بيتاً، استقرّ اليوم عدد قاطنيها على أقلّ من مئة شخص. فحين حدّثنا نبطانيّ "أصليّ" عن مرارة التحوّلات التي تشهدها مدينته، استعاد قولة شعبيّة تفيد بأنّ "الحيّ بلا نصارى... خسارة". لكنّه، بعد برهة صمت وانكفاء على النفس، سألنا: "هل تعرفون أنّ معين جابر، رئيس بلديّة النبطيّة حتّى وفاته في ١٩٩٥، تعرّض للخطف على أيدي الجبهة الشعبيّة لتحرير فلسطين وإسرائيل وأمل والجيش السوريّ؟ إنّ قصّته تلخّص أحوالنا".

زغرتا أو الاستثناء المارونيّ

لا يكاد يجتمع اثنان في زغرتا، من أهلها البالغين ثلاثين ألفاً، إلاّ يكون ثالثهما يوسف بك كرم. فالرجل الجالس على حصانه فوق إحدى ذرى إهدن، مصيف الزغرتاويّين الجبليّ، لا يزال مادّة استلهام يوميّ لأبنائه وأحفاده. وهذا الحضور الثقيل الوطأة للسياسيّ الطموح والمغامر الذي قاتل متصرفيّة جبل لبنان، علامة لا تخطئ على "فائض التاريخ" في الوعي الزغرتاويّ.

فيوسف كرم هو الذي حوّل زغرتا عاصمةً لزعامة مارونيّة خارج جبل لبنان، منذ انتزاعه، أواسط القرن التاسع عشر، النفوذ من مُقدّمي بشرّي. أمّا الأخيرة، التي لا تبعد سوى كيلومتر عن إهدن، فتبقى خصماً يُعتدّ بخصومته. ذاك أنّ الدم سال بينهما من أيّام اليعاقبة، وحتّى اليوم لا تزال تندر الزيجات بين البلدتين.

ويوسف كرم، قبل هذا وبعده، مؤسّس الاستثناء المارونيّ الذي وجد أكثر من تعبير لاحق عنه: مرّةً، في الخمسينات، حين وقف حميد فرنجيّة، زعيم زغرتا حينذاك، ضدّ كميل شمعون، رئيس الجمهوريّة ومعبود موارنة الجبل، ومرّةً، حين وقف شقيقه سليمان، في أواخر السبعينات وفي الثمانينات، ضدّ "الجبهة اللبنانيّة"، والآن مع سليمان فرنجيّة الحفيد.

هذه الاستثنائيّة كانت شعبيّةً دائماً. فإلى صفّ يوسف كرم انحاز أعيان الطائفة الزغرتاويّون وعامّة موارنتهم وصغار كهنتهم. إلاّ أنّها، وككلّ استثناء، متعبة ومكلفة، وبعض هذه الكلفة أنّ زغرتا تخلّفت عن جبل لبنان وصار يومُها مثل أمسه.

العائلة السياسيّة

والحديث عن زغرتا، التي تذكّر البعض بصقليّة في إيطاليا، يبقى صعباً من دون الحديث عن عائلاتها، مثلما يصعب الحديث عن العائلات من دون التوقّف عند زعمائها.

فمع سقوط السلطنة العثمانيّة وبداية الانتداب، حصل في الريف المارونيّ الشماليّ ما يسمّيه أستاذ الأنثروبولوجيا والكاتب شوقي الدويهي بدايات تكوّن العصبيات العشائريّة على نحو سياسيّ. وكان للانتخابات النيابيّة أن فاقمت الوجهة هذه، باعثةً على تماسك الزعامات المحلّيّة ومانعةً، لعقود تالية، دخول الأحزاب السياسيّة إلى زغرتا.

لكنّ الفرنسيّين، وبعدما جعل يوسف كرم من بلدته مقرّ الزعامة المارونيّة الشماليّة الأولى، اعتمدوا وديع طربيه، في العشرينات، نائباً في البرلمان. وطربيه ليس من زغرتا، بل من قضائها المعروف بـ"الزاوية" الذي يضمّ ٤٩ قرية ويبلغ ناخبوه ضعف ناخبي زغرتا عدداً.

وفي ١٩٢٩، حين حاول الانتداب إيصال طربيه مجدّداً إلى البرلمان، استُنفرت النعرة الزغرتاويّة التي لا يملك فلّاحو الزاوية المفتّتون مثلها. ولأنّ زعامة آل كرم شرعت تضمر بعد يوسف بك، التفّ أهل العصبيّة حول قبلان فرنجيّة، مؤسّس السلالة الأطول عمراً في التاريخ الزغرتاويّ. وفي الغضون هذه وقعت اشتباكات وسقط قتلى وانضافت الزاوية إلى بشرّي على قائمة كارهي زغرتا ومكروهيها. مذّاك هُمّشت سياسيّاً عائلات الزاوية، كطربيه وإسطفان والضاهر، من غير أن يُسعفها سبقُها إلى التعليم وإلى الهجرة.

أمّا عند آل فرنجيّة و"لفيفهم"، بحسب التعبير الزغرتاويّ الدالّ على مؤيّديهم من عائلات صغرى، فنشأ تحفّظ على الفرنسيّين الذين دعموا خصومهم. وبحسب مذكّرات الرئيس بشارة الخوري، نزل الزغرتاويّون كي يحتجّوا في مركز المحافظة في طرابلس، وقرّر الفرنسيّون ألّا يردّوا بالسلاح لمعرفتهم ما يمكن أن تكون عليه استجابة الزغرتاويّين العاشقين للسلاح، لكنّ مجنّدين في القوّات الفرنسيّة من علويّي سوريّة أطلقوا النار عليهم، فكان ما كان من قتلى وجرحى. وفي تحفّظ أهل زغرتا على الفرنسيّين بدوا استثنائيّين، مرّة أخرى، بقياس موارنة الجبل المتيّمين بفرنسا، تماماً مثلما كانوا مع يوسف كرم الذي أخذهم بعيداً من المتصرفيّة ومن بطريركيّة الموارنة.

وبحسب ما يضيف شوقي الدويهي، لم يحمل العهد الاستقلاليّ جديداً. فالأحزاب

المارونيّة التي نشأت في جبل لبنان وبيروت، كالكتلة الوطنيّة والكتلة الدستوريّة، وصلت إلى البترون وتوقّفت هناك. صحيح أنّ حميد فرنجيّة، نجل قبلان الذي ورث عنه الزعامة، كان قريباً من الدستوريّين، إلّا أنّ الزغرتاويّين كانوا معنيّين بحميد بوصفه زعيمهم، لا بهواه الدستوريّ الذي يمارسه وحده في بيروت.

وكان للانتخابات، من دون مقدّمات سياسيّة وثقافيّة أخرى، أن ضربت ضربتها الثانية مطالع الخمسينات. فإذ غدت زغرتا تحظى بمقعدين في البرلمان، تمدّدت اليقظة العائليّة من عائلتي كرم وفرنجيّة إلى سائر العائلات الطامحة. فقد حمل حميد فرنجيّة إلى الحلبة السياسيّة المحامي الشابّ رينيه معوّض، بينما اصطحب يوسف كرم الحفيدُ فؤاد الدويهي، وبعدما كانت اللعبة حكراً على عائلتين صارت تتّسع لأربع.

حروب العائلات

قد تكون زغرتا الندّ الأبرز للشوف في المدى الذي تبلغه شخصنة الزعامة ووقوف الزعيم وسيطاً كاملاً بين المواطن والدولة. وبحسب شوقي الدويهي، تملك الزعامة الزغرتاويّة أجهزة ثلاثة متلازمة: فهي غالباً ما تعمل برأسين، واحد للداخل وآخر للخارج، على ما كانت الحال خصوصاً إبّان زعامة حميد فرنجيّة وتولّي شقيقه سليمان تدبير شؤونها داخل البلدة، ثم هناك أركان الزعامة، وهم غالباً من خارج العائلة الموالين لها، وأخيراً هناك جهاز القبضايات ويكونون من أبناء العائلة ذاتها.

والأُسَر، في زغرتا، تملك تقليديّاً أحياءها. فحيّ الصليّب مثلاً لآل معوّض، وحيّ العبي لآل فرنجيّة. والحال أنّ الفرز السكنيّ هذا هو ما ضاعفه الدم الذي سال بين عائلتي فرنجيّة ومعوّض من جهة وعائلتي الدويهي وكرم من جهة أخرى، أواخر الخمسينات، بحيث طرأ نوع من التطهير العائليّ الذاتيّ كان وحده شرط أمان الفرد بين أهله وجماعته الخالصة. وعلى رغم الانتشار النسبيّ للزيجات المختلطة، ظلّ السكن نادر الاختلاط وبقيت الكنائس حكراً على عائلات بعينها تصلّي فيها.

هذه الخريطة الساكنة وجدت ما يهزّها عميقاً في الخمسينات حين تحوّل العداء الضامر إلى عداء صارخ. ففي محاولته الضغط على حميد فرنجيّة، الذي كان منافسَه

في انتخابات ١٩٥٢ الرئاسيّة، لجأ شمعون إلى تعزيز نفوذ آل الدويهي، مقوّياً الأب سمعان الدويهي علّه يواجه به نفوذ فرنجيّة. وقد بدأ التوتّر والاحتكاكات بين العائلتين في ١٩٥٤، ثمّ توّج العنف نفسه بعد ثلاث سنوات في "حادثة مزيارة" التي سقط فيها أكثر من عشرين قتيلاً ومن مئة جريح في كنيسة القرية المذكورة. ويرى الروائيّ جبّور الدويهي، الذي أرّخ تلك "الحادثة" في روايته، المتعدّدة الأصوات والسرود، "مطر حزيران"، أنّ الزعامات العائليّة اكتسبت، بسبب مزيارة، "شرعيّة" الدم والشهادة فأضافتها إلى ما تراه حقّاً لها في التمثيل والتمكّن.

وعلى العموم، باتت زغرتا مذّاك تُعرف، كما صقليّة، بنسائها الملفّحات بالسواد حداداً على أبناء أو أزواج قضوا في لعبة الثأر والثأر المضادّ، وصارت صورة الأمّ المحرّضة على الانتقام، فدىً للعائلة ولزعيمها، بعض ألبوم الحياة الزغرتاويّة الفعليّة والمتخيّلة.

معوّض قطباً وسليمان رئيساً

ومثلما كان لرئاسة كميل شمعون (١٩٥٢ – ١٩٥٨) أثرها الكبير على زغرتا، كان لرئاسة فؤاد شهاب (١٩٥٨ – ١٩٦٤) ومعظم سنوات عهد الرئيس "الشهابيّ" شارل حلو (١٩٦٤ – ١٩٧٠) أثر آخر. فقد صعد رينيه معوّض الذي كان من أركان الشهابيّين، بوصفه وجهاً يقاسم سليمان فرنجيّة زعامةً آلت إليه بسبب المرض الذي ألمّ بشقيقه حميد.

وهنا ارتسمت لمعوّض، في مقابل سليمان فرنجيّة، صورة "رجل الدولة"، فيما وجد الكثيرون من عائلته في الدولة والوظيفة العامّة ما كان يجده كثيرون من آل فرنجيّة خارج الدولة والوظيفة.

لكنْ في ١٩٦٦ و١٩٦٧، وبالتوازي مع معارضة سليمان فرنجيّة للشهابيّة، تصدّع التحالف بين عائلتي فرنجيّة ومعوّض، كما تصدّع التحالف المقابل بين عائلتي الدويهي وكرم، و لم يخل الأمر في الحالتين من احتكاكات دمويّة عابرة. بيد أنّ فرنجيّة لم يندمج في المعارضة المارونيّة الجبليّة للشهابيّة كما عبّر عنها "الحلف الثلاثيّ" الذي ضمّ شمعون

وريمون إدّه وبيار الجميّل، بل آثر الحفاظ على الاستثناء ودخول المعارضة من باب "تكتّل الوسط" الذي ضمّه إلى صائب سلام وكامل الأسعد.

على أنّ عام ١٩٧٠ كان العام الذي شهد التحوّل الكبير، لا لزغرتا وحدها بل للبنان كلّه. فقد اختير سليمان فرنجيّة، الذي كان نجله توني قد أسّس "المردة" كواحدة من أوائل الميليشيات، رئيساً للجمهوريّة، وهو ما اعتُبر هزيمة للشهابيّة ونهاية مُرّة. هكذا بدأت المعادلات التي تحكم زغرتا تتحوّل معادلات لحكم لبنان كلّه. فقد استُخدمت السلطة على أوسع نطاق لمصلحة فئات مقرّبة، فيما صير إلى تصليب مواقع العائلة وزعامتها. وفي النطاق هذا، وفضلاً عن الإتيان بتوني سليمان فرنجيّة نائباً عن بلدته في ١٩٧٢، ليحلّ محلّ أبيه، جيء بصهره عبدالله الراسي نائباً عن عكّار.

أهمّ من ذلك، أنّ التراجع الذي مثّلته رئاسة سليمان على الصعيد السياسيّ إنّما تزامن مع بلوغ الازدهار الاقتصاديّ اللبنانيّ ذروته، بحيث بات لبنان، أوائل السبعينات، يملك أعرض طبقة وسطى في الشرق الأوسط. هكذا بدت السلطة السياسيّة التي تُدار صقليّاً أشبه بخوّة تُفرض على العمليّة الرأسماليّة، فتطبّق على نطاق البلد ما كانت تطبّقه على القرى المزدهرة في الزاوية.

و لم يمرّ ذلك من دون اعتراض في زغرتا كما في الزاوية. ففي هذه الأخيرة بدأ يتنامى حزب الكتائب الذي تزعّمه هناك يوسف الضاهر، ومن بعده القوّات اللبنانيّة، ردّاً على "الإقطاع" الزغرتاويّ ممثّلاً بآل فرنجيّة. أمّا في زغرتا نفسها فولدت "حركة الشباب الزغرتاويّ" وظهر رجال كالأب هكتور الدويهي ممّن التفّ حولهما عشرات الشبّان الذين انتمى كثيرون منهم إلى أحزاب اليسار.

وقد لوحظ أنّ أقلّ المنتمين إلى الموجة الاعتراضيّة هذه كانوا من آل فرنجيّة، فيما توزّع معظم المقبلين عليها على الأسَر المهمّشة سياسيّاً أو الفقيرة، مشكّلين ما يمكن اعتباره شياطين زغرتا الصغار الذين يتحدّون أعرافها. فقد انخرط فيها شبّان من "العرّة"، أي قاموسيّاً القطعان الصغيرة التي تلتحق بقطيع كبير، وهي التسمية التي تُمنح محلّيّاً لعائلات صغرى توالي آل كرم من دون أن تكون منهم. كذلك انتسب إليها أفراد من آل الدويهي، أفقر العائلات وأكبرها عدداً وأبعدها، منذ نهاية العهد الشمعونيّ، عن مراكز القرار. والحال أنّ آل الدويهي هم أيضاً الأكثر تفتّتاً في داخلهم ما بين زعامات

طامحة صغرى، وأشدّهم إقبالاً على الإكليروس، حيث تقع في حيّهم الكنيسة الأهمّ في البلدة، كنيسة سيّدة زغرتا. فمنذ القرن السادس عشر هناك بطاركة ومطارنة من تلك العائلة، أبرزهم البطريرك إسطفان الدويهي، فيما كان آل فرنجيّة، وعلى الدوام، أقلّ العائلات دخولاً في السلك الدينيّ. ولم يكن الرسّام صليبا الدويهي الاسم اللامع الوحيد بين الدويهيّين الذي عُرف على نطاق لبنانيّ في القرن العشرين.

على أيّة حال، تولّى اندلاع حرب السنتين في ١٩٧٥ إنهاء تلك التجربة الاعتراضيّة، التي سبق أن أضعفها، بحسب جبّور الدويهي، بعض شعاراتها المتطرّفة ودفاعها المعلن عن السلاح الفلسطينيّ.

حرب السنتين وما يلي

في حرب السنتين تلك بدا لوهلة أنّ الطائفة تطغى على العائلة. هكذا تضامنت العائلات الزغرتاويّة، لكنّ كلّ واحدة منها شيّدت متاريسها الخاصّة بها والمهيّأة، في أيّة لحظة، أن تغيّر وظائفها وأعداءها. والواقع أنّ هذا الانضواء العابر في القاعدة المارونيّة والتخلّي عن الاستثناء كان قد أملاهما وجود سليمان فرنجيّة في رئاسة الجمهوريّة لحظة اندلاع حرب السنتين. هكذا بدا أنّ التحالف الفلسطينيّ – السوريّ – الإسلاميّ – اليساريّ إنّما يستهدف زعيم زغرتا فيما هو يستهدف الموقع المارونيّ الأوّل في الدولة.

وبالفعل كان للزغرتاويّين معاناتهم الخاصّة مع النظام السوريّ: فقد هاجمتهم مطالع ١٩٧٦ قوّات اليرموك التابعة لجيش التحرير الفلسطيني المرعيّ سوريّاً، وكادت زغرتا تسقط في الهجوم الذي قُتل فيه عشرات من أبنائها وأبناء الزاوية، كما قضى أضعافهم من المهاجمين. هنا استعاد الزغرتاويون شعوراً بالافتخار مؤسّساً، هذه المرّة، على قاعدة الطائفة، لا العائلة. ذاك أنّ "تركيّا لم تدخل إلى زغرتا"، كما قال زغرتاويّ فخور، "فكيف يدخل هؤلاء؟".

لكنْ لئن تولّى الاستثناء وضع زغرتا في مواجهة بشرّي والزاوية، فإنّ الانضواء في القاعدة وضعها في مواجهة طرابلس. فقبل حرب السنتين، كانت هناك ٤٠٠ إلى ٥٠٠ عائلة زغرتاويّة تقيم في "عاصمة الشمال"، موظّفين ومدرّسين وأصحاب مهن حرّة

على عمومها، يدرس أبناؤهم في مدارسها الإرساليّة. وهؤلاء انسحبوا تباعاً إلى بلدتهم، خصوصاً وقد راح أداء المستشفيات والمدارس والحياة الاقتصاديّة في طرابلس يتراجع بخطى متسارعة، وهذا قبل أن تقع على صدر المدينة قبضة الشيخ سعيد شعبان. كذلك توقّفت لسنوات وفادة عائلات وأفراد طرابلسيّين للاصطياف في إهدن.

بيد أنّ الاستثناء ما لبث أنّ أطلّ برأسه مجدّداً. ففي ١٩٧٨، وبعد خلاف اندلع في شركة الترابة في شكّا حول تقاسم عائداتها، اغتيل الكتائبيّ جود البايع، فردّ الكتائبيّون بارتكاب جريمة في إهدن كانت إحدى أبرز مآسي الحروب اللبنانيّة وإحدى أبشعها. يومها قُتل في منزله النائب والوزير توني سليمان فرنجيّة وزوجته وابنته وعدد من مناصريه، وانفجرت بين المارونيّة الزغرتاويّة ومارونيّة جبل لبنان، ممثّلةً بالكتائب، حرب حصدت ٤٠٠ قتيل. ولمّا كان الشابّ الكتائبيّ والبشراويّ سمير جعجع مشاركاً في الهجوم، وجد التنافر التقليديّ الزغرتاويّ – البشراويّ ما يشحذه، عاملاً على أيْقَنة المأساة وإسباغ الجوهريّة عليها.

وبالفعل تكرّست عزلة زغرتا عن جبل لبنان، فيما تضامنت الأُسر الأخرى مع آل فرنجيّة ضدّ الكتائب، ولو أنّه تضامن لم يستمرّ طويلاً.

سياسات الخدمات

لم تعد زغرتا إلى الواجهة السياسيّة اللبنانيّة إلاّ مع انتخاب رينيه معوّض رئيساً للجمهوريّة، أواخر ١٩٨٩، بعد توقيع اتّفاق الطائف. لكنّ الحدث هذا لم يتحوّل إلى سياق ووجهة بسبب اغتيال معوّض في جريمة أخرى من جرائم الحروب اللبنانيّة بعد ١٧ يوماً فقط على انتخابه.

هكذا استمرّت الزعامة الأولى معقودة لسليمان توني فرنجيّة، الشاب الذي ذهب بعيداً في موالاته النظام السوريّ، ضدّاً على الموقف شبه الإجماعيّ لموارنة الجبل. وموقفه هذا إنّما بدا تعزيزاً قويّاً ونافراً للاستثناء جنى منه فرنجيّة الكثير من العائدات. فبعد سنوات من توزير جدّه ومن رئاسته للجمهوريّة، وبعد توزير أبيه، حلّ سليمان، من دون انقطاع تقريباً، وزيراً في سائر الحكومات.

وإبّان تولّيه وزارة الصحّة خصوصاً، بين ٢٠٠٠ و٢٠٠٣، شاعت نكتة تقول إنّ ما من فتاة زغرتاويّة مؤيّدة له إلاّ أجرت عمليّة لأنفها على حساب الوزارة. ولا يزال مستشفى الشمال، الأهمّ في تلك المحافظة، شاهداً على الخدمات السخيّة التي تُسدى لفرنجيّة الذي يسديها، بدوره، لطالبيها. وما بين شركة الترابة في شكّا وفرص العمل التي يتيحها الكازينو في المعاملتين، يبدو سليمان فرنجيّة لمحازبيه، بحسب وصف أحد الزغرتاويّين، "شركة تأمين لمدى الحياة". وكما هو معروف، فإنّ السلوك هذا لا يُعدم "إيديولوجيّته"، إذا صحّ التعبير، وهي خدمة الفقراء وإعانتهم على مصاعب الحياة.

لكنّ الشعبويّة هذه كثيراً ما تصطدم بحالات نافرة تقاوم التبرير السهل: فمثلاً، تكوّنت في زغرتا، إبّان الحكم السوريّ، شريحة ثريّة عبر كوتّا نفطيّة مصدرها بنزين مدعوم من سوريّة يباع في السوق اللبنانيّة، فانضافت هذه إلى الفئة العريضة المستفيدة من تنفيعات السلطة.

والحال أنّ السوريّين وفّروا لفرنجيّة دعماً غير محدود، فصار رجل الحلّ والربط حيث يرغب في أن يحلّ ويربط. وهو، بدوره، كان أكثر سوريّةً من جدّه الذي كان يمانعهم بين وقت وآخر. وفي تبرير هذه السياسة، يرى أنطوان مرعب، الصناعيّ المقرّب من سليمان فرنجيّة، أنّ هناك أسباباً موضوعيّة للصلة المتينة بآل الأسد ونظامهم. ذاك أنّ سليمان الجدّ قد وجد مبكراً في حافظ الأسد الحليف الذي ضرب السنّة ممّن ثاروا على الموارنة في ١٩٧٥.

وكان ما وسّع نفوذ فرنجيّة الحفيد عدد لا يُستهان به من المتموّلين الذين يدعمونه، وسيطرة حليفيه المطران سمير مظلوم ثمّ الأب إسطفان فرنجيّة على مؤسّسات الكنيسة وما يتّصل بها. والمعروف أنّ الكنيسة في زغرتا لم تتعرّض، هي الأخرى، لأيّ تغيير يُذكر: فبعد الأراضي الكثيرة التي باعتها، يقدّر البعض أنّها لا تزال تملك أكثر من ٤٠ في المئة من مساحة القضاء. يكفي، مثلاً، أنّ دير مار سركيس وحده يضع يده على ثلث مساحة إهدن. وبطبيعة الحال فإنّ العمالة في أملاك الكنيسة تتمّ وفقاً لاعتبارات سياسيّة وعائليّة صارمة.

ويصعب على الكنيسة في زغرتا أن تقف في وجه سليمان الذي كان محازبوه يهتفون له، إبّان خلافه مع البطريرك نصرالله صفير، "أنت البطرك يا سليمان". ففي ذاكرة

الزغرتاويّين أن البطريركيّة خانت يوسف كرم، وأنّ الطريقة المتعالية التي يخاطب بها سليمان البطاركة تشبه الطريقة التي كان يوسف كرم يتحدّث بها عن البطريرك بولس مسعد أو يخاطبه.

لقد سهّلت هذه العوامل مجتمعةً لزعامة سليمان فرنجيّة أن تقضم العائلات الأخرى، كالدويهي وكرم ومكاري، بقوّة الخدمات والنفوذ، حتّى إنّ رئيس البلديّة الحاليّ، توفيق معوّض، يوالي فرنجيّة ويُحسب عليه.

أحوال الزعامة!

بيد أنّ للقدرة على تقديم الخدمات حدوداً. فقد جاء الانسحاب السوريّ من لبنان، على إثر اغتيال رفيق الحريري في ٢٠٠٥، ضربةً قاصمة لسليمان فرنجيّة، ضربةً ردّته من زعامة شماليّة عريضة إلى حدوده الزغرتاويّة البحتة، كما جعلته يواجه أكلاف الاستثناء دفعة واحدة.

لهذا رأيناه، لدى الانسحاب السوريّ، كأنّه يحلّ المعضلة بشيء من توهّم التطويق الاستباقيّ، فيتوسّع في إنشاء مراكز لـ"المردة" خارج زغرتا، حتّى إنّه أنشأ مقرّاً لها في صيدا. لكنّ الواقع جاء ردّه سريعاً: فقد خرج سمير جعجع من سجنه وعاد ميشال عون من منفاه، فلاحت أشباح منافسين أقوياء جدد، ثمّ رسب سليمان فرنجيّة نفسه في انتخابات ٢٠٠٥. والحال أنّ هذا الرسوب، في ظلّ انتخابات قامت على أساس المحافظة، وقع وقْع الصاعقة عليه، الأمر الذي عبّر عنه هجوم بعض مناصريه على منزل المرشّح الفائز، وابن عمّه البعيد، سمير حميد فرنجيّة. كذلك حقّقت القوّات اللبنانيّة انتصارات انتخابيّة في البترون، ثمّ في الانتخابات الفرعيّة في الكورة.

وهذا مجتمعاً يملي بعض الحسابات والمراجعة. ففضلاً عن العلاقات المضطربة مع الزاوية وبشرّي وطرابلس والجبل، لا تبدو نيابة فايز غصن عن الكورة، وهو المقرّب من فرنجيّة، كافية لإسباغ الدفء على علاقة الزغرتاويّين بالكورانيّين.

ذاك أنّ الكورة الأرثوذكسيّة التي أحرق يوسف بك كرم عاصمتها أميون، أقبل أبناؤها مبكراً على العلم وكرهوا تسلّط جيرانهم المزمن. فهي، بحسب أنطوان مرعب،

لا تنتمي إلى النسيج الفلاّحيّ المارونيّ، "وقد اقتصرت العلاقة بيننا على الشخصيّات السياسيّة".

والمعطيات هذه قد تجد في أيّة لحظة انعكاسها الانتخابيّ، إذ ماذا، مثلاً، لو تمكّن أهل الزاوية من الاتّفاق في ما بينهم على مرشّح يمثّلهم ويلتفّ حوله ثلثا سكّان القضاء، وهذا مع العلم بأنّ لائحة ميشال معوّض، التي نافست فرنجيّة، نالت في الزاوية، في انتخابات ٢٠٠٩، أكثر ممّا نال فرنجيّة ولائحته؟ ثمّ ماذا عن المقترعين السُنّة المناهضين له والذين يقارب عددهم في القضاء تسعة آلاف ناخب، فيما "لا مكان لنا في المشروع السنّي، لا سيّما بعد ظهور رفيق الحريري ومشروعه"، بحسب ما يضيف مرعب؟

والمأزق هذا، ذو الأوجه الكثيرة، هو ما قد يفسّر الامتداد السكنيّ الذي بدأ يصل زغرتا بجبل محسن في طرابلس، حيث يقيم العلويّون، عبر قرية مجدليّا. فكأنّنا، هنا، أمام ثمرة من ثمار "تحالف الأقليّات" الذي يأخذ فرنجيّة إلى حزب الله البعيد عن الشمال ويحمله ويحمل محازبيه على التغنّي بحسن نصرالله.

لكنْ ماذا إذا اكتمل سقوط النظام السوريّ، وكيف، في هذه الحال، يتمّ وقف التداعيات المترتّبة على زغرتا وعلى زعامة سليمان فرنجيّة، لا سيّما في علاقتها بـالقوّات اللبنانيّة وبطرابلس؟ يكفي القول، مثلاً لا حصراً، أنّ ألفي زغرتاويّ لا يزالون ينزلون يوميّاً إلى عاصمة المحافظة بسبب الوظيفة أو لتخليص أمور إداريّة فيها.

وعلى العموم، ففكرة الجزيرة المحاطة بالكارهين والأعداء قد يحتملها البشراويّ والتنّوريّ المعتادان على درجة من العزلة، فيما يصعب أن يحتملها الزغرتاويّ الذي احتفظ دائماً بحضور شماليّ أوسع وأنشط، كائناً ما كان نوع الحضور المذكور.

وهذا ما يحمل أنطوان مرعب على عدم استبعاد انفراجات في العلاقة مع طرابلس، وربّما مع القوّات، لأنّ سليمان فرنجيّة "براغماتيّ وغير عنفيّ". بيد أنّ المؤكّد أنّ العلاج المطلوب يتعدّى كثيراً مجرّد إحلال توني الابن في زعامة يُخليها سليمان الأب؟

تحوّلات السياسة والاجتماع

غنيّ عن القول إنّ الزغرتاويّين الذين يتعاطفون مع نظام الأسد إنّما يفعلون هذا بوصفه

امتداداً للفرز السياسيّ داخل زغرتا، من دون أن تداخل مواقفهم أيّة عاطفة أو هوى إيديولوجيّ. وبحسب النائب السابق سمير فرنجيّة "إذا وضعنا جانباً الخلافات العائليّة – السياسيّة، لم يبق بين الزغرتاويّين مؤيّد واحد لذاك النظام". وهذا ما يظهر في كلام سليمان فرنجيّة حين يتحدّث عن الصلة بآل الأسد، فيركّز على "الوفاء" والعلاقات الشخصيّة ممّا يموّه السياسة أكثر كثيراً ممّا يشير إليها وإلى مسائلها المُلحّة.

والزغرتاويّون، اليوم، لأسباب شتّى ومن مواقع شتّى، يُبدون اهتماماً ملحوظاً بأخبار الثورة السوريّة وباحتمالاتها. وهم يفعلون هذا عبر الأحفاد الذين يتداولون ما يرد على تويتر وفايسبوك، وأيضاً عبر العمّال السوريّين الذين، بحسب سمير فرنجيّة، ما عادوا يُسمّون "سوريّين" بوصفهم كتلة واحدة لا تمييز فيها، بل صار الزغرتاويّون ينادونهم، بعد الثورة وبسببها، بأسماء علم تميّز واحدهم عن الثاني.

لكنْ قبل الثورة السوريّة، وعلى مدى عقود أربعة، ظهرت وتراكمت، في الحياة الزغرتاويّة، تحوّلات لا بدّ أن تنعكس، عاجلاً أو آجلاً، على منطق السياسة وطرق اشتغالها.

فعلى إثر الخروج من طرابلس بسبب حرب السنتين، تحوّلت زغرتا، للمرّة الأولى في حياتها، إلى سوق شعبيّة، هي التي لم تعرف من قبل أيّ نشاط تجاريّ. صحيح أنّ ذلك لم يمسّ النظام العصبيّ والعائليّ، إلاّ أنّ النظام المذكور بات مدعوّاً إلى درجة أعلى من التكيّف مع المصالح الناشئة.

ومنذ الثمانينات شرعت الأجيال الجديدة تُقبل على الدراسة التي بدأت تحتلّ موقعاً لم يكن لها في أنظمة القيم السائدة، فتحسّنت مكانة المتعلم والمثقّف وإن لم تبلغ، بطبيعة الحال، مكانة القبضاي. لكنْ يبدو أنّ الهاجس الذي أملى المستجدّ هذا، وهو ما وفّرت الجامعة اللبنانيّة شرط تلبيته، كان الحصول على فرص عمل من دون منّة الزعيم ومكرمته.

والتحوّلات المذكورة لم تأخذ بعد شكلها السياسيّ، خصوصاً أنّ التجّار ليسوا أقوياء بما يكفي، فيما معظم أثرياء زغرتا يقيمون في الخارج، في بيروت والسعوديّة والإمارات وفنزويلا. بيد أنّ الزغرتاويّين بدأوا يبنون أحياء تختلط فيها عائلاتهم، كحيّ العقبة الجديد، وصار ابن معوّض يستأجر في حيّ لآل فرنجيّة والعكس صحيح.

ومثلما لعبت الانتخابات دوراً في دفع التناحر العائليّ إلى أمام، كان لها دورها، من خلال التحالفات الانتخابيّة المتغيّرة، في الحدّ من القطيعة بين عائلة وأخرى. فاختلاف عائلتي فرنجيّة ومعوّض لا يلغي عشرات السنين من تحالفهما، كما أنّ حادثة مزيارة لم تحل دون تحالف عائلتي فرنجيّة والدويهي منذ ١٩٦٤.

ويشير المحامي والناشط الاجتماعيّ سمعان إسكندر إلى انتهاء ظاهرة الثارات العائليّة مع بداية التسعينات وعودة الدولة، حيث غدت المشاكل التي تطرأ تنحصر في الأفراد المعنيّين بها. وفي هذا اضطلع التعليم بدور مؤكّد، فيما أمست الرابطة العائليّة تعادل طلب التنفيعات مقابل الولاء الانتخابيّ، من دون استعداد واضح لتقديم أضاحٍ دمويّة. ويضيف جبّور الدويهي سبباً آخر وجيهاً هو تراجع سلطة المسيحيّين وتقديماتها على صعيد وطنيّ بعد اتّفاق الطائف، بحيث أضحت المكاسب والتنفيعات أكثر محلّيّة، وذات عوائد أقلّ، ممّا كانت في عهود شمعون وشهاب وفرنجيّة. أمّا النائب السابق سمير فرنجيّة فيصرّ على ظهور اقتناع جديد بين الزغرتاويّين جميعاً، مفاده أنّ العنف داخل بلدتهم لا يحلّ أيّاً من المشاكل.

كائناً ما كان الأمر، ففي ١٩٩١، حين توفي الرئيس السابق سليمان فرنجيّة، بدا رمزيّاً كأنّ تاريخ الدم ارتاح قليلاً وأنّ مستقبلاً آخر انفتح على احتمالات مغايرة.

٨ و١٤ وشبّان يحاولون

ليس الزغرتاويّون أهل أحزاب وعقائد إلاّ عَرَضيّاً. ومثلما كانت حالهم مع الكتلتين الوطنيّة والدستوريّة، صارت حالهم مع ٨ و١٤ آذار، حيث شكّل الموالون لسليمان فرنجيّة قاعدة ٨، والموالون لميشال معوّض قاعدة ١٤. لكنْ، هنا أيضاً، لم يتحوّل الاستقطاب الحادّ الذي ساد عامي ٢٠٠٥ و٢٠٠٦ صداماً عنفيّاً بين العائلات. صحيح أنّ الزعماء لا يزال في وسعهم، إذا شاؤوا، أن يشنّجوا الوضع مع عائلة أخرى أو مع منطقة مجاورة، لكنّ المرجّح ألاّ تمضي الرغبات الزعاميّة من دون اعتراض جدّي، سيّما أنّ العائلات الزغرتاويّة جميعها، ولو بتفاوت، تشهد ظهور طامحين، صغار أو كبار، لا يسلّمون بالزعيم الأوحد للعائلة.

وإذا كان سليمان فرنجيّة قد ورث عن أبيه وجدّه "تيّار المردة"، فقد أسّس ميشال معوّض ما سمّاه "حركة الاستقلال" التي أريد لها احتكار ١٤ آذار في زغرتا. أمّا خارج العائلات و"أحزابها"، فتبدو القوّات اللبنانيّة موجودة بقوّة في الزاوية التي تمدّدت إليها بسبب الكره الذي يكنّه أبناء القضاء لزعامة زغرتا. لكنّ ما يحدّ من تأثير القوّات تفتّتها، هي الأخرى، ما بين ساحل ووسط وجرد.

وحين كان ميشال عون منفيّاً، التفّ حوله شبّان تعرّض بعضهم للملاحقة، أكثريّتهم من العزّة، في محيط آل كرم، الذين سبق لشبّانهم أن انتسبوا إلى اليسار والقوميّين السوريّين. ويبدو أنّ العائلة المذكورة راودها تقديم ميشال عون كاستنساخ عن يوسف كرم في مغامراته وفي فشله في بلوغ ما يريد بلوغه.

هكذا تعرّض سليمان فرنجيّة لضغوط جدّيّة كي يصطحب القطب العونيّ فايز كرم على لائحته، قبل أن يبدأ الانحسار العونيّ. فحاليّاً، انتهت هذه الحالة أقلّيّةً ضئيلة، خصوصاً أنّ سياسة العونيّين على النطاق الوطنيّ تتلاقى وسياسات فرنجيّة بما يقلّل الحاجة إليهم. ويضيف سمعان إسكندر سبباً آخر لضعف قائد الجيش السابق في زغرتا، هو عدم الانتساب الزغرتاوي التقليديّ إلى المؤسّسة العسكريّة. بيد أنّ السبب الأبرز للانكماش كان افتضاح عمالة فايز كرم لإسرائيل، الشيء الذي وقع، من دون شكّ، وقع الخبر السعيد على فرنجيّة.

وهذا لا يلغي أنّ على الأخير، بعد اليوم، أن يحسب حساباً للقوّات، وبدرجة أقلّ لعون. لكنّ ثمّة ما يشبه الاقتناع الزغرتاويّ العام بأنّ أيّاً من الأطراف لا يريد صداماً مفتوحاً مع الآخر، وأنّ هذه المعادلة لا يهدّدها إلاّ إصابة فرنجيّة بانتكاسة سياسيّة كبرى كالتي ألمّت به في ٢٠٠٥.

خارج القوى تلك ثمّة نوى صغرى ومحاولات متواضعة. فالناشط البيئيّ والاجتماعيّ بطرس معوّض يحدّثنا عن مؤتمر انعقد، قبل نحو ثلاث سنوات، في دير مار يعقوب في قرية كرم سدّه، لتأسيس "منتدى زغرتا الزاوية" الذي يضمّ مجموعة من الناشطين. وهؤلاء ثلاثينيّون وأربعينيّون جمعت بينهم الصداقة من دون روابط سياسيّة أو إيديولوجيّة ملزمة، وهم من العائلات كلّها، بينهم محامون وتجّار ومهندسون وأساتذة. أمّا أهدافهم فاستيلاد أصوات جديدة وكسر الحواجز بين زغرتا والزاوية، حيث مارست

الأولى وصاية مديدة على الثانية، كما بين عائلات زغرتا نفسها. ويلاحظ معوّض أنّ مساحة الحريّة أكبر في الزاوية نظراً إلى بُعدها عن المركز السياسيّ، خصوصاً بعد رحيل السوريّين وعودة الأحزاب إلى الوجود. وتندمج في هذا الجهد نشاطات بيئيّة، كحماية جبل المكمل في جرود إهدن من أعمال البناء التي يقف وراءها متموّلون محسوبون على الزعامات العائليّة.

لقد شاع في هذه البيئة، وفي موازاة الثورات العربيّة، تعبير "ربيع زغرتا الزاوية"، ولا يتردّد رموز "المنتدى" في وصف أنفسهم بـ"مستقلّي ١٤ آذار"، رافضين الانحصار في إطار زعامة آل معوّض، من دون أن يُخفوا تعاطفهم مع سمير فرنجيّة.

فالحركة، بحسب بطرس معوّض، "تلامس حسّاً مكبوتاً عند الناس. كثيرون يقولون لنا: الله يقوّيكم، لكنّنا لا نستطيع أن نكون معكم".

ويحدّثنا سمعان إسكندر عن ترشّح سبعة أعضاء مستقلّين في انتخابات ٢٠٠٤ البلديّة تمكّنوا من نيل ٢٥٠٠ صوت، بينما فازت لائحة سليمان فرنجيّة بأصوات تتراوح بين ٤ و٦ آلاف صوت.

وينمّ تحرّك معوّض وإسكندر ورفاقهما عن همّ ثقافيّ. ذاك أنّ زغرتا تعاني قحطاً ليس من الصعب تبيّنه على الصعيد هذا. فقد نشأ "البيت الثقافيّ" في الثمانينات ثم أغلق أوائل التسعينات، كذلك نشأ "مركز الغزال الثقافيّ" الذي أسّسه رجل الأعمال ميلاد معوّض، لكنّ الإكليروس وضع يده عليه، ما حدّ من حرّيته. وهناك مكتبة عامّة صغيرة نشأت عن تبرّع السفارة اليابانيّة ببعض الكتب لزغرتا، فضلاً عن نشاطات "ثقافيّة" ذات طبيعة سياحيّة تشهدها إهدن صيفاً. وإلى ذلك تُحسب على الثقافة مؤسّسات لتوسيع نطاق الخدمات العائليّة والزعاماتيّة، كـ"مؤسّسة رينيه معوّض" التي تقدّم خدمات زراعيّة واجتماعيّة في زغرتا والشمال، أو "مؤسّسة إيريس فرنجيّة" التي تقدّم، هي الأخرى، الخدمات المألوفة.

وعلى العموم، لا يزال الاستثناء الزغرتاويّ يقاوم مشدوداً إلى ما كانه أمسُ جبل لبنان. لكنْ لا يزال هناك زغرتاويّون يحاولون، بالقدرات القليلة التي في أيديهم، أن يقاوموا تلك المقاومة.

بعلبك بوّابة سوريّة وحربها

حين أُعلن عن نقل "مهرجانات بعلبك الدوليّة"، لسنة واحدة، إلى جديدة المتن، تساءل كثيرون عن السبب أو اعترضوا على النتيجة.

والحال أنّ المسافة بين بيروت وبعلبك والطريق الخطرة نسبيّاً ليستا وحدهما ما بات يثبّط العزائم في حضور تلك المهرجانات. ذاك أنّه بات لهذه الأخيرة، وللمدينة التي ترعاها، نكهة مختلفة بعد حرب تموز (يوليو) ٢٠٠٦. وهي، بحسب واحد من أبناء بعلبك، نكهة "غير ودودة": إذ كيف تتكبّد عناء الطريق إلى البقاع ليلاً، لحضور أوبرا إيطاليّة أو باليه روسيّة، ولا تستطيع، بعد العرض، ارتياد مطعم واحتساء كأس نبيذ؟

لقد بات مَن يرتاد القلعة ومهرجاناتها محكوماً بالهرولة إلى بيروت بمجرّد أن ينتهي من مشاهدة الفرق الفنّيّة، فكأنّ ما تجرّأ عليه مجرّد وقت مقتطع من متعة وظيفيّة. وبحسب متابعي المهرجانات سنةً بعد سنة، ثمّة جوّ مختلف راح، ببطء شديد، يتسلّل إلى القلعة ومحيطها، فارضاً نوعاً خاصّاً من السياحة "المقاومة" ومخاطباً زوّاراً لا تخاطبهم شهرة المهرجانات العريقة. فقد فوجئ، مثلاً، من حضر أوبرا "لا ترافياتا" في ٢٠٠٩ بارتفاع صوت الأذان من مكبّرات مجاورة، ولفترة طويلة نسبيّاً، كما لو أنّه تشويش مقصود. وبدوره تكرّر الأمر مع مغنين وفنّانين آخرين، كما في عرض باليه "آنا كارينينا" لبوريس إيفمان في ٢٠١٠، حين سُمع صوت رصاص وأذان أدّى إلى وقف العرض لدقائق.

ورواية الرواة لا تخلو من أوصاف ونعوت. فالداخل إلى القلعة والخارج منها كان يستقبلهما شبّان ملتحون يختلطون بالمنظّمين و"يساعدونهم" في تفتيش الحقائب وإدارة الدخول والخروج. أمّا بضاعة المحالّ التي تبيع التذكارات فاختلفت عمّا ألفه الزوّار والسيّاح من خزفيّات وعلّاقات مفاتيح خشبيّة أو صور قديمة للقلعة وغير ذلك

ممّا يصنعه الفولكلور المحلّي. لقد طغت تذكارات أخرى غير معهودة في التجارة السياحيّة، كأعلام حزب الله الصغيرة التي تُثبّت على المكاتب، وأقلام وقدّاحات يعكس ضوءها وجه الأمين العامّ لحزب الله حسن نصرالله. أمّا نجم الغادجيت فغدا قياديّ الحزب عماد مغنيّة الذي اغتيل في ٢٠٠٨، بحيث زيّنت صورته كلّ ما يمكن شراؤه من تلك الحوانيت.

وهذا، في عمومه، أقرب إلى خلفيّة مسكوت عنها وراء القرار الأخير، خلفيّة تشي بصعوبات التوفيق بين عالمين متضادّين. فالذي يزور القلعة يلتحم بها كأنّه يسألها الحماية، فلا يجرؤ على الابتعاد مترين عنها متوجّساً من مدينة باتت قليلة الصداقة مع السيّاح، عازفة عن البيع والشراء أو متعالية عليهما.

لكنّ جمهور الحزب ومؤيّديه يَبدون مسلّحين برواية بريئة تستغرب نقل المهرجانات، كما تستهجن ما اعتبرته لجنة المهرجانات وضعاً أمنيّاً غير ملائم. هكذا يرى بسّام رعد، رئيس البلديّة السابق والبعثيّ المقرّب من حزب الله، أنّ سبب النقل "تخوّف اللجنة غير المبرّر، إذ "نحن، على العكس، احتضنّا الناس ورحّبنا بهم وحرصنا على أمنهم وسلامتهم".

أمّا الذين يقولون إنّ البلديّة، التي يهيمن عليها الحزب، هي مَن طلب الإلغاء أو النقل، فيستشهدون بمواقع إلكترونيّة عدّة ذكرت أنّ حزب الله أبلغ اللجنة استياءه "من استقدام فرق أجنبيّة عموماً، وأميركيّة خصوصاً، معتبراً ذلك إهانة لتراث المدينة المقاوم".

ضدّ السياحة

ما من شكّ في أنّ الرواية الفولكلوريّة اللبنانيّة عن مهرجانات بعلبك تغفل أموراً كثيرة، منها غربة لجنتها عن أهل المدينة وجوارها، وكونها المستفيد الأوّل من عائدات المهرجانات. لكنّ هذا لا يلغي الفوائد التي يجنيها أصحاب الفنادق والمطاعم والدكاكين والبسطات السياحيّة فضلاً عن الأدلاّء، وكلّهم بعلبكيّون.

يضاف إلى ذلك أنّ عائدات زيارة القلعة، بمهرجان أو من دونه، يذهب نصفها إلى بلديّة المدينة ونصفها الآخر إلى وزارة المال. وعلى العموم، فهذه المساحة البالغة ٤٣

كيلومتراً مربّعاً، التي هي مدينة بعلبك، ليست صناعيّة ولا زراعيّة، ما يحتّم الاكتراث بسياحة تبوّئها القلعةُ الرومانيّة الشهيرة موقعاً متقدّماً.

لكنّ بيئة حزب الله، التي يستقلّ اقتصادها عن اقتصاد بعلبك، ليست متضرّرة من نقل المهرجانات، على ما يبدو. والتباين هذا رتّب من السياسات ما انعكس سلباً على مصادر عيش المدينة. فقد عانى البعلبكيّون من نتائج التراجع المنتظم، عاماً بعد عام، في زيارة القلعة، ثمّ من انكماش السيّاح الذي كثيراً ما أُرفق بتحذيرات بعض الدول لرعاياها، قبل أن يعانوا من سقوط قذائف في محيط المدينة إثر تدخّل حزب الله "الجهاديّ" في سوريّة. وهذا فضلاً عن أحداث متفرّقة كمثل اختفاء معبد الإله ميركور، قرب ثكنة الشيخ عبد الله، تحت أبصار الجنود السوريّين، أواخر التسعينات.

لقد باتت السياحة الوحيدة التي تلقى التشجيع "السياحة الدينيّة"، وغالبها من إيران، حيث يرمز مقام السيّدة خولة، في مدخل المدينة المفضي إلى القلعة، بهندسته الإيرانيّة وزخرفته المفرطة، إلى الوجهة الغالبة. وهنا أيضاً، صار أوّل ما يطالع الزائرَ مشهدُ المقام، عوضاً عن شارع مستقيم تلوح في أفقه أعمدة المعبد الرومانيّ. وفي سياحة كهذه، تتجمّع "بوسطات" كثيرة في رأس العين، تأتي بالمؤمنين وتُعيدهم من حيث أتوا، إلاّ أنّ ما يتحصّل منها ماليّاً لا يكاد يُذكر.

يبلور هذا الافتراقَ بين الحزب ومصالح البعلبكيّين أنّ نقابة التجّار في المدينة لا تزال في أيدي عائلاتها، وأنّ الحزب لم يستطع وضع اليد عليها.

مع ذلك ينتج من الزواج القائم بين الحزبيّة المؤمنة والتدفّق الريفيّ على المدينة ضرب آخر من العدوان على حياتها التجاريّة. فالتجّار يدفعون "الخوّة" كي لا تتعرّض محالّهم لإطلاق نار، وكي لا ينزل بهم ما نزل بزميلهم، تاجر الثياب الداخليّة (لانجري)، حسين علي عواضة، الذي تعرّض للخطف لأنّه تصدّى لفارضي "الخوّات". ويذكر تجّار في تلك السوق أرقاماً يقولون إنّها "خوّات شهريّة" تتعدّى أرباحهم أحياناً، بيد أنّهم يخافون التصريح بذلك. وهذا فضلاً عن المشاجرات المصحوبة باستخدام السلاح، والتي تؤدي إلى إغلاق السوق لفترة تطول أو تقصر.

وبدوره، يروي المحامي غالب ياغي رئيس البلديّة بين ١٩٩٨ و٢٠٠٤، والذي فاز في معركة حاسمة ضدّ حزب الله، تجربته التي لا تخلو من دلالات. فقد كان همّ البلديّة

في عهده إرجاع بعلبك مدينة سياحيّة وإقامة بُنية تحتيّة ملازمة لذلك، فضلاً عن توفير الأمن بطبيعة الحال. وقد طمح ياغي إلى إنشاء جهاز لموظّفي البلديّة تتوافر فيه المعايير التي يتطلّبها الاحتكاك بزوّار أجانب، كأنْ يكون الشرطيّ حاملاً شهادة البكالوريا، والحارس حاملاً الشهادة المتوسّطة. وسريعاً ما اكتشف المجلس البلديّ الذي يرأسه مخالفات سير واحتلال أرصفة وإعاقات من هذا القبيل، فقرّر إزالتها. لكنْ حين وصل التنظيم الجديد إلى محيط فندق بالميرا، تدخّل حزب الله لدى ضبّاط الأمن السوريّ لثني ياغي ورفاقه عن مهمّتهم، بحجّة أن البلديّة "لم تنسّق معنا". وفهم رئيس البلديّة أنّ أعيان حزب الله مستفيدون من مكاتب ومصالح وعلاقات لا تستسيغ ما ينفّذه من إصلاحات.

واليوم، وبحسب ما يروي المهندس حيّان حيدر، تتنادى فعاليّات وجمعيّات ووجهاء لحمل لجنة المهرجانات على التراجع عن قرارها. لكنّ هذه المحاولة الحسنة النيّات قد تصطدم بثقافة غالبة مفادها أنّ "السياحة حرام". يكفي للتأكّد من هذا، وممّا آلت إليه بعلبك، دخول فندق بالميرا، المهجور والمعتم، قبالة القلعة، أو زيارة فندق كنعان الذي آثر أصحابه تصنيفه فندق ثلاث نجوم مع أنّه يملك مواصفات الفندق ذي النجوم الخمس، بحسب التصنيف المعمول به. فحين سألنا النادل عن سبب هذه التضحية الطوعيّة، قال إنّ الفندق خسر نجمة لأنّه لا يقدّم الخمر، ونجمة أخرى لأنّ لا سباحة فيه. والقناعة، طبعاً، كنز لا يفنى.

"إهمال الدولة"

يشكّل الكلام على "إهمال الدولة"، دائماً وأبداً، الخلفيّة التي يستند إليها كلّ ما هو منشقّ أو متمرّد أو خارج على القانون في البقاع. يندرج في هذه الخانة بعض سلوك العشائر أو الزراعات والتجارات الممنوعة، كما يندرج الحديث عن حزب الله وجاذبيّته. وإذا كان ذاك الإهمال حقيقة يصعب تجاهلها، فإنّ الكثير ممّا يُحشر في "الإهمال" يمكن ردّه إلى تفاوت موروث حكَمَ ولادة "لبنان الكبير" ما بين الجبل و"الملحقات"، وإلى عمر قصير عرفته أزمنة الاستقرار بما لم يُتح رأب الصدع المزمن،

سيّما أنّ أبناء "الملحقات" كانوا دائماً الأكثر تجرّؤاً على تلك "الدولة" وإضعافاً لها.

لقد كان أوّل مشاريع البنية التحتيّة في البقاع مشروع اليمّونة إبّان الانتداب الفرنسيّ. لكنّ العهد الاستقلاليّ الأوّل برئاسة بشارة الخوري اهتمّ بتأمين الخدمات والتنفيعات لزعماء المنطقة، لا سيّما منهم صبري حمادة الذي شارك الخوري الانتماء إلى الكتلة الدستوريّة. وعلى رغم شهرة بعلبك بينابيعها، لم تصل الماء إليها إلاّ في الأربعينات، وقد ارتبط ذلك، بحسب رواية البعلبكيّين، بجهود قائمقام اسمه عبد الحليم الحجّار من إقليم الخرّوب. أمّا المدارس القليلة فاقتصرت، حتّى الأربعينات، على توفير شهادة السرتفيكا الابتدائيّة.

ويجزم أكثر من بعلبكيّ بأنّ كميل شمعون هو رئيس الجمهوريّة الوحيد الذي "أفاد المنطقة". فيقول الصحافيّ والكاتب أحمد الغزّ إنّ الحقبة الشمعونيّة تحتلّ مكاناً عريضاً "في وجدان البعلبكيّين"، تبعاً لخدمات ومشاريع منها مهرجانات بعلبك التي أنشئت في ١٩٥٤ والاهتمام بالآثار والتنقيب عنها وإقامة سدّ القرعون والتخطيط لمداخل المدينة ومخارجها وتخصيص موازنات ضخمة نسبيّاً لبلديّتها وبناء مستشفى بعلبك الذي كان، بحسب المحامي دريد ياغي، "أحلى مستشفى في لبنان".

ويبدو أنّ تولّي سليم حيدر الوزارة غير مرّة، لا سيّما وزارة التربية، كان له دوره في توكيد هذه الوجهة، خصوصاً على صعيد العناية بالتعليم وبناء المدارس.

وبالفعل انعكست الشمعونيّة على الحياة السياسيّة الداخليّة، فترافقت مع بروز حلفاء لها كحيدر الشيعيّ، أو حبيب مطران، ملاّك الأراضي والقطب الكاثوليكيّ.

أمّا المرحلة الشهابيّة، فعلى رغم المؤسسات التي أنشأتها على نطاق وطنيّ، لم تخرج بحصيلة بقاعيّة يُعتدّ بها.

هكذا يرى عبد الوهاب أمهز، وجيه آل أمهز، أنّها "على عكس ما يشاع"، "أخّرت المنطقة أكثر ممّا أفادتها. فهي دخلت عميقاً في تركيبتها العشائرية وحوّلت زعماءها موظّفين لدى الشعبة الثانية" أو، بالتعبير الدارج، المكتب الثاني. لقد جاء شهاب بوسيط بين الدولة والعشائر هو ضابط الدرك بطرس عبد الساتر الذي عيّنه مستشاراً لشؤون العشائر، كما سلّحها وخصّص لرؤسائها الرواتب ورخّص الأسلحة، فمنحها حكماً خاصّاً صارت بموجبه تحظى بمحكمة مستقلّة ومجلس صلح وسجن يقتصر عليها. ومن

خلال هذه الموارد والامتيازات تمّ، بحسب أمهز، تشجيع السكّان على مغادرة قرى المنطقة والتخلّي عن الزراعة.

وبعد البعلبكيّين سليم حيدر وحبيب مطران، كُرّس في زعامة بعلبك – الهرمل، على نحو حصريّ، الزعيم الهرمليّ صبري حمادة، الذي غدا الرئيس الثابت لمجلس النوّاب، كذلك تصدّر فضل الله دندش بوصفه أبرز رموز التمثيل السياسيّ للعشائر.

لكنّ أخطر ما فعله العهد الشهابيّ، اضطراراً منه إلى إرضاء "الجمهوريّة العربيّة المتّحدة" ورئيسها جمال عبد الناصر، أنّه تقاسم السيادة معهما على البقاع. هكذا، مثلاً، سمّى شبلي العريان نفسه في ١٩٦٠، إبّان ترشّحه عن المقعد الدرزيّ في البقاع الغربيّ، "مرشّح الجمهوريّة العربيّة المتّحدة"، وما لبث العريان أن حلّ نائباً في البرلمان. والسياسة هذه لم تكن بحال استجابة لإجماع شعبيّ. فيذكّرنا، مثلاً، المصوّر الصحافيّ مالك كنعان بأنّ الملك الأردنيّ حسين كانت شعبيّته لدى البعلبكيّين أكبر من شعبيّة عبد الناصر، وهذا فضلاً عن وقوع أجزاء معتبرة من البقاع في متصرفيّة جبل لبنان ودخولها في علاقات حميمة مع موارنة بشرّي وتنّورين وجوارهما.

بطبيعة الحال ارتبطت بعلبك ارتباطاً وثيقاً وتقليديّاً بسوقي حمص ودمشق، لكنّ الشهابيّة أتاحت لها التحوّل بوّابة مشرعة على سوريّة وبوّابة سوريّة مشرعة على لبنان. وكان من يهندس تلك التوازنات ضبّاط الشعبة الثانية الذين تولّوا الصلة المباشرة بالعشائر. وثمّة من يرى في تلك العلاقة المثلّثة الأضلاع بين الدولة اللبنانيّة والعشائر وسوريّة "مدرسة" كان أبرز خرّيجيها اللاحقين اللواء جميل السيّد، الذي تسلّم الأمن العامّ إبّان حكم الرئيس العسكريّ إميل لحّود وفي ذروة عهد الوصاية السوريّة.

حركة الصدر

لم يكن بلا دلالة أن تستهوي مكافحة "الحرمان" التي رفعها السيّد موسى الصدر سكّان منطقة بعلبك. وبالفعل أقيم هناك أوّل المهرجانات الكبرى لزعيم "المحرومين"، وكان ذلك في آذار (مارس) ١٩٧٤، حيث أطلق صرخته الشهيرة عن أنّ "السلاح زينة الرجال".

يومها تبدّى أنّ السلاح، وهو موضوع الافتخار العشائريّ المديد، بات قابلاً لأنّ يصبّ في وجهة أخرى هي الطائفة المحزّبة. ولأجل غرض كهذا، تردّد على بعلبك الإيرانيّ مصطفى شمران الذي غدا لاحقاً وزير دفاع في إيران الجمهوريّة، فتولّى تدريب الشبّان الذين التفّوا حول الصدر على "زينة الرجال".

لقد كرّست حركة الصدر بعض الوقائع الناشئة عن الشهابيّة كما أمعنت في تطبيقها. فقد تعاهدت عشائر الشيعة على الامتناع عن الثأر في ما بينها بموجب "وثيقة دم" وقّعتها بحضّ من الإمام، وكان ذلك إشعاراً ضمنيّاً للسنّة بأنهم سنّة وللمسيحيّين بأنهم مسيحيّون. فالسيّد قال للشيعة بصوت مرتفع: أنتم شيعة، فتزايد انتباه الآخرين إلى ما يدينون به. كذلك اكتسب البعلبكيّون "غير الأصليّين" الوافدون من الأرياف، وأهل القضاء المقيمون خارج المدينة، قوّة واعترافاً غير مسبوقين.

والحال أنّ هؤلاء جعلوا يهبطون بغزارة على المدينة ابتداءً بأواخر الستينات حاملين معهم ما لا عهد لسكان بعلبك به: إحدى العشائر مثلاً، وهي المدعومة من زعيم تقليديّ، أخذ أبناؤها حيّ الشراونة واستوطنوه ثمّ اشتبكوا بالمدفعيّة مع الجيش، وقيل إن التهريب سبّب اندلاع العنف المتبادل. وتدريجاً صارت العشائر جزءاً من حياة المدينة، لكنّها غدت مع حركة الإمام الصدر التي منحتهم الثقة والشكيمة، شوكةً في خاصرتها. والبعلبكيّون تعالوا على الوافدين واتّهموهم بتخريب الذوق العامّ والإخلال بالأعراف وبما تواضعوا عليه جيلاً بعد جيل. أمّا كبرى مشاكل أهل المدينة يومذاك فأن يتقدّم واحد من أبناء العشائر بطلب يد فتاة بعلبكيّة. ذاك أن الرفض عاقبتُه وخيمة لأنّهم يخطفون ويقتلون، فيما القبول عاقبته أوخم تبعاً للمصاهرة نفسها.

وتعاظم بأس أهل الأرياف وتكاثرت أعدادهم، خصوصاً وقد شهدت بعلبك هجرتين في الستينات والسبعينات، واحدة طالت مسيحيّيها والأخرى ضربت آل حيدر الذين رحل معظمهم إلى حيث أقاربهم في بدنايل، وإلى بيروت، بعد نزاع دمويّ انفجر، في ١٩٦١، مع آل ياغي. وتصاعدت الهجرتان سنة بعد سنة، لا سيّما بعد مقتل رئيس البلديّة سهيل حيدر في ١٩٦٧.

صحيح أنّ حرب السنتين بقيت نسبيّاً بعيدة عن بعلبك، إلاّ أن أبناءها الحزبيّين الذين كانوا يقاتلون في بيروت نقلوا بعض حزازات الحرب وانقساماتها إلى مدينتهم.

وفي السنوات التالية، ساهمت الحقب الفلسطينيّة والسوريّة في استقدام مزيد من الأفراد والجماعات إلى مدينة تعاظمت المسافة بينها وبين الدولة، إهمالاً وإنصافاً على السواء.

بدايات سوداء

ليس تاريخ حزب الله في البقاع بسيطاً، ولا هو يقبل التبسيط. فقد وجد الحزب نفسه مدعوّاً إلى التغلّب على مصاعب وتعقيدات كثيرة. فهناك تذليل البنية العشائريّة وإعادة تدويرها، وضبط قيمها، في حزب حديث. وهناك "القضيّة" التي لا بدّ من حمل البقاعيّين على استيرادها واستدخالها، علماً بأنّ الصراع مع إسرائيل، وهو علّة الوجود المعلنة لحزب الله، محصور في الجنوب. وإلى ذلك، ينتصب ضعف الوعي الدينيّ في منطقة كالبقاع حائلاً دون تغلغل حزب دينيّ. وأخيراً، هناك حلّ التناقض مع مصادر العيش البقاعيّ التقليديّة، لا سيّما زراعة المخدّرات ونشاط التهريب الذي ينجرّ عنها.

وغنيّ عن القول إنّ العون الماليّ الإيرانيّ منذ ١٩٨٢ والتحالف السياسيّ والأمنيّ مع النظام السوريّ شكّلا الشرط الشارط لتذليل تلك المعضلات عبر مسيرة طويلة لا تخلو من تعرّج والتواء ومهارة.

لقد نشأت البدايات في مناخ "تصدير الثورة" الإيرانيّة والحرب مع العراق. وبعد لقاء دمشق حول آية الله محتشمي، الذي كان سفيراً لإيران في سوريّة، والذي عُدّ التأسيس غير الرسميّ لحزب الله، شهدت مدينة بعلبك التأسيس الفعليّ في ١٩٨٢. أمّا الاسم الأوّل الذي أبرزه الحزب للعلن، بوصفه ناطقاً باسمه، والذي بات لاحقاً رئيس مجلسه السياسيّ، فكان اسم إبراهيم السيّد من قرية النبي أيلا البقاعيّة.

وسريعاً ما تدفّق الإيرانيّون. فهم، على ما يروي بعلبكيّ سبعينيّ يصنّف نفسه عاشقاً للمدينة قبل أن يفد الحزب إليها، "بدأوا يظهرون عندنا، وقد قُدّر عددهم بـ٥٠٠ نفر، عاملين على فصلنا عن زحلة المسيحيّة التي كانت دائماً رئة نتنفّس منها. لقد ملأ الإيرانيّون الدنيا ضجيجاً عن الوحدة الإسلاميّة الجامعة، لكنّ زحلة التي لا تبعد أكثر من ٤٥ كيلومتراً باتت بعيدةً كثيراً".

كيف أسّسوا ما أسّسوه؟

في البداية كان الاسم الغالب الذي اعتمدوه "الحرس الثوريّ" وشعارهم "حزب الله هم الغالبون". وبسرعة تناموا وظهروا منظّمين تنظيماً فاجأ الناس، فأنشأوا مستشفى ميدانيّاً وصار لديهم مركز، وكسوا الحيطان شعارات عن القدس والحسين والدم. لقد عرفوا كيف يخاطبون بعض الفقراء والأمّيّين، لكنْ أيضاً أشخاصاً من متوسّطي الحال الذين شرعت أوضاعهم تتدهور. كذلك دفعوا ما بين مئة ومئة وخمسين دولاراً لأهل الفتاة التي تتحجّب، وسط انهيار كان يضرب الاقتصاد والعملة اللبنانيّين، فضلاً عن توفير خدمات لم تعد توفّرها دولة غائبة: "مثلاً"، كما تمضي الرواية، "نحن لم نكن ندري من أين يأتون في مواسم الثلج بكلّ هذا المازوت يوزّعونه على الناس بأرخص سعر ممكن. وفضلاً عن المستشفى، أعطوا منحاً لدراسة الطبّ في إيران وأنشأوا صيدليّة تعاونيّة توفّر الدواء بمقابل زهيد".

بعد ذاك راحوا يضايقون الذين يشربون، ففجّروا المحال التي تبيع الخمور حتّى منعوها عمليّاً، بل تعرض مطعم أو مطعمان للقصف، كما قُتل علي الرفاعي ونبيه حيدر الذي اتُّهم ببيع البيرة، فتسبّب مصرعه في تعاظم نزوح الحيادرة. والبيوت أخافوا أصحابها وسجنوا وعذّبوا من يشربون من أهلها. وكم كان كبيراً خوف الفتاة التي تذهب إلى رأس العين فتقرأ الآية عن "حفظ الفروج" التي كتبوها في مكان متصدّر وبحرف كبير. وهم لم يكتفوا بهذا، فرشّوا الأسيد على البنات اللواتي يتمسّكن بالطريقة التي كانت مألوفة في الملبس والمظهر.

وهذا جاء مصحوباً بهجمة الريف على المدينة، فضلاً عن هجمة إيران على لبنان، بعد هجمتي المقاومة الفلسطينيّة والجيش السوريّ.

وبسبب الإيرانيّين بات السنّة يتحاشون الظهور خوفاً أو احتجاجاً، وكان المسيحيّون بدورهم قد اختفوا من المشهد العامّ. ففندق الخوّام، القديم والعريق، الذي هو غابة سرو وصنوبر، جعله الإيرانيّون مركزاً لهم. أمّا مرجة رأس العين التي كانت متنزهاً و"سيراناً"، فباتت مسجداً وصلاة لا تنقطع.

لقد تغيّرت المدينة وجدرانها وفضاؤها كما لو أنّ انقلاباً أطاح كلّ شيء. فقد فجّروا تمثال جمال عبد الناصر الذي أقيم في ١٩٧٣ في مدخل بعلبك، واضعين مكانه تمثالاً

للخميني ومُجسّماً لمسجد الصخرة. لكنّهم مدّوا أيديهم إلى ما هو أبعد أثراً من الزعيم المصريّ، فتدخّلوا في العادات وطرق الحياة: مُنعت الأعراس، مثلاً، وألقيت قنبلة على بيت واحدة عُزفت الموسيقى خلال عرسها. ذاك أنّ الاحتفال، بعد مجيئهم، بات يقتصر على التلاوات الدينيّة وحدها بذريعة أنّ "البلد محزون" على آل البيت.

حتّى عاشوراء تغيّرت كثيراً. فقد كانت قديماً مجالسَ تعزية تنعقد في الحسينيّة مساءً حيث تُروى سيرة الحسين، وفي البيوت تلتقي النساء للبكاء عليه وهنّ يشربن القرفة والشاي، فيما واحدة منهنّ تقرأ السيرة. وبدورهم كان الوجهاء يحتفلون بطريقتهم، فيتجمّع أنصارهم ومؤيّدوهم في بيوتهم الواسعة وتُقدّم اليهم صحون الأرزّ بالحليب. وفي اليوم العاشر، آخر أيّام عاشوراء، كان يؤتى إلى الحسينيّة بشيخ جميل الصوت قادر على الإبكاء، بينما تُغلق الأسواق ويتجمّع الناس لحضور الفلّة. و لم يكن اللطم معهوداً، فكان أهل المدينة ينصحون من يحبّ الدم بالتوجّه إلى النبطيّة، على أن يُترك لبعلبك الاحتفال.

عاشوراء التي استجدّت اختلفت عن سابقاتها. لقد نقلوها من الحسينيّة الواقعة في وسط المدينة إلى "الجامع الخربان" في مرجة رأس العين، وهو مسجد أثريّ طالما أُهمل وتُرك. وغدا عناصر حزب الله المدجّجون بالسلاح، والذين يعصبون جباههم، يقودون جموع المتظاهرين ويتقدّمونهم على ظهور أحصنتهم، بينما تسير سيّارات الإسعاف وراءهم لتنقل الجرحى والمصابين إلى المستشفيات. وبين الفرسان والإسعاف كانت تكتظّ حشودٌ من اللاطمين رؤوسَهم ووجوهَهم بالخناجر والسكاكين والحديد. القمصان كانت تنشطر وتتمزّق، والدم يسطع، والأجساد تتساقط على الأرض.

يا ألّوو

والحياة كلّها أصبحت هكذا باسم مقاتلة إسرائيل. كانوا يمرّون صباحاً هاتفين لاطمين على صدورهم: "لا إله إلاّ الله/ خميني حبيب الله/ إسرائيل عدوّ الله"، إذّاك يرى فيهم أهل بعلبك اعتداءً على سكينتهم وعاديّة حياتهم، وهم يرون في هدوء البعلبكيّين وبرودتهم احتجاجاً على هياجهم.

وكان للمؤثّرات الشعوريّة التي تنجم عن مثل هذه العراضات قوّة الرعب تبعثه في

نفوس السنّة أكثر ممّا كانت تخيف الشيعة الذين يملكون فكرة ما، ولو في الحدّ الأدنى، عن التقاليد الإيرانيّة. فالأخيرة استحكمت في بعلبك إلى أن غلبت، حتى إنّ شبّاناً لبنانيين في حزب الله شرعوا يقلّدون اللفظ الإيرانيّ فيقولون "يا ألّـوو"، ويقصدون "يا الله". وهذا كلّه من غير أن يُرى إيرانيّون في ظاهر المدينة. فالذين في الواجهة صبيةٌ أغلبهم من جوارها، وقلّة منهم من عائلاتها الصغيرة العدد، أو الأجباب الفقيرة والقليلة التعلّم في عائلاتها الأكبر.

وفيما شرع أهل بعلبك يتحدّثون عن وجود مخطوفين أجانب في ثكنة الشيخ عبدالله، تعرّضت القوّات السوريّة وحزب الله لهجمات كان أخطرها متفجّرة بعلبك التي قُتل فيها عشرات الأشخاص. واعتبر الحزب الأمر تحدّياً لهيبته وجدارته في الإمساك بأمن المدينة. وبدورهم فالجنود السوريّون الذين يعرفون أنّهم غير مرحّب بهم، استشاطوا غضباً. فالانفجار الذي وقع في السوق، قريباً من مقرّهم، وكانوا هم المستهدَفين به أصلاً، أودى ببعض عسكريّيهم. وراحت قوّات الردع السوريّة وقوّات الحزب تطارد شبّاناً من بعلبك بوصفهم عرفاتيّين ومتعاملين مع حزب الكتائب ومع الجيش والشعبة الثانية اللبنانيّين دفعة واحدة. ومن هؤلاء الشبّان مات تحت التعذيب من مات وجُنّ من جُنّ وهرب من هرب.

هذه البدايات السوداء ارتبطت بكون أحد البقاعيّين، ابن بريتال الشيخ صبحي الطفيلي، الرجل الأوّل في حزب الله. وهو بالفعل ما لبث أن نُصّب في ١٩٨٨–٨٩ أوّل أمين عامّ له. والحال أنّ هذا ليس بتفصيل، إذ يومها لم يكن في وسع شيخ "غريب"، من الجنوب مثلاً، أن يُنزل تلك المعاناة بأبناء منطقة فخورة معتدّة بذاتها. كان يلزم لذلك "واحد منّا".

تنفيعات لا مشاريع

مذّاك تغيّرت أشياء كثيرة، منها اكتشاف الحزب تعقيدات المجتمع الذي يريد سوسه والسيطرة عليه. بيد أنّ نوازع السيطرة نفسها لم تتغيّر. أمّا بيئة الحزب ومحازبيه فلم تكفّ عن اكتشاف الفضائل التي ينضح بها.

فحين نسأل بسّام رعد مثلاً عمّا يشدّ أهل بعلبك اليوم إلى حزب الله، يشير إلى أنّ عقيدتنا "أن نكون مع المظلوم ونكره الظلم"، ولا ينسى الحديث عن الحرمان وإهمال الدولة التي ورثها الحزب خدمياً ووظيفياً. "فأوّلاً في الشتاء، يقدّم المازوت للفقراء ويشقّ الطرقات في الثلج فلا تبقى القرى معزولة. وقد بنى مستشفيات وعيادات تخصصيّة، المعاينة فيها بـ٥ آلاف ليرة، وتعاونيّات استهلاكيّة، وقدّم مساعدات تربويّة عبر مؤسّسات التعبئة الرياضيّة والتعبئة التربويّة. وفي التنمية سهّل الحزب عمل البلديّات التي جعلت تبني الشراكات مع الجهات المانحة، خصوصاً الكويت وإيران وإيطاليا، كما أقامت توأمة مع بلديّة في فرنسا. كذلك سهّل صرف الأموال لتنفيذ المشاريع، أمّا الوحيدون الذين منعنا الحزب من التعاطي معهم فهم الأميركيّون والبريطانيّون".

ويمضي رئيس البلديّة السابق: "لكن الأهمّ أنّ الحزب قدّم شهداء وجرحى".

وحين نصل إلى إدارة الحياة السياسيّة في بعلبك، يخبرنا رعد مستخدماً بقايا رطانة يساريّة "إنّنا نسمّي العائلات بالإقطاع السياسيّ، وهم أداروا المنطقة بزعامات شخصيّة وعملوا لمصالح فئويّة وللمحسوبين عليهم ضمن دوائر ضيّقة. أمّا حزب الله فشمل الجميع، خصوصاً العائلات الفقيرة بمن فيهم سنّة أفادوا من تقديماته، ويحظون بمساعدات كالتي يحظى بها الشيعة. صحيح أنّ الحزب لم يذهب إلى من لم يأت إليه إلاّ أنّه لم يردّ سائلاً".

وهذا، كما يشرح أكثر من بعلبكيّ متحفّظ على حزب الله، امتداد للطريقة نفسها التي كان يمارسها الزعماء التقليديّون، بحيث تُقدّم للجمهور منافع وخدمات زبائنيّة من دون أن تقام مشاريع تنمويّة يستغني بها الناس عن طلب التنفيعات ومن دون أن يغادروا عوزهم الذي يحوجهم إلى الحزب. ويعلّق عبد الوهاب أمهز: "نعم، الحزب يعطي معاشات ومناصب، لكنْ ما من أحد يفلح الأرض أو يزرعها اليوم، وهناك مشاريع في شأن بعلبك متوقّفة منذ عقود، إلاّ أنّ تحريكها وإحياءها آخر همّ النوّاب الحزبيّين".

لكنّ حزب الله الذي حلّ محلّ الزعيم التقليديّ، أحلّ التفكير والتخطيط محلّ الاعتباطيّة التي عُرف بها ذاك الزعيم. فهو، في البقاع كما في الجنوب، اتّبع نهجاً من شقّين: من ناحية، قوّى الأرياف والقرى الصغرى في مواجهة المدن، ومن جهة أخرى، دعم الفروع الأضعف والأشدّ تهميشاً في العشائر والعائلات الكبرى فاخترقها

عبر أجبابها الدنيا. هكذا لم تظهر له رموز قياديّة في مدينة بعلبك باستثناء محمّد ياغي، مسؤول منطقة البقاع والنائب في دورتي ١٩٩٢ و٢٠٠٠ الذي يصدر عن واحد من تلك الأجباب المستضعفة. أمّا النوّاب الحاليّون الأربعة لحزب الله عن بعلبك – الهرمل، فيعود اثنان منهم، هما حسين الحاج حسن وحسين الموسوي، إلى النبي شيت، فيما يعود نوّار الساحلي إلى الهرمل، وعلي المقداد إلى مقنة. وبدوره، فإنّ عضو مجلس شورى حزب الله الشيخ محمّد يزبك، الذي هو مرجعه الأبرز في البقاع، ينتمي إلى نحلة ويقيم في بوداي.

ويبدو أنّ نسبة الحزبيّين من عائلات المدينة ضئيلة جدّاً. فمسؤول العمل البلديّ في الحزب، حسين علي النمر، من خارج المدينة، وكذلك مسؤول التعبئة التربويّة، حسين عبد الكريم النمر. وهذا معنى الإشارة المتكرّرة إلى عائلة بلوق الصغرى التي يكثر فيها المنتسبون إليه. لكنْ نظراً إلى ضعف الانتساب يشعر البعلبكيّون "الأصليّون" بعجزهم عن التأثير في الحزب وفي قراراته المتعلّقة بهم. ويصل الأمر ببعلبكيّين إلى الحديث عن "إفقار بعلبك وإغناء ما حولها عبر سياسة الخدمات". فالطرقات خارج المدينة، مثلاً، أفضل كثيراً من طرقاتها.

ويضيف ناقد للحزب، واصفاً تغلغله في المدينة، بأنّه يحاكي ما اتّبعه جهازا المخابرات اللبنانيّة ثمّ السوريّة حين عوّلا على مَهيضي الجناح فأكسباهم من القوّة والنفوذ ما يثبّتهم في الصدارة الاجتماعيّة.

الوعي المستجدّ

والحال أنّ الأمن السوريّ كان قدّم أكثر من نموذج على كسر شوكة العائلات والعشائر معاً، قبل ترميمها على نحو يلائمه. فجنوده حين دخلوا، حلقوا نصف شارب أحد زعماء العشائر، وأطلقوا قذيفة على عرس في أحد بيوت آل شمص، ومعروفةٌ قصّة السجن المديد الذي استحقّه النائب السابق يحيى شمص بعد خطاب شهير ألقاه في البرلمان.

وقد استفاد حزب الله ممّا فعله السوريّون الذين باتت لهم اليد العليا، استفادته من بعض التمدين الذي حقّقته المناطق جميعاً. فهو غالباً ما تلاعب على تناقضات العشائر

في ما بينها، كما انتزع منها بعض الوظائف التي كان يؤدّيها زعماؤهم. ويروي أمهز أنّ هؤلاء الأخيرين كانوا "يدخلون في تفاصيل الحياة اليوميّة وتتمّ استشارتهم في أمور كبيرة وصغيرة، كتزويج الأبناء والبنات، أمّا اليوم فهذا كلّه تغير". وذلك فضلاً عن الثارات والدّية التي حافظ عليها الحزب بعدما نزع عنها أصولها وأعرافها الداخليّة، مثلما حلّ محلّ المحاكم، خصوصاً في المصالحات العديدة التي يُجريها سنويّاً.

لقد نفّذ الحزب، بلغة أخرى، ثورة جذريّة جدّاً في حدود تغييرها للطرف القائد، إلاّ أنّها محافظة جدّاً في حدود إبقائها على العلاقات نفسها.

وإذا كانت العشائر والعائلات قد أسلمت الكثير من مصادر قوّتها له، فإنّ بعض زعمائها وجد الملجأ في "حركة أمل" ذات القوّة المحدودة في البقاع.

ذاك أنّ الحزب، تبعاً لتكوينه الدينيّ، كان الأقدر على وراثة التركة الدينيّة في ميراث موسى الصدر. وقد كان الإشعار المبكر بهذا التحوّل انشقاق حسين الموسوي عن "حركة أمل" في ١٩٨٢ وإنشاءه "أمل الإسلاميّة" التي ما لبثت أن انضوت في حزب الله. وفي هذه الحدود التي استفحلت لاحقاً، وُظّف الدين والتديّن أداةً أخرى في تفكيك العائلات والعشائر وفي إعمال الفرز بين صالحيها وطالحيها.

وبحسب دريد ياغي، نجح الحزب، باستخدامه للمقدّس، في ما لم تنجح فيه أحزاب "الحركة الوطنيّة" والمتعلّمون والموظّفون التحديثيّون على مدى عقود، علماً بأنّ هؤلاء لم يضعوا نصب أعينهم تفكيك العائلات والعشائر بالمعنى الصارم الذي قصده حزب الله.

فتغلغل الحزب اختلف، في منطقة بعلبك، عن تغلغل أجهزة الاستخبارات في أنّه نشر بين محازبيه وعياً دينيّاً لم يكن معهوداً هناك، فيما أعاد تدوير قيم الرجولة والثأر العشائريّة فصبّها في "قضيّة" غير مسبوقة هي الأخرى، يلخّصها اليوم "الشهيد" و"الشهادة".

ذاك أنّ بعلبك غير متديّنة تقليديّاً، وقد عاشت طويلاً على مسجد وحيد وعلى شيخ جاء من الجنوب هو الشيخ حبيب آل إبراهيم. وآل إبراهيم لم يكن "مثل شيوخ اليوم"، إذ اضطرّ لتدبير معيشته إلى أن يقتني محلاً لبيع موادّ البناء، وكان معتدلاً يشارك المسيحيّين أعيادهم. كذلك كان في الهرمل شيخ واحد جنوبيّ هو موسى شرارة، بينما الجامع المقام في قرية نيحا، مثلاً، لم تُبنَ له مئذنة إلاّ مؤخّراً. ولئن عُرفت عائلة مرتضى بأنّها عائلة "سيّاد"، فإنّ أبناءها نادراً ما أقبلوا على المشيخة. ذاك أنّنا، كما يقول بعلبكيّ، "لم نكن

نعرف ما هي الحوزات التي راحوا يبنونها، وفي إحداها قُتل النائب الشيخ خضر طليس في الاشتباكات التي اندلعت بين الحزب وجماعة الطفيلي".

ويُلاحَظ، هنا أيضاً، أنّ أكثر المشايخ الجدد الذين استنبتهم حزب الله هم من القرى ومن ضواحي بيروت، كذلك توزّع على القرى أكثر الحسينيّات الكثيرة التي أقيمت. لكنْ فيما يتمتّع الشيخ الحزبيّ بامتيازات النفوذ الاجتماعيّ والسيّارة، وأحياناً المرافقين، فإنّ الشيخ غير الحزبيّ يبقى فقيراً وهامشيّاً.

لقد أدّت ثلاثون سنة من غسل الأدمغة وظيفتها. ولمّا كان البقاعيّون في عمومهم أقلّ تعلّماً وأقلّ تسيّساً من الجنوبيّين، بدا إقبالهم على الحزب كمثل الإقبال على تجربة أولى، بحيث يكثر التسليم ويكاد يضمحلّ النقد، فلا تبقى عن حزب الله، في رواية المحازبين، إلاّ صفحة ناصعة البياض.

العثور على "القضيّة"

على الطريق الموصلة إلى بعلبك، وفي رأس العين، وفي كلّ مكان، تتكاثر صور الشبّان الذين قُتلوا في سوريّة. لا بل هناك ملصق يحمل عنوان "ذكرى أسبوع الشهداء الأطهار" يضمّ صوراً لعشرة شبّان قضوا في يوم واحد.

فسياسة حزب الله إنّما بلغت ذروتها في الانخراط الحربيّ في القصير، وما رافقه من أحداث قتل وخطف بين عشائر بقاعيّة وعناصر من "الجيش السوريّ الحرّ"، في سوريّة كما في لبنان، ومع بعض أهل عرسال المجاورة.

لكنّ الرواية السائدة التي يتبنّاها الصحافيّ الزميل حكمت شريف لا تخلو من حماسة لتلك الحرب. فهناك، في القصير وحمص، "تكفيريّون يريدون إفراغ المنطقة من الأقلّيّات، وينوون إسقاط حزب الله بعد توهّمهم إسقاط النظام السوريّ". وهذا إنّما يرقى إلى "خطّة دوليّة لخدمة إسرائيل". وطبعاً هناك حجج إضافيّة من نوع أنّ "التكفيريّين" ذبحوا عائلات شيعيّة، ومن أنّ الشيعة يدافعون عن أنفسهم لا عن النظام السوريّ.

ويشرح لنا بسّام رعد أنّ القصير خطّ إمداد رئيسيّ للحزب "في كلّ شيء"، ولا يمكن تالياً "إلاّ الدفاع عنه". وهو يذهب إلى تشبيه معركتها بستالينغراد، مؤكّداً الوحدة

بين هذه الحرب والحرب في الجنوب ضدّ الإسرائيليّين، ولو اختلفت الأدوات: "فهم لم يقدروا علينا في الجنوب فجاؤونا من الشمال".

ويتّفق محدّثانا، رعد وشريف، على أنّ المسألة مختلفة بالنسبة إلى ابن البقاع عنها للجنوبيّ. فيجزم الثاني بأنّ البقاعيّين من "شهداء الحزب" في سوريّة يفوق عددهم كثيراً عدد الجنوبيّين تبعاً لمتانة الصلة الجغرافيّة ومباشرتها.

وبالفعل فمن يستمع إلى حجج البعلبكيّين المدافعة عن سياسة حزب الله السوريّة، لا يفوته أنّهم أشدّ تصلّباً من الحزب نفسه، وأنّهم يتقدّمونه خطوة على الطريق التي رسمها لهم.

فالحزب، بحسب شريف، "لم يجد أيّة حاجة إلى التعبئة من أجل القتال هناك. لقد شُكّلت لجان الدفاع عن قرى القصير التي راح الشباب ينتسبون إليها من تلقائهم، فيما شكّل البقاعيّون ٩٠ في المئة من المقاتلين. وإنّما بسبب الاندفاعة هذه، خسر الحزب في الفترة الأولى كثيراً من الشبّان لأنّهم لم يكونوا مدرّبين أو من نخبة مقاتليه".

ويتبدّى، في ما تحت الكلام، كأنّ بقاعيّي الحزب وجدوا في حرب سوريّة "قضيّتهم" الأثيرة قياساً بـ"قضيّة الجنوبيّين" المعلنة التي هي "مقاومة إسرائيل". وربّما عزّز هذا الميلَ في منطقة مُفقرة تمّ تجفيف مواردها، أنّ الحروب مع إسرائيل كانت مربحة في الجنوب الذي تدفّقت عليه أموال المهاجر ومعونات الدول العربيّة والإسلاميّة.

جنوبيّ وبقاعيّ

وعلى العموم، يذكّر ذاك التباهي البقاعيّ على الجنوبيّين بالتكهّنات والتقديرات التي انتشرت في التسعينات، مع انشقاق صبحي الطفيلي عن حزب الله، حول منافسة جنوبيّة – بقاعيّة داخل الحزب نفسه. فشريف قاطعٌ في "أنّنا نحن مؤسّسو حزب الله"، وحين نقول له إنّ بين الجنوبيّين من يتململ من سياسة الحزب السوريّة، يجزم بأنّ ما من تململ بتاتاً في البقاع. لقد سقط في القصير، على ما يروي رعد، ثلاثة شبّان من عائلته خلال أربعة أيّام، لكنّ أهلهم باركوا ذلك.

ولئن اصطفّت صور كثيرة لحسن نصرالله وموسى الصدر في بعلبك وجوارها، وهما

الرمزان الرسميّان بمعنى ما، بقي أنّ تفاصيل صغيرة تشي بهذا الانتفاخ الجهويّ، ككثرة صور عبّاس الموسوي البقاعيّ مقابل قلّة صور عماد مغنيّة الجنوبيّ الذي يهيمن على الغادجيت ذي المصدر المركزيّ.

والحال أنّ رصد قوّة حزب الله في السنوات الأخيرة يشير إلى أنّ حرب تموز ٢٠٠٦، وليس تحرير الـ٢٠٠٠، هي التي جعلته الطرف الأقوى بلا منازع في بعلبك. ذاك أنّ التحرير كان حدثاً جنوبيّاً هلّل له البقاعيّون من بعيد، فيما الحرب شملت بعلبك نفسها بالضربات الإسرائيليّة المتكرّرة، بحيث استُهدفت بـ٢٠٠ غارة ودُمّرت ٤٠ وحدة سكنيّة فيها دماراً كليّاً.

لكنْ أليس من أكلاف قد يتكبّدها بقاعيّو حزب الله، بسبب هذا التورّط، ويجرّون إليها عموم البقاع ولبنان، حين يسقط النظام السوريّ؟

تبلغ الحماسة بحكمت شريف حدّ الجزم باستحالة الاحتمال هذا. ذاك أنّ بشّار الأسد سيبقى في سدّة الرئاسة حتّى ٢٠٢٨، "ريثما يكبر حافظ بشّار الأسد ويتسلّم الحكم".

وماذا عن العلاقات الأهليّة بين السنّة والشيعة في بعلبك، وبين بعلبك التي يشكّل الشيعة ثلثي سكّانها وعرسال السنّيّة؟

يعترف بسّام رعد، الذي يؤكّد على تفاؤله بمستقبل العلاقات بين الطوائف، بأنّ السنّة البعلبكيّين "مع أنّهم لم يكونوا يوماً متشدّدين أو تكفيريّين، باتوا يميلون إلى جوّ عامّ أنشأ حاجزاً مع الآخر". أمّا شريف فيبدي، بدوره، تفاؤله بالوضع الأمنيّ "الممسوك"، وإن وُجد "بعض الحذر من اللاجئين السوريّين". ذاك أنّ هؤلاء الأخيرين، وبحسب مصادر عدّة، يتعرّضون اليوم لحملات دهم وتوقيف بحجّة مصادرة السلاح منهم، فيما يردّد المقرّبون من حزب الله أنّ المعارضين السوريّين ينشئون معسكرات تدريب في عرسال التي تنهال عليها النعوت المريبة. فالعراسلة، تبعاً لهذه الرواية، هم مَن جعلتهم الثورة السوريّة تجّار سلاح وحماةً للإرهاب، فضلاً عن احتضانهم سوقاً حرّة، هي طبعاً غير شرعيّة، في بؤرة سرجل.

لكنّ التقديرات تذهب إلى وجود أكثر من مئة وخمسين ألف لاجئ سوريّ في البقاع، ثلثهم في بعلبك وجوارها وثلثاهم في عرسال ونطاقها. وهذا رقم يصعب الافتراض أنّه سيمكث طويلاً في عطالة سياسيّة وعسكريّة!

بعلبك السنّيّة والمسيحيّة

غنيّ عن القول إنّ العلاقات الطائفيّة والمذهبيّة تتغذّى اليوم على الأزمة السوريّة، حيث يُقدّر للانخراط فيها أن يضاعف تعقيد الروابط المعقّدة أصلاً، ولو مضى ذلك من دون تصريح، بين الشيعة والسنّة.

فظاهريّاً يبدو أنّ الأمور مستتبّة على حصص مستقرّة وحدود معروفة. فالسنّة، ولديهم مفتيّهم، يسمّون نائب رئيس البلديّة، ويحظون بسبعة أعضاء من أعضائها الـ٢١ فيما يحظى المسيحيّون بعضو واحد. والمعروف أنّ مقترعي السنّة في المدينة نفسها يبلغون عشرة آلاف، فيما يرتفع عددهم في بعلبك – الهرمل إلى أربعين ألفاً قياساً بـ١٦٠ ألف صوت شيعيّ في المحافظة منهم ٢١ ألفاً في المدينة. وهم يحتلّون مواقع تمتدّ من الإمساك، إلى جانب الكاثوليك، بالمقاليد التجاريّة والتعليم، إلى العمل في المهن البسيطة كالأفران والملاحم والحدادة جنباً إلى جنب القليل من الفلاحة والرعي.

لكنّ شيئاً من مرارة التاريخ نابض في الشعور الراهن بالحصار. فمنذ بدايات القرن العشرين بدأ الشيعة يتحوّلون أكثريّة عدديّة في بعلبك ليصيروا، بعد الاستقلال، أصحاب النفوذ والزعامة. وهي علاقة مزدوجة دائماً: فالسنّة أقلقتهم الهجرة المتواصلة من الأرياف التي تقلّل عددهم وتُضعف شوكتهم بعدما كانوا الأكثريّة، إلاّ أنّ تجّارهم يعتمدون على المتسوّقين من الأطراف. وقد تبادل الطرفان، وما زالا يتبادلان، بيع الأراضي والعقارات، كما اختلط الزواج بينهما واتّسعت لهما حارات وأحياء مشتركة، كالقلعة والشيّآن. غير أنّ أغلب السنّة (عائلات الرفاعي وصُلح ورعد وعثمان والجمّال...) يعيشون في أحياء وحارات يتسمّى معظمها باسم تلك العائلات. ولا يخلو الأمر من نزاعات قديمة ولو بدت ضامرة، كحال "الجامع الخربان" المملوكيّ في رأس العين المتنازع عليه، إذ يعتبره السنّة وقفاً سنّيّاً وتقول بيئة حزب الله المتّسعة إنّه يضمّ رأس الحسين بن عليّ.

ويعيد أحمد الغزّ مطالع التوتّر المعلن إلى ١٩٨٠، إبّان تشييع نقيب الصحافة الذي اغتيل عامذاك، رياض طه. فقد وقع اشتباك بين حركة أمل، وهي في بداياتها، وبين حزب البعث و"جبهة التحرير العربيّة" المدعومة من العراق، اللذين انتسب إليهما بعض الشبّان السنّة.

قبل هذا، كان لظاهرة التهميش السياسيّ وذاكرتها أن شكّلتا خلفيّة قائمة: فحتّى ١٩٦٠، لم يكن للسنّة نائب عن بعلبك –الهرمل، وفي ١٩٦٤ رشّح فؤاد شهاب رئيس الحكومة اللاحق تقيّ الدين الصلح، البيروتيّ الصيداويّ الأصول، عن ذاك المقعد، ففاز بأصوات العشائر الشيعيّة خارج المدينة.

واستمرّ طويلاً شعور سنّة بعلبك بالبُعد عن المركز، خصوصاً أنّ البيروتيّين الذين انشدّوا إلى إقليم الخرّوب القريب جغرافيّاً أو تملّكوا في البقاع الغربيّ، لم ينجذبوا إلى البقاع الشماليّ.

وهو وضع لم يتغيّر إلاّ جزئيّاً مع الحريريّة التي اهتمّت بالتعليم وشملتهم باهتمامها، فأحسّوا بأنّهم باتوا جزءاً موصولاً بالمركزيّة السنّيّة. مع هذا، لم يظهر وجه قياديّ بارز هناك، حريريّ أو غير حريريّ، بعد النائب حسن الرفاعي. وهذا جميعه ما يفسّر الانفجار العاطفيّ اللاحق حيال الثورة السوريّة، سيّما أنّ سنوات الوصاية التي تُوّجت بمقتل رفيق الحريري وقعت عليهم وقع المعاناة المتّصلة. يعزّز هذا واقعُ الصلات المتينة، تجاريّاً وقرابيّاً، بين سنّة بعلبك وسنّة عرسال، الشيء الذي يصحّ خصوصاً في آل صُلح، العائلة السنّيّة الثانية عدداً بعد الرفاعي.

لكنْ على عكس السنّة، هاجر المسيحيّون على دفعات من بعلبك، والذين لم ينزحوا مارسوا ما يشبه الاستقالة من الواجبات العامّة والانكفاء على "حارة المسيحيّين" التي تضمّ مَن تبقّى منهم.

ويصلح انكماش وزن المسيحيّين موضوعاً لأعمال الأدب والسينما التي تدور حول النوستالجيا. فهم، بحسب قيد النفوس، لا يزالون ثلث السكّان، إلاّ أنّهم عمليّاً قرابة ٥ في المئة منهم. أمّا في المحافظة ككلّ فتقلّ أصواتهم عن ـ٢٥ ألف صوت أكثرهم كاثوليك، يليهم الموارنة فالأرثوذكس، إلاّ أنّ قلّة منهم هم الذين يصوّتون. هكذا نجد أنّ ممثّلهم الكاثوليكيّ في البرلمان (مروان فارس) عضو قياديّ في "الحزب السوريّ القوميّ الاجتماعيّ"، فيما ممثّلهم المارونيّ (إميل رحمة) منشقّ عن القوّات اللبنانيّة، تحوّل بعد انشقاقه واحداً من أصدقاء السياسة السوريّة في لبنان.

لقد ارتبط الوجود المسيحيّ بأسماء كخليل مطران، "شاعر القطرين" الذي عُدّ واحداً ممّن مهّدوا للحداثة الأدبيّة، وبأمكنة كفندق بالميرا الشهير قبل أن يبيعه أصحابه

من آل ألّوف. ويعدّد السفير السابق جهاد مرتضى السينمات التي كانت قائمة في حارة المسيحيّين كـ"أمبير" و"روكسي". أمّا في السياسة، فيذكّرنا بأنّ هنري فرعون اختار أن يبني زعامته بين مسيحيّي بعلبك وعائلاتهم (مطران وفريحة وسركيس وشاميّة وأبو ناضر...) قبل أن يبرز حبيب مطران. والحال أنّ وجوهاً كفرعون ومطران كانوا، في زمن الرجحان المسيحيّ قبل ١٩٧٥، يمعنون في ربط البقاع بالجبل وبالسياسات الوطنيّة عموماً، ما كان يؤسّس وزناً يعادل الانشداد البقاعيّ إلى سوريّة ويوازنه.

لكنْ مع حرب السنتين، شرعت الأمور تتغيّر. فقد افتُتحت تلك الحرب بهجوم على قرية القاع المسيحيّة في البقاع، وبدأت أعداد من المسيحيّين تغادر منطقتها. ذاك أنّ سقوط مقاتلين حزبيّين من أبناء بعلبك في مجابهات بيروت، كان يوتّر الأجواء ضدّ المسيحيّين، سيّما أنّ بعض شبّانهم كانوا قد انتسبوا إلى أحزاب مسيحيّة مقاتلة.

أمّا في أوائل الثمانينات، مع ولادة حزب الله وانفجار التديّن والأسلمة، فتنامت حركة النزوح عن بعلبك كما تنامى بيع الأراضي التي يملكها مسيحيّون.

"وعندما خسرتهم المدينة – على ما يقول جابر الرفاعي، رئيس الدائرة التربوية في بعلبك – خسرت نكهتها السياحيّة وشيئاً أساسيّاً من روحها".

الأخلاق "القويمة"

ليس من الصعب اكتشاف أنّ الروح التي ينعى الرفاعي خسارتها هي ممّا لا يستسيغه حزب الله المعنيّ ببناء مجتمعه المضادّ ذي اللون الواحد والأخلاق "القويمة".

وهناك، في بعلبك، تتقاطع القيم والأخلاق عند زراعة المخدّرات وتجارتها، ما يستدعي تطوير سياسة واضحة حيال مسألة قاهرة كهذه. فقد سبق أن نشأ مطار صغير خاصّ بالتجارة تلك، كما عرفت المنطقة طويلاً التداول بسلّة عملات دوليّة.

لكنْ في تعاطيه مع المشكلة اتّبع الحزب سياسة يمكن وصفها بالبراغماتيّة، مع دوام التحريم لتعاطي المخدّرات على محازبيه. ففي بعلبك هناك من يقدّم الأمثلة على تشجيعه المخدّرات، ومن يقدّم الأمثلة المضادّة على مكافحته إيّاها. ويبدو، في نظرة إجماليّة، أنّ الحزب تشدّد في أحيان وتراخى في أخرى: فقد تشدّد في البداية، أوائل التسعينات،

حين أراد باسل الأسد تقديم نفسه للغرب وجهاً شابّاً وخلفاً لوالده، ينضبط بالإجماعات الدوليّة، كما تشدّد مجدّداً ليمكّن قبضته بوصفه ربّ العمل الأوّل، لا ينافسه على ذلك مصدر رزق آخر. هكذا، وكما يقول مالك كنعان، "رفعوا الغطاء عن الحشيشة وتركوا الدرك يتصرّف". غير أنّ الحزب تراخى في أحيان أحسّ معها أنّ الأزمة المعيشيّة صارت أكبر من قدرته على احتوائها، خصوصاً مع تردّي السياحة والاصطياف وفي ظلّ الأوضاع الاقتصاديّة المستجدّة في إيران بسبب العقوبات الغربيّة. وهناك أكثر من إشارة إلى أنّ التراخي هو السياسة المتّبعة اليوم، خصوصاً أنّ الحزب منهمك في القتال السوريّ الذي تصبّ معظم موارده فيه فيما المزارعون مستفيدون من انشغاله عنهم بالهمّ السوريّ. هكذا يرجّح بعلبكيّون ألاّ يُتلف الموسم هذا العام بحيث يُمنح الناس فرصة للتنفيس عن أوضاع ضاغطة.

ولا يختلف الموقف من الخمور كثيراً. فمؤيّدو الحزب يزعمون أنّه لا يتدخّل بتاتاً، وأنّ في وسع أيّ كان أن يشتري الخمور من الدكاكين أو يطلبها في المطاعم. أمّا الرادع فليس سوى انتشار ثقافة دينيّة تحضّ على مقاطعتها وتجعل من يبيعها عرضة لانفضاض الزبائن عنه.

وهذه رواية تجافي الحقيقة قليلاً، فضلاً عن تجهيلها الطرف الذي نشر تلك الثقافة الدينيّة. فبحسب جابر الرفاعي، بدأت الأمور تتغيّر في أواخر الثمانينات مع اتّضاح الأكلاف الاقتصاديّة لسياسة التزمّت، واستمرّ التراخي في التسعينات إلى أن كانت هزيمة الحزب في الانتخابات البلديّة عام ١٩٩٨، فتسبّبت بانفراجات أكبر.

واليوم يمكن القول تلخيصاً إنّ هناك دكاكين تبيع الخمور في بعلبك إلاّ أنّ تناولها في مطعم لا يزال متعذّراً.

اليأس الضارب

تلك البراغماتيّة لا تعني بحال أنّ الحزب قليل التدخّل في تشكيل الصلب القاعديّ للمدينة ومحيطها. فمدارسه المجانيّة وشبه المجانيّة، معطوفة على مدارس محمّد حسين فضل الله، تستقطب أعداداً أكبر ممّا تستقطب المدارس الرسميّة.

وأهمّ من المدارس البلديّات التي تحظى بتركيز مميّز من حزب الله. فهو متمسّك بها لأنّها تخدم سياساته في الخدمات والتنفيعات، كما في رسم الفضاء العامّ الذي يهيمن ثقافيّاً. ويناط بالبلديّة، إلى ذلك، أن تسدّد أثمان الإفطارات والجنازات التي يقيمها الحزب. هكذا تجد بين البعلبكيّين من يحدّثك عن فرد من حزب الله، لا صلة رسميّة له ببلديّة بعلبك، يوجّه أوامر لها بصرف الأموال. كذلك تجد من يلقي علامات استفهام حول "الانتحار" الغامض لعلي صُلح أمين صندوق البلديّة.

والواقع أنّ حزب الله خاض انتخابات ٢٠٠٤ البلديّة حيث نال ٦٠ في المئة من الأصوات، مستخدماً سلاح الابتزاز بالمقاومة والتذكير بتاريخ الخدمات والتنفيعات. وبحسب غالب ياغي، الذي تصدّى لهم آنذاك على رأس لائحة مقابلة، تدخّل السوريّون مباشرة في تلك المعركة "فبلّغوني أنّ بشّار الأسد يريد أن يعطيهم البلديّات ويبرهن للأميركيّين أنّهم غير إرهابيّين".

وهذه الهيمنة التي لم تنقطع جزئيّاً إلاّ خلال ١٩٩٨ – ٢٠٠٤، تتبدّى معها الحياة الثقافيّة على صورة مدقعة تماماً، وهو ما زادته الحرب السوريّة جفافاً. فبين وقت وآخر تتّسع الفرصة لتوقيع كتاب أو ندوة أو معرض صور وكفى الله المؤمنين القتال.

يسير هذا في مواجهة انشقاق يجعل كلّ رواية روايتين، الشيء الذي يتجلّى على مستويات عدّة. ففي مقابل مقام السيّدة خولة، الذي قال الحزب إنّه رشح دماً مؤخّراً حزناً من خولة على عمّتها السيّدة زينب، يقول متفقّهٌ بعلبكيّ إنّ ما من مرجع واحد في التاريخ الإسلاميّ يؤكّد أنّ الحسين بن عليّ أنجب فتاة سمّاها خولة. وإذا أطلق البعلبكيّون "الأصليّون" على إحدى حاراتهم الجديدة اسم "الأشرفيّة"، سمّاها جمهور حزب الله "طريق عمشكي" تبعاً لقرية عمشكي الصغيرة في جوارها، وهكذا دواليك.

إلاّ أنّ الذين يرغبون في صورة لمدينتهم أكثر انسجاماً وحيويّة يعانون يأساً قاتلاً بسبب قلة الإمكانات. فبحسب بعلبكيّ شجاع: "أنت، حيال حزب الله، أمام عملاق تصعب زحزحته... معهم المال والسلاح والدين والعقيدة، ومعهم الدولة منذ دخولهم في الدولة عام ١٩٩٢، ثمّ القضيّة بعد قتالهم في سوريّة مؤخّراً". فما العمل؟

بشرّي: جبال القوّات اللبنانيّة وكهوفها

في الطريق الذي يوصل إلى بشرّي تنتشر بلدات وقرى، كالحدث وحصرون، سطوح بيوتها لا تزال قرميديّة. لكنّها ليست من قرى مارون عبّود المرسومة على أغلفة كتبه. فهي مأهولة، تمهّد الحركةُ فيها لحركة بشرّي الأكبر حجماً والأكثر أمكنة ومقاهي ومطاعم. لكنّ نقص التعرّض للسياحة والسيّاح جعل البشراويّين مقتصدين في التعبير والمسايرة، يقولون ما يلزم قوله مع ابتسامة حدّ أدنى وصوت لا يرتفع، وإن كان ميّالاً لأن يحسم ويقطع. وهذا الذي يراه البعض قسوة فيهم ربّما عزّزه بُعد بلدتهم عن المدن. فما من مدينة شكّلت لبشرّي ما كانته طرابلس لزغرتا حتّى ١٩٧٥، أو البترون وجبيل لتنّورين وقرطبا.

مع هذا، أو ربّما إلى جانبه، تتبدّى بشرّي مثقلة بالرموز. ففيها يقيم تاريخ كثير متجاوراً مع أسطورة كثيرة، وبالطبع ثمّة فائض من الخرافة مضمون. فوادي قنّوبين هناك، وقريباً منه الديمان، وهناك الأرز وسيّدة قنّوبين وسيّدة قاديشا وسيّدة بشوات، و"كلّ السيّدات هنا"، كما قالت امرأة راضية مرضيّة بمجد بشرّي. وفوق هذا وُلد مار شربل، ذو الشعبيّة الهائلة بين موارنة الأرياف، في قرية بقاعكفرا القريبة جدّاً، قبل أن يتنسّك في عنّايا التي ارتبط اسمه بها. وهناك في كنيسة سيّدة قنّوبين التي كانت مقرّ البطريركيّة المارونيّة لـ ٣٥٠ سنة، قبل أن ينتقل المقرّ إلى بكركي شتاءً وإلى الديمان صيفاً، دُفن ١٧ بطريركاً لا تزال جثثهم تحرّك سطح الأرض من تحته. والآن يلهج أهل بشرّي بنجم علويّ جديد هو أنطونيوس طربيه، المرشّح للقداسة. وثمّة من هذا الصنف أسماء لا تُحصى، حتّى لتشعر أنّ البشراويّين، تحت غلالة الإله الواحد الشفّافة، يتعدّدون في العبادات والمعبودين. فهذه الأمكنة وهؤلاء الناس لكلّ منهم دلالاتٌ بعضُها ضارب في

القدم وبعضها في الطبيعة، وكلّها، على نحو أو آخر، تقيم جذورَه في مقدّسات المارونيّة الأولى وصوفيّاتها. وبالطبع أضاف الزمن الحديث جبران خليل جبران الذي يوجد في قلب البلدة سهم كبير يشير إلى بيته. ولجبران، في بشرّي، متحف وثمّة مركز ثقافيّ يحمل اسمه، فضلاً عن لجنة تنتخبها العائلات، تحوّلت واحداً من محاور الحياة السياسيّة للبلدة. وفي السنوات الأخيرة انضاف سمير جعجع إلى ذاك الألبوم المفعم بالقدّيسين ممّا يتوارثه أهلٌ يحبّون القداسة. فحين تنقله الصور، مصحوباً بزوجته ستريدا، يشيع شيء ممّا تُشيعه الرسوم الدينيّة عن المنزّهين.

فبشرّي ذات طاقة جبّارة على تديين الزمنيّ، فإذا بقي زمنيّاً ونسبيّاً لفظته وجافته. هذه حالها مع جبران وجعجع، ابنيها وقدّيسيها اللذين تقدّمهما المنحوتات الحِرَفيّة والكيتشيّة في الأرز مثلما يُقدَّم مار شربل أو العذراء مريم. فشكل الصليب المنتشر، وحضور الخشب في معظم ما يُعلّق أو يباع ويُشترى، وتعبير "أرز الربّ" ذاته، توحي جميعاً بالتعرّض لفتك الدين على نحو لا شفاء منه. وقد تمكّنت الكهوف، لا سيّما كهوف قنّوبين، والمغاور، خصوصاً مغارة قاديشا، ومحابس القدّيسين والمرشّحين للقداسة، فضلاً عن عدد من الكنائس لا يُحصى، من جعل الدين والدينيّ الكلمة الثالثة بعد كلّ كلمتين. وهو تديّنٌ يغدو رؤية للعالم وطريقة في تأويله، كما يوهم أصحابه بزمالة الله وحيازة التاريخ. فالبشراويّ المحاط بهذه جميعاً، وبهؤلاء كلّهم، لا يسعه أن يكون شكّاكاً أو أن يهبط قيد أنملة عن "أفعل التفضيل" المطلق. هنا يُختَرَع المجد وهنا يُزَجّل.

أمّا في الفندق، فما إن يحتلّ النزيل مكانه على الطاولة منتظراً القهوة الصباحيّة، حتّى يُرحّب به بطريقة متحمّسة. فهم يطلقون عليه أغاني فيروز الوطنيّة بصوت مرتفع، والكثير منها يمجّد القرية والطاحونة ومزراب العين ممّا اندثر أو هو في سبيله إلى الاندثار. وهناك لا تُصدّ "أعطني الناي وغنّ" عن الآذان، هي التي كتبها ابن البلدة ونبيّها جبران.

الدينيّ والطبيعيّ

والحال أن أهل بشرّي، على ما يبدو، وطنيّون دائماً بطريقتهم، لا يكفّون عن الدعوة

إلى إنهاض الوطن وإقالته من عثاره. وهذا ما لا بأس به لولا أنّه يحصل في أوّل الصباح، والوطنيّةُ في أوّل الصباح أمر متعب قليلاً.

ولأنّ الوطنيّة الدائمة تتطلّب رجالاً دائمين، تلوح بشرّي فردوساً للرجولة تكثر النساء اللواتي يتباهين به. فإحدى السيّدات هناك امتدحت "قسوة لهجتنا" حيث يميل حرف الألف إلى التكوّر واواً. وهي حين أشارت إلى الأجبان اللذيذة التي تنتجها البلدة اعتدّت بالماعز و"تاريخ المعّازين". والراعي، منذ المسيح، محطّة لقاء مؤمثَل ومؤسطر بين الدينيّ والطبيعيّ. أمّا السائق الذي طاف بنا بشرّي فأكّد أن طبيعتها "صخر وثلج تجمّد منذ بدأ الكون"، وهو قول لا يكتم انتسابه إلى فئة الغناء الرحبانيّ. لكنْ عندما سألناه عن مطعم ما، أجاب أنّه لا يفهم في هذه الأمور، فكأنّ السويّة التي تنتمي إليها السياحة والتجارة أدنى من سويّة الطبيعة التي وفد منها.

وأغلب الظنّ أن التواصل الجغرافيّ والقرابيّ بين بشرّي وقرى الأرز وعيناتا ودير الأحمر يخلق لها مدى يصير، في أزمنة الاضطراب والقلق، وهي كلّ الزمن تقريباً، مدى حربيّاً. فيُخيَّل أنّ الصليب الخشبيّ، وهو الشكل الذي تتّخذه أيّ قطعتي خشب يراد جمعهما لما لا يُحصى من وظائف، علَم ضمنيّ لتلك المنطقة. فهو يتناثر في جبالها دليلاً، كما النيران في الأزمنة البدائيّة، مشيراً إلى هويّة صلبة وأقليّة في وقت واحد. هكذا يبدو كأنّ البشراويّ يبحث عمّا يبقيه بشراويّاً فخوراً، يتحصّن لأجل ذلك بالجبال رافعاً عليها علم الصليب المصنوع من خشب الربّ. ففكرة الحصن والمناعة الأبديّين تلحّ على الوعي هناك وترتبط بفكرة الأديرة الأولى لمؤمنين يمارسون طقوسهم بعيداً من سلطة جائرة. وهي أديرة محفورة في الحجر ومقسّمة إلى غرف دهليزيّة ذات أسقف منخفضة. وبالفعل فإنّ الكثير من بيوت البشراويّين ملتصق بالحجر كأنّه مجرّد نتوء مرتّب له. وعلى هذا النحو أقيم متحف جبران في الصخر، جامعاً فيه سمة أخرى من سمات الهويّة البشراويّة: الارتفاع. فـ"نحن نطلّ على سهل البقاع"، كما قال سائقنا. ومنطقتنا أعلى لبنان، كما يذكّرك الجميع متفاخرين. وهذا شرط الحصن الشارط، يخيّم فوقه ظلّ إله محارب يذود عن الأهل بالدم كما بالسيف. وهي لئن انتشر الجبل حدّاً لها يفصلها عن "بلاد" البقاع، فهذا ما يُربك السيّدة المثقّفة آمال فخري حين تصف جبلها وبلدتها فيلوحان لها مرّةً مجداً وتعالياً، ومرّةً ضيقاً على الصدر وبَرماً يقيم في الروح. أمّا

هدى بركات، الروائيّة البشراويّة، فالتقطت هذه المركزيّة التي تحظى بها الطبيعة، وتلك الذكوريّة القاسية التي تسوقها، وجعلتهما رواية بديعة حملت عنواناً دالاًّ: "ملكوت هذه الأرض".

العائلات أوّلاً

لا يترك جو فخري، رئيس نادي قنّوبين، والقوّاتيّ الهوى، مكاناً للإبهام والتأويل: ذاك أنّ "ثقافة البشراويّ الشجاعة والرجولة". بيد أنّ العائلات الموسّعة هي التي كانت تقليديّاً، ولعقود مديدة، الوحدات التي تحفظ هذه "الثقافة" وتنشرها. فأهل بشرّي البالغون ٢١ ألفاً، يقيم منهم فيها قرابة ٨ آلاف، صدروا عن نظام عائليّ لا تعوزه الصرامة. والعائلات السبع الأكبر هي، بحسب ترتيبها العدديّ، طوق فرحمة فكيروز فجعجع فسكّر ففخري، وأخيراً شدياق. لكنّ هذا لا يغني عن تفاصيل يورد بعضها المحامي هاني رفّول رحمة، ومنها، مثلاً، أنّه "لو جاء من عيناتا إلى بشرّي جميع آل رحمة لكانوا الأكبر عدداً، فيما يعود تكاثر آل طوق إلى انتقال بعض الطوقيّين من البقاع إلى بشرّي". وهذه تفاصيل تسهّل القراءة في كتاب العائلات، يستكملها التراتُب في داخل العائلات ذاتها. ذاك أنّ آل عيسى الخوري، مثلاً، هم مشايخ آل رحمة، فيما جبّ الضاهر في آل كيروز الأبكر في الوجاهة، منهم كان ياور المتصرّف في عهد المتصرّفيّة، ويبدو أنّ جبران خليل جبران استوحى شخصيّة راجي بك من زعيمهم.

واقع الأمر أنّ زعماء العائلات هذه استولوا على تمثيل بشرّي البرلمانيّ منذ ابتدائه في ١٩٣٤، كما كوّنوا دائرة مغلقة تتزاوج في ما بينها، ويربطها بالمراجع الدينيّة رابط وثيق. فقد تشكّل في الخمسينات ثالوث ضمّ البطريرك عريضة، وهو من بشرّي، وابني شقيقتيه المونسنيور كيروز والمحامي يوسف رحمة. وتمكّن الثالوث هذا بفعل نفوذه الواسع من أن يفكَّ أسر أحد الوجهاء الذي حُكم خارج لبنان بتهريب الحشيشة. لكنّ الثلاثة، فوق هذا، استطاعوا، بتوجيهاتهم وتأثيرهم، إيصال ذاك السجين السابق إلى البرلمان. وكانت أبرز المصاهرات التي تمّت داخل الدائرة هذه اقتران قبلان عيسى الخوري بأخت حبيب كيروز، والاثنان، ومعهما سعيد طوق، احتكرا تمثيل بشرّي في

البرلمان لعقود طويلة.

ومن دون أن يكون السكن صافياً عائليّاً، فإنّ الحارات تنطوي على نسبة عالية من ذاك الصفاء. ففي بشرّي الفوقا تقيم عائلة طوق، وفي الوسطى عائلتا كيروز وسكّر، بينما تقيم في التحتا عائلتا رحمة وجعجع.

لكنّ ذاك النظام العائليّ واجه محنته الكبرى في السبعينات، وهو ما يفسّر أحد الأسباب البعيدة لصعود القوّات اللبنانيّة اللاحق.

ففي أوائل ذاك العقد دخل وافد جديد إلى اللعبة العائليّة – الانتخابيّة هو جبران طوق، العائد ثريّاً من المهجر والراغب في احتلال موقع يسجّله باسمه. ولئن نجح جبران، الصادر عن جبّ غير متصدّر تقليديّاً في عائلته، في أن ينتزع مقعداً نيابيّاً له في ١٩٧٢، مبالغاً في شحذ عصبيّة آل طوق واستنفارها، فهذا ما حفّ به عنف سبق الانتخابات وتلاها. فقد كان لبروزه، وسط عائلة هي تقليديّاً الأفقر والأقلّ تعلّماً والأكثر اعتماداً في معيشتها على الرعي، الوقع الأقسى على آل كيروز الذين استفادوا، أواخر الستينات، من قرابة جمعتهم بآل حلو الذين كان أحدهم، شارل، رئيساً للجمهوريّة، ثمّ في ١٩٧٠ انتُخب حليفهم التقليديّ سليمان فرنجيّة رئيساً للجمهوريّة. وهناك رواية تقول إنّ حبيب كيروز هو الذي أمّن هرب سليمان فرنجية الى سورية بعد مقتلة مزيارة في ١٩٥٧.

هكذا اندلعت اشتباكات مسلّحة بين عائلتي كيروز وطوق رافقتها عمليّات خطف، ثمّ تعرّض جبران نفسه لمحاولة اغتيال اتُّهم فيها شخص من آل كيروز تمّ اغتياله لاحقاً، قبل أن يُقتل ابنه أيضاً. وفي الثمانينات تجدّدت حرب كيروز وطوق فسقط قتلى وأقيمت متاريس شقّت البلدة وفصلت حاراتها وحدّت من تحرّكات سكّانها.

وعموماً كان للنزاعات العائليّة بين كيروز وطوق، من غير أن تقتصر عليهما، فضلاً عن المشاحنات داخل كلّ واحدة من العائلات، أن أدّت إلى سقوط قرابة ٣٠ قتيلاً في ربع قرن.

بيد أنّ هؤلاء الذين "يوحّدهم الدفاع عن المسيحيّين"، ولو اتّسعت وحدتهم للتنافس الضاري بينهم، وجدوا في اندلاع "حرب السنتين" ضالّتهم. فالبشراويّون، بحسب آمال فخري، من أكثر أهل المناطق اللبنانية بذلاً للقتلى في خارج بشرّي التي لم

يُهاجَموا فيها. وبالفعل اندلعت حربٌ في الكورة المجاورة شارك فيها الجميع: فحبيب كيروز، المستفيد من علاقاته بأجهزة الدولة، أقام مخيّم تدريب لعائلته، بينما استقدم جبران طوق، على نفقته، باخرة سلاح كان دور حمولتها كبيراً في تعديل موازين القوى. وعلى العموم، راحت تتزايد الجيوش الصغرى للعائلات، فأنشأ آل طوق "لواء المقدّمين"، وآل كيروز "لواء الأرز"، وشبل عيسى الخوري، نجل قبلان الذي قضى في معارك الكورة، "لواء قاديشا"، وآل فخري "لواء الفخر". كذلك نمت على أطراف العائلات جماعة "حرّاس الأرز" واستقطبت عشرات المنتسبين.

غير أنّ حرباً من طينة عابرة للعائلات تطرح على العائلات المنهكة والمتعبة ما لا تستطيع النهوض به. إنّها تستحضر الحزب، بدل العائلة، وتحضّ عليه.

القوّات أوّلاً

وخلال ١٩٧٧ – ١٩٧٨ كان طرف آخر يقاتل في الشمال هو حزب الكتائب اللبنانيّة. وكان طالب الطبّ في الجامعة الأميركيّة سمير جعجع هو من يقود الحزب عسكريّاً في مواجهته للقوّات السوريّة في قناة/ بولا. في ذاك الاحتكاك الأوّل بين الجنود السوريّين والكتائب، برز اسم سمير وبدأ بعض الشبّان يلتفّون حوله لأنّه، بحسب جو فخري، "عبّر عن فروسيّة". فهو "مثال أعلى للرجولة وعدم الفساد، يحترم الكنيسة ورجال الدين".

وقصّة بشرّي مع سمير جعجع، ابن الجنديّ الذي تقيم عائلته في عين الرمانة، تبدأ أواخر الستينات. حينذاك بدأ الشابّ الخجول والمنطوي، المحبّ للمؤسّسة العسكريّة والكاره للعائليّة والقبَليّة، يصطاف سنويّاً فيها.

والحال أنّ حزب الكتائب لم يكن أعضاؤه يتجاوزون ١٥ نفراً، في أواخر الستينات، حين انتسب إليه سمير. وهم لئن نموا قليلاً في القرى المجاورة لبشرّي، فإنّهم عجزوا عن إيصال مرشّحهم التقليديّ، القياديّ الكتائبيّ وابن حصرون المحامي أنطوان معربس، إلى الندوة البرلمانيّة، أو إلى موقع زعاميّ في القضاء.

لكنّ الطلب على الحزب والحزبيّة كان قويّاً قوّة البرم بالعائلات. هكذا حضر مؤسّس

حزب الكتائب، بيار الجميّل، إلى بشرّي في ١٩٧٦، حيث أقيم مهرجان أقسم فيه أربعة آلاف منتسب قسم الولاء لحزبه. وحين مرّ موكبه في إهدن وزغرتا رُشّ عليه الأرزّ والورد، الأمر الذي أغضب عائلات بشرّي وزغرتا سواء بسواء. بعد ذاك بقليل، ومع الابتعاد الذي بدأه سليمان فرنجيّة عن "الجبهة اللبنانيّة"، بدأت حرب زغرتاويّة كتائبيّة ما لبثت أن تحوّلت حرباً بشراويّة زغرتاويّة. ففي ١٩٧٧، وبعدما اتّهم البشراويّون أفراداً من جيرانهم بسرقة سيّاراتهم، قتل الزغرتاويّون ١٢ بشراويّاً، فيهم الطفل والشيخ، مؤسّسين لفصول سوداء سوف تلي.

في هذه الغضون كان سمير جعجع، ما بين توزيع لقطع السلاح على الشبّان البشراويّين وتصعيد لنبرة العداء للعائليّة وتبشير دينيّ و"خلوات روحيّة" أدارها، يطلق ديناميّة عبّر عنها إنشاء مجموعة "ثوّار الشمال" داخل الكتائب. هكذا بدأ يرتسم سيناريو نبويّ جديد عن وافد من الخارج يأتي بالخلاص لأهل الداخل المتنازع.

تعليم وحزبيّة مبكرة

ما من شكّ في أنّ القوّاتيّة، في بشرّي كما في غيرها، تغذّت على هالة بشير الجميّل إبّان صعوده أواخر السبعينات انتهاءً بانتخابه رئيساً ثمّ اغتياله في ١٩٨٢. لكنّ الوصول إلى ما يقارب التطابق بين القوّاتيّة والبشراويّة سلك دروباً ملتوية ظلّ سمير جعجع السائر الثابت فيها. فإذا صحّ أنّ الأخير وافد من الخارج، ما مكّنه من الإطلال على نزاعات العائلات من فوقها، فإنّ الشقّ الداخليّ، أو البشراويّ، منه، كان يندرج في السعي إلى تغيير ما تتداخل عدائيّته الغامضة بلبنانيّته الحادّة مثلما تتداخل مسيحيّته الطهرانيّة باستعداداته الحربيّة. إنّنا، هنا، أمام الكاهن المزارع والمقاتل.

فآل جعجع لم ينتسبوا إلى نادي العائلات السياسيّة، وحين وقف وهيب جعجع، وهو ابن مكاريّ، ضدّ مرشّحي العائلات، قُتل في ١٩٤٤ بعد أشهر على انتخابه نائباً. هكذا برز بعضهم خارج السياسة، كأولئك الذين انصرفوا إلى النشاط المصرفيّ وأسّسوا مبكراً بنك جعجع، لكنّ بعضاً منهم لعبوا أدواراً في الموجات التي تعاقبت، بطريقة أو بأخرى، على رفض الواقع البشراويّ القائم.

يُهاجَموا فيها. وبالفعل اندلعت حربٌ في الكورة المجاورة شارك فيها الجميع: فحبيب كيروز، المستفيد من علاقاته بأجهزة الدولة، أقام مخيّم تدريب لعائلته، بينما استقدم جبران طوق، على نفقته، باخرة سلاح كان دور حمولتها كبيراً في تعديل موازين القوى. وعلى العموم، راحت تتزايد الجيوش الصغرى للعائلات، فأنشأ آل طوق "لواء المقدّمين"، وآل كيروز "لواء الأرز"، وشبل عيسى الخوري، نجل قبلان الذي قضى في معارك الكورة، "لواء قاديشا"، وآل فخري "لواء الفخر". كذلك نمت على أطراف العائلات جماعة "حرّاس الأرز" واستقطبت عشرات المنتسبين.

غير أنّ حرباً من طينة عابرة للعائلات تطرح على العائلات المنهكة والمتعبة ما لا تستطيع النهوض به. إنّها تستحضر الحزب، بدل العائلة، وتحضّ عليه.

القوّات أوّلاً

وخلال ١٩٧٧ – ١٩٧٨ كان طرف آخر يقاتل في الشمال هو حزب الكتائب اللبنانيّة. وكان طالب الطبّ في الجامعة الأميركيّة سمير جعجع هو من يقود الحزب عسكريّاً في مواجهته للقوّات السوريّة في قناة/ بولا. في ذاك الاحتكاك الأوّل بين الجنود السوريّين والكتائب، برز اسم سمير وبدأ بعض الشبّان يلتفّون حوله لأنّه، بحسب جو فخري، "عبّر عن فروسيّة". فهو "مثال أعلى للرجولة وعدم الفساد، يحترم الكنيسة ورجال الدين".

وقصّة بشرّي مع سمير جعجع، ابن الجنديّ الذي تقيم عائلته في عين الرمانة، تبدأ أواخر الستينات. حينذاك بدأ الشابّ الخجول والمنطوي، المحبّ للمؤسّسة العسكريّة والكاره للعائليّة والقبَليّة، يصطاف سنويّاً فيها.

والحال أنّ حزب الكتائب لم يكن أعضاؤه يتجاوزون ١٥ نفراً، في أواخر الستينات، حين انتسب إليه سمير. وهم لئن نموا قليلاً في القرى المجاورة لبشرّي، فإنّهم عجزوا عن إيصال مرشّحهم التقليديّ، القياديّ الكتائبيّ وابن حصرون المحامي أنطوان معربس، إلى الندوة البرلمانيّة، أو إلى موقع زعاميّ في القضاء.

لكنّ الطلب على الحزب والحزبيّة كان قويّاً قوّة البرم بالعائلات. هكذا حضر مؤسّس

حزب الكتائب، بيار الجميّل، إلى بشرّي في ١٩٧٦، حيث أقيم مهرجان أقسم فيه أربعة آلاف منتسب قسم الولاء لحزبه. وحين مرّ موكبه في إهدن وزغرتا رُشّ عليه الأرزّ والورد، الأمر الذي أغضب عائلات بشرّي وزغرتا سواء بسواء. بعد ذاك بقليل، ومع الابتعاد الذي بدأه سليمان فرنجيّة عن "الجبهة اللبنانيّة"، بدأت حرب زغرتاويّة كتائبيّة ما لبثت أن تحوّلت حرباً بشراويّة زغرتاويّة. ففي ١٩٧٧، وبعدما اتّهم البشراويّون أفراداً من جيرانهم بسرقة سيّاراتهم، قتل الزغرتاويّون ١٢ بشراويّاً، فيهم الطفل والشيخ، مؤسّسين لفصول سوداء سوف تلي.

في هذه الغضون كان سمير جعجع، ما بين توزيع لقطع السلاح على الشبّان البشراويّين وتصعيد لنبرة العداء للعائليّة وتبشير دينيّ و"خلوات روحيّة" أدارها، يطلق ديناميّة عبّر عنها إنشاء مجموعة "ثوّار الشمال" داخل الكتائب. هكذا بدأ يرتسم سيناريو نبويّ جديد عن وافد من الخارج يأتي بالخلاص لأهل الداخل المتنازع.

تعليم وحزبيّة مبكرة

ما من شكّ في أنّ القوّاتيّة، في بشرّي كما في غيرها، تغذّت على هالة بشير الجميّل إبّان صعوده أواخر السبعينات انتهاءً بانتخابه رئيساً ثمّ اغتياله في ١٩٨٢. لكنّ الوصول إلى ما يقارب التطابق بين القوّاتيّة والبشراويّة سلك دروباً ملتوية ظلّ سمير جعجع السائر الثابت فيها. فإذا صحّ أنّ الأخير وافد من الخارج، ما مكّنه من الإطلال على نزاعات العائلات من فوقها، فإنّ الشقّ الداخليّ، أو البشراويّ، منه، كان يندرج في السعي إلى تغيير ما تتداخل عداليّته الغامضة بلبنانيّته الحادّة مثلما تتداخل مسيحيّته الطهرانيّة باستعداداته الحربيّة. إنّنا، هنا، أمام الكاهن المزارع والمقاتل.

فآل جعجع لم ينتسبوا إلى نادي العائلات السياسيّة، وحين وقف وهيب جعجع، وهو ابن مكاريّ، ضدّ مرشّحي العائلات، قُتل في ١٩٤٤ بعد أشهر على انتخابه نائباً. هكذا برز بعضهم خارج السياسة، كأولئك الذين انصرفوا إلى النشاط المصرفيّ وأسّسوا مبكراً بنك جعجع، لكنّ بعضاً منهم لعبوا أدواراً في الموجات التي تعاقبت، بطريقة أو بأخرى، على رفض الواقع البشراويّ القائم.

فكما يروي هوّاش فخري، الموسيقار والمؤرّخ الشفويّ لبلدته ولعائلاتها، ظهر شيوعيّون كالأخوين المحامي يوسف طوبيه جعجع وشقيقه المُقعد جميل. ومع أن الشيوعيّة بدت للبشراويّين معتقداً منبوذاً، بسبب الإلحاد والاستيلاء على أملاك المالكين، كسب الأخوان مناصرين من عائلتهما كانا يحرّضانهم ضد "الإقطاع" والكنيسة. كذلك برز في "الشبيبة العماليّة الكاثوليكيّة" (جوك) جعاجعة وقف على رأسهم وديع العبد جعجع الذي تأثّر بشيوعيّي عائلته. وكان لهذه الجماعة التي أسّسها، في بلجيكا عام ١٩٢٥ الأب جوزيف كاردغان واثنان من العلمانيّين الكاثوليك، وأريد لها أن تنافس الشيوعيّين في العمل النقابيّ والدفاع عن مصالح العمّال، أن نقلت أجواءً عمّاليّة من فرنسا إلى شمال لبنان. هكذا خاضت نشاطاً مطلبيّاً ضدّ شركة قاديشا، وسادتْها دعوة مسيحيّة مساواتيّة، فضلاً عن إسهامها في توسيع الأفق المحلّيّ لسكّان البلدة وربطهم ببعض ما يتعدّى عائلاتهم ممّا يدور في العالم الأوسع.

وأهمّ ما فعلته "الشبيبة الكاثوليكيّة"، التي أطلقها في بشرّي الأب اليسوعيّ فيليب شبيعا، تركيزها على التعليم والعمل الاجتماعيّ. فبوصف شبيعا مديراً للمدرسة الرسميّة في الأربعينات، افتتح التكميليّة الأولى في بلدته، رافعاً أعداد التلاميذ في المرحلتين الابتدائيّة والمتوسّطة من ٦٠ إلى ٥٥٠. واستطراداً على اهتمام الأب فيليب هذا، أدخل السينما إلى بشرّي، وأقام ندوات ثقافيّة وأنشأ "الصليبيّة" (croisière)، رابطةً توحي بالاستعداد القتاليّ للدفاع عن الإيمان القويم. وليس بلا دلالة أنّ أحد الذين تولّوا قيادة "الشبيبة" كان أنطوان بركات رحمة الذي انتسب إلى الحزب نفسه الذي انتسب إليه جعجع لاحقاً، أي حزب الكتائب.

وما بين شقّ دينيّ صرف وآخر اجتماعيّ "نضاليّ" يقارب "الاشتراكيّة الطوباويّة"، نشأ ما تأثّرت به القوّات ولا تزال، ممّا تعود جذوره إلى حركة الأب فيليب وشبيبته. ثمّ جاءت القدرة العسكريّة تعطي بعداً "صليبيّاً" أعمق وقدرة عمليّة على صون تلك المبادئ.

لكنّ هذه البدايات الحزبيّة والتنظيميّة لم تكن، بالطبع، كافية للتغلّب على عائليّة بالغة التجذّر. ذاك أنّ من كانوا يقودون "الشبيبة" كانوا يجرّون أبناء عائلاتهم إليها، فضلاً عن أنّ الأب شبيعا هو نفسه ابن خالة حبيب كيروز، أحد أبرز أقطاب العائلات. لكنْ

يبقى أنّ بعض الذين تخرّجوا في مدرسته وذهبوا للدراسة خارج بشرّي، لا سيّما في الجامعة اللبنانيّة، عادوا إلى بلدتهم أعضاءً في حركة الوعي والحزب السوريّ القوميّ الاجتماعيّ ومنظّمة العمل الشيوعيّ. وقد أنشأ بعض هؤلاء المحتجّين على العائلات "الشبيبةَ البشراويّة" التي ما لبثت أن نافست "شبيبة" الأب المؤسّس.

والحال أنّ التعليم الذي باشره الأخير مضى، عبر الجامعة اللبنانيّة والجامعات الخاصّة، في تقويض سلطة العائلات. فقد عمّت المهن الحديثة في عالم لم تنتشر فيه الملكيّة الزراعيّة الصغيرة والمتوسّطة، بحيث "لم يعد الناس بحاجة إلى تنفيعات الزعيم التقليديّ".

عبّاد جعجع ونقّاده

لقد أحدث سمير جعجع درجة بعيدة من التماهي بين البشراويّة والقواتيّة. فباستقلال القوّات عن الكتائب، واستقلال جعجع عن قيادة آل الجميّل التي يتّهمها البشراويّون بخيانة "الحكيم" إثر إصابته في إهدن في ١٩٧٨، لم تعد هناك قيادات بيروتيّة وجبليّة ولا "إقطاع" سبق أن دعاهم جبران خليل جبران إلى أن يمقتوه. وبالفعل بات يُنظر إلى حزب الكتائب، الذي فقد كلّ حضور في بشرّي، بوصفه جزءاً من ماضٍ جبتْه القوّات وسيّدها.

فوق هذا فـ"الحكيم"، بحسب جو فخري، استجاب وظيفيّاً لحاجات مُلحّة، فـ"حقّق انصهاراً بشراويّاً كاملاً، ومنذ بروزه لم يسقط قتيل واحد في بشرّي". لقد حوّل الطاقة التي كانت تُبدّد في الصراعات بين العائلات في وجهة أخرى يشقّها الحزب القائد ويرسمها.

وعلى رغم تاريخ العداء بين زغرتا وبشرّي، من إحراق البشراويّين إهدن في ١٩١٣ حتّى المقتلة البشعة في ١٩٧٨ التي شارك فيها سمير جعجع وأصيب في يده، لم يعد يسقط قتلى بين البلدتين اللتين انضبط خلافهما السياسيّ والعصبيّ في مجاري التناقضات الوطنيّة الأعرض.

واستطاع جعجع، إلى ذلك، أن يقيم علاقات "تعاونيّة" مع أثرياء البلدة "لما فيه مصلحتها"، من الراحل أنطوان شويري إلى منير بركات رحمة وحبيب الشدياق.

وعلى العموم نجح حزب جعجع في الحلول محلّ زعماء العائلات من دون أن يُراق دم. فالزعماء التقليديّون "كلّهم إلى انقراض"، كما يقول غلاة القوّاتيّين. أمّا العائق الوحيد المتبقّي، وهو نسبيّ جدّاً، فيمثّله جبران طوق، عمّ ستريدا، زوجة سمير جعجع. فهذا الرجل الثمانينيّ الذي عُرف بوقوفه في وجه آل فرنجيّة منذ ١٩٧٢، لا يزال يحاول أن يستنهض العصب العائليّ في مواجهة الاستئثار القوّاتيّ.

فالقوّات، منذ ٢٠٠٥، تسيطر على المقعدين النيابيّين في بشرّي ويفوز مرشّحاها بفارق كبير عمّا يناله منافسوهما. كذلك تسيطر القوّات على المجلس البلديّ المؤلّف من ١٧ عضواً، حيث لم ينجح أيّ مرشّح ينافس لائحتها. وهي تستطيع، بحسب البعض، أن تجيّر كتلة ناخبة تضمّ ٢٥٠٠ صوت من أصل مجموع المقترعين البالغين خمسة آلاف. فوق هذا، تمسك القوّات بـ"لجنة جبران الوطنيّة" بحيث يسود رأي أحاديّ يعدم كلّ نقد أو مغايرة.

هكذا نشأت ثقة بالنفس هي التي حملت القوّات على أن تعرض على المدرّس اليساريّ، المسلّم له بالنزاهة، أنطوان الخوري طوق، رئاسة البلديّة.

عائلة القوّات

لكنّ بشرّي لم تغدُ صوتاً واحداً في رواية قصّتها مع القوّات. فثمّة من يقول، مدلّلاً على أنّ العائليّة لا يمكن أن تُهزم هناك، "إنّنا صرنا ثماني عائلات بعدما كنّا سبعاً". وبدوره يذهب المحامي هاني رفول رحمة، الذي لا يكتم حنينه لزمن العائلات، إلى تبهيت الخلاف أصلاً: ذاك أنّ العائلات والقوّات يحملون الأفكار والتوجّهات نفسها في ما خصّ لبنان والمسيحيّين، وما من أحد بديل من أحد.

بيد أنّ الشاعر أنطوان مالك طوق، رئيس رابطة آل طوق، يقدّم مطالعة نقديّة تبدأ من رفض التعميم والتطابق بين بشرّي والقوّات. فهو يرى، مثلاً، أنّ أكثريّة آل طوق الذين في القوّات ليسوا من سكّان بشرّي بل من المقيمين في الساحل. كذلك يميّز بين قوّتها داخل العائلات، ملاحظاً أنّها أقوى ما تكون في عائلات سكّر وفخري وجعجع، أي تلك التي افتقرت دائماً إلى زعامة والتي تُعدّ الأقلّ عدداً والأميل سكناً إلى بشرّي

التحتا. ويتّفق آخرون مع مالك طوق، إذ يستوقفهم أنّ سمير جعجع ليس محاطاً بأفراد من العائلات البشراويّة الكبرى.

أمّا نجاح القوّات فيعود، في نظر مالك طوق، إلى تشرذم خصومهم من التقليديّين وعجزهم عن التلاقي في ما بينهم. ويتحدّث بشراويّون كثيرون عن جبران طوق بوصفه الخصم الذي تحلم القوّات بمثله: فهو، رغم تقدّمه في السنّ، احتفظ بتعنّت لا يتعب واستعراضيّة منفّرة لا تفتر، "من دون أن يكون في سجلّه الطويل إنجاز واحد لمصلحة البلدة".

ويرسم بشراويّ آخر لوحة عن باقي منافسي القوّات: "فرُوْي عيسى الخوري حلّ محلّ عمّه قبلان، لكنّه لم يملأ الفراغ. أمّا حبيب كيروز فلم يترك وريثاً، فيما بطرس سكّر مرشّح دائم الفشل، وسعيد طوق بلا أيّة خبرة سياسيّة تُذكر".

على أنّ أنطوان مالك طوق يبقى من المؤمنين بأنّ السيطرة القوّاتيّة ليست أبديّة ولا مطلقة. فهو نفسه خاض المعركة ضدّ القوّات في "لجنة جبران" ونال في عائلته ثلاثة أصوات مقابل ثلاثة أصوات لهم. وبدوره تحدّى فيروز جعجع مرشّحَ القوّات على مقعد اختياريّ وفاز عليه، من غير أن يرضخ لضغوط ستريدا جعجع التي طالبته بالاستقالة. ولا ينسى مالك طوق الإشارة إلى أنّ العلاقات مع التقليديّين كانت أسهل وأسلس قياساً بالعلاقة بسمير جعجع الذي يقيم في معراب البعيدة.

وكون القوّات عائلة عليا يجد تكثيفه في العائلة الصغرى لسمير وستريدا. هكذا يرى محبّوهما أنّها سيّدة لطيفة و"قريبة إلى الناس"، فيما يتحدّث نقّادهما عنهما كما لو أنّهما مصغّر عن الرئيس الأرجنتينيّ خوان بيرون وزوجته الشهيرة إيفيتّا. فهم يصفونهما بالاستعلاء والاستهانة حتّى باعتراضات محازبيهم.

وإذ يشدّد القوّاتيّون والموالون لهم على وجه ستريدا المناضلة والصابرة التي انتقلت فجأة من فتاة مرفّهة إلى زوجة سجين، فوقفت إلى جانب زوجها في محنته، ودافعت عن "الشباب" الذين يُستدعون إلى الأقبية بوصفها "أخت الرجال"، يرى خصومهم أنّ ستريدا التي ترعرعت في غانا في أفريقيا تعوّدت ألاّ ترى الناس إلاّ "عبيداً"، وأنّ تعاليها ونزعتها الاستئثاريّة تسبّبا بخروج الكثيرين ممّن كانوا أركاناً في القوّات من حزبهم هذا.

كائناً ما كان الحال، تبقى هناك علامة استفهام اسمها إيلي كيروز.

فالنائب الثاني لبشرّي يكاد يكون الشخص الوحيد الذي يتحقّق حوله إجماع إيجابيّ يلتقي عليه كلّ من تحدّثنا إليهم. فهو جدّيّ وصادق ونزيه، وفقاً للأوصاف التي تُطلق عليه، وهو "أكثر من ستريدا وجوداً بين الناس"، كما يقول الغامزون من قناة "العائلة الحاكمة". لكنّنا، مع هذا، لم نعثر على صورة واحدة لهذا الشابّ وسط غابة الصور التي تحظى بها ستريدا. لقد صدر إيلي عن جبّ بوحمد الذي لم يُعرف بدور سياسيّ في عائلته، ليطلّ على الحياة يساريّاً حالماً، قبل أن ينقلب مؤمناً حالماً يتولّى، بصفته هذه، "الإعداد الفكريّ للقوّات" ويغدو نائباً من نائبيها الاثنين.

والحال أنّ التباس موقع إيلي كيروز يفتح الباب على مسألة أعقد.

ذاك أنّ بشرّي أصغر تعداداً من نصف قضائها، ومع هذا فنائباها منها، عملاً بالتقليد الذي أسّسته العائلات القديمة. فحدشيت وحصرون والحدث وسواها مستبعدة تقليدياً ويُنظر إليها بدونيّة كما يُسمّى أبناؤها "أولاد المزارع". لكنّ جعجع، بحسب جو فخري، وبسبب وجود قوّات في القضاء كلّه، ساوى بين بشرّي وسائر القضاء، فقرّرت القوّات أن ترشّح لأيّة انتخابات مقبلة مهندساً من حصرون اسمه جوزيف إسحق يحلّ على لائحتها محلّ... إيلي كيروز.

خدمات ومواقف

يصرّ خصوم القوّات ونقّادها على أنّها لم تفعل إلاّ القليل لمنطقتها، وما فعلته هو في معظمه تفعيل لمشاريع سابقة على القوّات. ومن ناحيتهم، يصرّ القواتيّون على أنّ جعجع أمّن من موازنة الحزب خدمات لبشرّي لا توفّرها الدولة، فضلاً عن تأمينه، من خلال مواقع في الدولة، تسريعاً أو تنفيذاً لمشاريع بطيئة أو مجمّدة كشقّ طرقات وأوتوسترادات أو توسيعها وبناء سدود وتأمين مياه. ويُذكر، في هذا السياق، أنّ ستريدا أقنعت البليونير المكسيكيّ اللبنانيّ الأصل كارلوس سليم ببناء ملعب، وحصلت على مساعدات قطريّة لبناء مساكن للطلبة، كما أقام جعجع مستشفى يعود تمويله إلى الدولة عبر القوّات. ومن المشاريع التي تُذكر الأوتوستراد المعروف بدورة قاديشا الممتدّ من كوسبا في الكورة إلى إهدن مروراً ببشرّي وجوارها، وجرّ مياه إلى منطقة العرقوب والقصر البلدي الذي دفع

أكلافه المتموّل منير بركات رحمة، وخدمات يصار إلى تقديمها عبر "لجنة جبران"، من دون أن تكون بينها خدمات خاصّة.

لكنّ حديث المشاريع والخدمات يبقى عابراً وثانوياً بالقياس إلى رغبة البشراويّين في تناول الشأن العامّ.

فجو فخري، مثلاً، يرى أنّ بشرّي أكثر من سواها تأثّراً بالوضع السياسيّ اللبنانيّ لأنّ أغلبيّتها قوّاتيّة ولأنّ جعجع منها، مسجّلاً أنّ أهل بشرّي يحبّون مواقفه الوطنيّة، خصوصاً موقفه من حزب الله كفريق مهيمن ومسلّح. أمّا السنّة فليس لديهم أيّ اعتراض على التحالف معهم، لأنّهم "تبنّوا شعاراتنا حين قالوا: لبنان أوّلاً (...) وبسبب خطاب جعجع صار البشراويّ يحسّ، للمرّة الأولى، أنّ الطرابلسيّ والعكّاريّ وابن الضنيّة شركاؤه في الوطن".

والحقّ أنّ بشرّي التي ربّما كانت أصفى أقضية لبنان مارونيّاً، وأقلّها انطواءً على الأقلّيّات، بما فيها المسيحيّة، لا تملك أيّة "حدود" مشتركة مع السنّة، بينما تلاصق المناطق الشيعيّة في البقاع. وهذا الجوار لم يكن دائماً سعيداً، حيث يضرب نزاع الشبيه بشبيهه في عشرات السنوات. وثمّة من يقول إنّ أوّل تهجير سكّانيّ عرفه لبنان يعود إلى ١٩٥٢ وإلى تلك المنطقة تحديداً، حيث هُجّر أبناء قرية صوغا الموارنة، وهم من آل الأطرش الذين يُعدّون جبّاً من آل سكّر، من البقاع إلى بشرّي.

وهذه الخلفيّات الغائمة ربّما ساهمت في تفسير التحالف الذي أنشأته ١٤ آذار. وبحسب رئيس البلديّة أنطوان الخوري طوق الذي لا يخفي ارتياحه لهذه التطوّرات، باتت بشرّي في السنوات الماضية، وعلى نحو غير مسبوق، تشهد حفلات إفطار في رمضان.

أمّا الثورة السوريّة فالحديث عنها يردّ قواتيّي بشرّي إلى ذاكرة نزاعهم مع الجيش والأمن السوريّين. فنحن، كما يقول جو فخري، "من أكثر المناطق التي أزعجت السوريّين. كنّا معهم مثل الفلسطينيّين مع الإسرائيليّين. دائماً كنّا نقاوم. مناوشات صغرى كثيرة وحالات خطف متبادل...". لهذا فإنّ "شعب بشرّي"، كما يضيف فخري، "يحسّ بقوّة بالثورة السوريّة وهو معنيّ بها، ولا شعور لديه بتاتاً بأنّ المسيحيّين مهدّدون. فالمسيحيّ يجب أن يلعب دوره كمشارك بفعاليّة في الحياة السياسيّة".

ويطلعنا الخوري طوق، رئيس البلديّة، على وجود ما يتراوح بين ٢٠٠ و٢٣٠ عائلة سوريّة في بشرّي، مؤكّداً حرصه وحرص بلديّته على نيلهم حقوقهم وحمايتهم من أيّ تعدٍّ مقابل حملهم على الانضباط بالقوانين المرعيّة. وبالفعل ترتفع في ساحة بشرّي يافطة تحدّد أجور اليد العاملة كما لو أنّها وثيقة ملزمة.

وكمثل باقي لبنان، تبدو الحياة الثقافيّة في بشرّي فقيرة. فهي مرتبطة بـ"لجنة جبران الوطنيّة" التي تهتمّ بنشاطات متفرّقة وبمساعدة أندية ثقافيّة ورياضيّة، فيما تشرف القوّات على ندوات تعقدها كلّ أربعة أشهر أو خمسة يغلب عليها، بطبيعة الحال، الطابع التوجيهيّ. لكنّ حضور الأمن ملحوظ هناك، يشترك في الإقرار به القوّاتيّون وخصومهم. فالأجهزة الرسميّة تمارس أدوارها بدرجة معقولة، الشيء الذي أدى إلى تراجع تجارة العبور الوسيطة للمخدّرات. أمّا السلاح غير الشرعيّ فلا أثر له، وإن كان البشراويّون، مثلهم مثل سائر اللبنانيّين، يحتفظون في بيوتهم بالأسلحة الفرديّة.

وحين نسأل مقرّباً من القوّات عمّا إذا كانت هناك بنية عسكريّة خفيّة أو نائمة في بشرّي، ينفي بالمطلق، ثم يرفع عينيه باتّجاه الجبال ويخفضها باتّجاه الكهوف كما لو أنّه يستشير أرواح الأجداد ويحيل على تلك الطبيعة بوصفها الجواب.

الشوف: جنبلاط أوّلاً وأخيراً

حين يُذكر "الشوف الأعلى" يُقصد العمق الداخليّ للدروز. فإذا صحّ اعتبار كسروان عاصمة "الانعزال" المارونيّ، صحّ اعتبار الشوف الأعلى عاصمة "الانعزال" الدرزيّ. فهو، على عكس مدينة عاليه مثلاً، لا يملك تقاليد تجاريّة وإن غزته التجارة في السنوات الماضية، وهو أيضاً غير معروف بالسياحة والاصطياف واستقبال الوافدين "الأجانب".

وفي بعقلين، أكبر قرى الشوف الأعلى، يتجمّع الكثير من مواصفات منطقتها. ففي هذه البلدة التي تعدّ قرابة ثلاثين ألفاً، ويقترع فيها أكثر من ستّة آلاف يشكّل آل حمادة ثلثهم، لا يقيم مسيحيّ واحد على رغم مجاورتها قرى مسيحيّة ربّما كانت دير القمر أهمّها. ويقرأ لنا المدرّس واللغويّ شوقي حمادة من مذكّرات عارف النكدي: "لا أعرف قرية درزيّة في فلسطين ولبنان وسوريّا عرفت الرجالات التي عرفتها قرية بعقلين".

لكنّها بلدة بالغة المحافظة أيضاً. فكثيرون من "الرجالات الذين عرفتْهم" كانوا قضاة مذهب وقضاة شرع يقضون بالأحكام الإسلاميّة تبعاً للمعايير العثمانيّة، ومن أبنائها ظهر ثلاثة مشايخ عقل من آل حمادة، كان أحدهم، الشيخ حسن، يزعجه أن يمرّ مسؤول فرنسيّ على المختارة قبل زيارته. وقد برز في بعقلين، في من ظهر، سياسيّون كبهيج تقيّ الدين وقحطان حمادة والنائب الحاليّ مروان حمادة.

لكنْ في بعقلين، كما في القرى المحيطة بها، بدأت تكثر المصارف والمؤسّسات التجاريّة، كما تنشأ الجامعات. وفي موازاة الهجرة بين الشبّان، تراجع الدخل من الأرض إلى حدود بعيدة، لا سيّما منذ ٢٠٠٥ حين أدّى التوتّر السياسيّ إلى انقطاع

جزئيّ عن بيروت أساء إلى تصريف المنتج الزراعيّ. وزاد في ضمور الريف أنّ علاقات السوق باشرت دخولها منذ أواخر الثمانينات، مع تسوية الطائف، واضطلع تحسّن المواصلات بدور مؤكّد في ذلك. والآن، وكما يروي سناء أبو شقرا، الأستاذ الجامعيّ والقياديّ الشيوعيّ السابق، غدت السلع جميعاً متوافرة في القرى، ونهض نوع من التمديُن المتعدّد الأوجه. فبلدة بقعاتا التي لم يكن فيها إلاّ دكّان واحد و لم يكن أحد يقيم فيها، يسكنها الآن آلاف السكّان الآتين من القرى المحيطة بها، كما تتوزّعها مدارس عدّة ومستشفى وسوق تجاريّة كبرى. والشيء نفسه يصحّ في كفرحيم أو بتلون التي ارتفع عدد سكّانها إلى ثلاثة آلاف.

وعن هذا التمديُن نشأ تحوّل في منظومة القيم. فمن قبل، على ما يروي أبو شقرا، كان شبّان القرية يتجمّعون لمساعدة من يبني منهم بيتاً، أمّا اليوم فلا يلتقون إلاّ لقاءات عابرةً في المآتم. حتّى السلوى كفّوا عن تلقّيها مجتمعين، إذ صار التلفزيون الذي يقسمهم أفراداً أو عائلات صغرى، مصدر تسلّيهم. لقد غدوا، في هذا، أفراداً لا مجموعات.

وبدوره، فالتعليم الذي بدأ يتوسّع نسبيّاً في الخمسينات، ليندفع مع تأسيس ثانوية بعقلين في ١٩٦٤، جعل من تلك البلدة مركزاً يؤمّه للدراسة خمسة آلاف تلميذ من جوارها. وتحضن بعقلين اليوم فرعين لـ"الجامعة الأميركيّة للثقافة والتعليم" و"الجامعة الحديثة للإدارة والعلوم". وهنا أيضاً يحتلّ عام ٢٠٠٥ موقعاً مفصليّاً: هكذا يذهب هيثم نمّور، مدير الجامعة الأميركيّة للثقافة والتعليم، إلى أنّ تلك السنة وما عرفته من استقطاب قلّلا النزول إلى بيروت، فازدهرت جامعتهم التي يقصدها أبناء الطبقات الوسطى والدنيا، كما يفوق عدد فتياتها عددَ فتيانها، خصوصاً أنّ الفتيات "الشيخات" لا يدرسن خارج الجبل.

تفكّك العائلات

وترافق التعليم والهجرة ووفادة التجارة مع تفكّك عائلات طالما اشتُهرت بصلابة لحمتها وحصريّتها. ففي بيئة الدروز، وهم أسياد الشكل واللياقة والمكانة، تنضوي

العائلات في مراتب ثلاث كانت شبه مغلقة على ذاتها تقليديّاً: فهناك العائلات السبع أوّلاً (أمراء آل أرسلان، جنبلاط، العماد، تلحوق، عبد الملك، النكدي، مزهر) التي جمعت بين ملكيّة الأرض الواسعة والسلطة السياسيّة في هذه الفترة أو تلك. ولربّما كان بشير جنبلاط، في القرن التاسع عشر، أبرز من مثّل تلك العائلات بنفوذه الذي نافس نفوذ بشير الشهابيّ وبملكيّاته التي شملت ١٣٣ قرية. وهذا علماً بأنّ معظم العائلات المذكورة بدأ يفقد نفوذه وسطوته منذ الاستقلال. ثمّ هناك عائلات "رؤوس العاميّة" أو "القصبات" (حمادة، تقيّ الدين، هرموش، القاضي، العقيليّ، العيد، الحلبي، أبو شقرا، عبد الصمد، الأعور، هلال، صعب، مكارم، روضة، طليع، عزّ الدين، علم الدين، خير الدين، أبو علوان، شقير، أبو حمزة، عطا الله وسواهم...)، وهي ذات الملكيّات الزراعية والتي تحتلّ مكاناً وسيطاً بين العائلات السبع وسائر العائلات "العاميّة". وأخيراً، هناك العاميّون.

على أنّ التقسيم هذا لا يستنفد تركيب الدروز البالغ المراتبيّة ولا يستوفي تعقيده. فثمّة، مثلاً، عائلات قديمة ظلّت تعتبر نفسها رمزيّاً أعرق وأهمّ ممّا عداها. يصحّ ذلك في من وجدوا لأنفسهم أصولاً تنوخيّة وبحتريّة، كآل ناصر الدين وأمان الدين والقاضي. وقد مضى بعض هؤلاء، حتّى بداية القرن الماضي، يرفضون التزاوج مع الجنبلاطيّين باعتبارهم أدنى شأناً منهم، على رغم غناهم ونفوذهم السياسي، فيما تزاوجوا مع آل النكدي الذين سلّموا لهم بالأقدميّة. وبدورهم كان آل مزهر أهمّ في الترتيب الرمزيّ ممّا في الترتيب الفعليّ للقوّة والثروة والنفوذ، فخضعوا لحماية آل جنبلاط وانحصر نفوذهم في حمّانا.

لكنْ عموماً درجت العائلات على حصر التزاوج في الخانة التي تنتمي إليها، وهذا ما كان الأصعب على الشريحة الوسيطة منها التي لا تتزاوج مع العاميّين، من دون أن يتاح لأبنائها التزاوج مع العائلات السبع. بيد أنّهم، وقد حصروا زيجاتهم في ما بينهم بما راح يهدّدهم بالانكماش، صاروا يتزاوجون مع مَن هم "دونهم". وإلى تقويض هذا المرتكز الداخليّ شبه الكاستيّ للحياة الدرزيّة، شرعت تتزايد نسب الزواج من خارج الطائفة. وكان أحد أسباب هذا التحوّل دراسة شبّان دروز في بلدان الكتلة السوفياتيّة السابقة واقترانهم بفتيات منها.

إلاّ أنّ التحوّلات الاقتصاديّة الاجتماعية والتعليميّة لا تنعكس، على ما يبدو، على الحياة السياسيّة للشوف وسائر المناطق الدرزيّة. فوليد جنبلاط يبقى الأوّل هناك ويبقى الأخير، ثابتاً راسخاً كما لو أنّه من طبيعة الأشياء. ولسوف يكون من الصعب الخوض في كلام لا يرد فيه اسم جنبلاط، أكان الموضوع الذي يجري تداوله كبيراً أم عاديّاً بسيطاً.

أمّا السبب وراء صمم السياسة والزعامة عمّا يجري في المجتمع فيردّه سناء أبو شقرا إلى واقع الطوائف وفكرة العدوّ، بحيث "تختفي التناقضات الطبقيّة داخل الطائفة أمام العدوّ الخارجيّ للطائفة".

فالأمن، أمن الطائفة، يأبى أن تتفكّك الزعامة الحامية. ويرى الباحث نائل أبو شقرا أنّ المجتمع الدرزيّ "بسبب من حدّته"، يتّكل على من يراه منقذاً، وحتّى المثقف "حين ينصهر في الجماعة يتبنّى خطاب الجماعة". ذاك أنّ الشعور بالانتماء الطائفيّ شعور بالقوّة والاعتزاز.

فكيف وأنّ "البيك"، هناك، أب بطريركيّ قبل أن يكون مستثمراً، الأمر الذي يحاصر التناقضات ذات الطبيعة الاقتصاديّة بينه وبين جمهوره. فبحسب سناء أبو شقرا يوجّه "الإقطاعيّون" في الشوف أنظارهم في الاستثمار صوب مناطق أكثر خصوبة في الساحل، أي إن "الإقطاعيّ" لا يمارس وظائفه الاقتصاديّة على أبناء منطقته المباشرين.

والحال أنّ القصص الشائعة عن توزيع كمال جنبلاط أراضي وقرى على الفلاّحين تزيد في إضعاف الثنائيّة المتداولة عن "الإقطاعيّ" والفلاّح في الشوف نفسه.

وهذا، على عمومه، يغذّي ما يعتبره نائل أبو شقرا حبّ الدروز لواحديّة التمثيل التي تمنع الصراع في ما بينهم أو تكبحه. فكأنّما الانقراض أفق التنازع الداخليّ، فيما شرط البقاء استبعاد الخلاف. هكذا، مثلاً، يقول نمّور عن جامعته إنّ "السياسة ممنوعة" فيها، وهو ما بات مستغرباً في الجامعات وطلاّبها المسيّسين. كذلك يُخبرنا القيّمون على نادي بتلون الذي يعود تأسيسه إلى ١٩٦٣، والذي نشأت عنه ثانويّة رسميّة هي موضع افتخار سكّان المنطقة، أنّ النادي "حرّم السياسة" منذ نشأته، ولهذا استطاع أن يعيش هذا العمر المديد وأن يزدهر.

تاريخ متحوّل

على أنّ الحال لم تكن هكذا دائماً. فالدروز لم يُعرفوا في السابق بتلك الوحدة التي تُنسب إليهم كما لو أنّهم، ومن دون انقطاع، جسم مغاير لسائر الأجسام. وفي المعنى نفسه، لم يكن آل جنبلاط دائماً زعماءهم الذين تفيض زعامتهم عن المراحل التاريخيّة وظروفها المتفاوتة.

فقد تعرّض الدروز لتحوّل كبير تمثّل في انتقالهم من الإمارة إلى المتصرفيّة بعد ١٨٦٠. ويروي المحامي المولع بالتاريخ سليمان تقيّ الدين أنّهم شهدوا، مع المتصرفية، تشكيل إدارة في جبل لبنان عبّرت عن عشرات العائلات التي نافست نفوذ "الإقطاع"، فتراجعت أُسر أرسلان وجنبلاط وصعدت الأُسر الوسيطة. ثمّ، ووفقاً لتقيّ الدين، نشأت المدرسة الداوديّة التي خرّجت وجوهاً درزيّة جديدة، وقد درست نخبة الدروز، إبّان المتصرفيّة، في مدارس مارونيّة كالحكمة وعينطورة، ومع العهد الاستقلاليّ في الليسيه الفرنسيّة. قبل ذلك، في فترة الانتداب، انجذبت أكثريّة الدروز إلى ثورة سلطان الأطرش في ١٩٢٥ وشاركت فيها، ضدّاً على مواقف فؤاد ونظيرة جنبلاط. أكثر من هذا، عرفت بيوت آل جنبلاط أنفسهم نزاعات ومنافسات في ما بينها، وفي عهد المتصرفيّة كانت زعامتهم الأبرز في عهدة جنبلاطيّي صيدا – البراميّة. ثمّ في الأربعينات، وقبل أن تترسّخ مكانة كمال جنبلاط السياسيّة، كانت الأرسلانيّة المظلّة الدرزيّة الأكبر، خصوصاً أنّ كمال كان أوّل المتعلّمين في عائلته بينما معظم رموز الأرسلانيين، وفي عدادهم شكيب وعادل، كانوا متعلّمين ومثقّفين.

لقد وسّعت الجنبلاطيّة دورها في ١٩٥٨ بدعم جمال عبد الناصر وفؤاد شهاب. وبعد عامين رُسم الشوف دائرةً انتخابيّة يتربّع عليها كمال جنبلاط، مثلما رُسمت عاليه دائرة أخرى للأمير مجيد أرسلان. إلاّ أنّ هذه الثنائيّة لم تختصر التعدّديّة، فبقيت في المتن الجنوبيّ زعامات عائلات الأعور ومزهر وصالحة، وفي راشيّا الداوود والعريان. وإذ بقيت حاصبيّا تابعةً لنفوذ الأرسلانيّين، ظلّ بهيج تقيّ الدين، حليف جنبلاط في الشوف، ممثّلاً لزعامة مستقلّة نسبيّاً.

وبدوره استمرّ التفويض الدرزيّ الممنوح لكمال جنبلاط مشروطاً ونسبيّاً. فهو، مثلاً، وعلى ما يذكّرنا تقيّ الدين، افتقر إلى المقاتلين الذين احتاج إليهم في ١٩٧٦، سنة

صدامه المفتوح مع سوريّة، حيث وقف كثيرون من الدروز مع دمشق.

واحديّة التمثيل والزعامة

وبحسب عادل عبد الصمد، النقابيّ السابق ومؤسّس "المنتدى الأدبيّ" في عمّاطور، بدأ مسار جديد مع مقتل كمال في آذار (مارس) ١٩٧٧. ذاك أنّ القوّات السوريّة قتلت "شخصيّة عالميّة" هي موضع افتخار الدروز جميعاً، بمن فيهم من لم يؤيّدوا جنبلاط. إلاّ أنّ واحديّة الزعامة ولدت مع حرب الجبل الدرزيّة – المسيحيّة أوائل الثمانينات. فآنذاك شرع يختفي الانقسام اليزبكي – الجنبلاطيّ الضارب في الانشطار القيسيّ – اليمنيّ القديم.

والحال أنّ حرب الجبل أتاحت لوليد جنبلاط أن يقتل الأب بالمعنى الفرويديّ للكلمة. فهو عبّأ الدروز جميعاً وحوّلهم كتلة متراصّة سبق للشاعر الزجليّ طليع حمدان أن وصفها في زجليّته "الملحميّة" الشهيرة. وهم، بدورهم، وبسبب تلك الحرب، أعطوه ما لم يعطوا لأيّ زعيم.

وهو ما كان له قبلٌ وبعد. فقد نشأ الإرهاص المبكر بالوحدة الدرزيّة في ١٩٧٢، حين توصّل كمال جنبلاط ومجيد أرسلان إلى تشكيل لائحة موحّدة في عاليه. وهذا ما لم يعمّر طويلاً، إذ ضربته انقسامات حرب السنتين جاعلةً منه ذكرى قابلة للاستعادة في ما لو توافرت شروطها. وبالفعل وفّرت حرب الجبل تلك الشروط، خصوصاً وقد ترافقت مع وفاة معظم الزعماء الدروز الآخرين أو هرمهم. بعد ذاك كان كلّ تحوّل يفيض بثماره على وليد جنبلاط. فغياب الدولة يفيده لأسباب واضحة، فيما حضورها، بعد اتّفاق الطائف، وفي ظلّ الرعاية السوريّة التي كان حليفاً لها، يفيده أكثر.

من الطائفة إلى الطائفة

إذا صحّ أنّ حساسيّة البقاء أقوى الحساسيّات الدرزيّة، صحّ أنّ وليد جنبلاط خير من يمثّل الحساسيّة تلك. فهو سليل العائلة التي تتولّى زعامة طائفتها إبّان النزاعات والحروب،

على ما كانته الحال في ١٨٦٠. وهو في سنوات السلم الظاهريّ والبارد، وهي معظم التاريخ اللبنانيّ، السائر الدائم على حدّ السيف، ما يجعله صاحب طريقة في سياسة لبنانيّة لا تحتلّ القيم والمبادئ موقعاً أساسيّاً فيها.

ولئن نجح جنبلاط مؤخّراً في التحوّل عن ١٤ آذار من دون أن ينضوي في ٨ آذار، نجاحه في الجمع بين مناكفة حزب الله وتأييد "المقاومة"، فهو في حرب الجبل تعاون، مثله مثل خصومه الموارنة، مع الإسرائيليّين، إلاّ أنّ تعاونه كان أشدّ تركيزاً وأكثر وظيفيّة وفعاليّة من تعاونهم. وأبعد من هذا أنّه متّن، في موازاة سلوكه ذاك، تحالفه العسكريّ والسياسيّ المفتوح مع سوريّة. وفي هذه الغضون أرفق سياساته المناهضة لإسرائيل ولـ"الانعزال الطائفيّ" بلغة تستوحي إسلاميّة جدّه لأمّه شكيب أرسلان، مثلما تستوحي أباه كمال في حقبة "الحركة الوطنيّة". بيد أنّ العين كانت دائماً على التوازنات الفعليّة والدروب الآيلة إلى تحقيق النصر، لا على اللغة التي تغطّيها: "ففي أزمنة الحرب نسمّيه زاباتا، وفي أزمنة السلم نسمّيه سانتا ماريّا"، على ما يقول مثل مكسيكيّ.

الواقع وتمويهه

ربّما كان ممّا يميّز زعامة وليد جنبلاط عن زعماء لبنانيّين كثيرين، بمن فيهم والده، أنّ تمويهه الواقعَ بالإيديولوجيا طفيف جدّاً. فهنا لا تُستخدم "المقاومة" ولا "الوطنيّة" أو سواهما إلاّ لماماً لمواربة الهدف الطائفيّ الصريح. وهذا ما يسهّل انتقال جنبلاط من موقع إلى آخر بأقلّ قدر من حمولة الأعباء، فيما يقوّي لديه قدرة وظيفيّة على النسيان، إذ ليس ثمّة ما تُشحن به الذاكرة أصلاً.

فلقد أنشأ كمال جنبلاط "الحزب التقدميّ الاشتراكيّ" في ١٩٤٩، ومن بعده "جبهة الأحزاب والقوى" فـ"الحركة الوطنيّة"، في الستينات والسبعينات، لتكبير حجم الطائفة الدرزيّة الصغيرة وتكثيره. إلاّ أنّ وليد لم يُضطرّ إلى هذه المداورة. صحيحٌ أنّ النظام السوريّ كان ليردعه عن مثل هذه الخيارات "الوطنيّة" لو حاولها، غير أنّ توقّعه مثل هذا الردع أعفاه أصلاً، غيرَ آسف، من مهمّة كهذه. ذاك أنّ "الوطنيّة"،

بمعناها ذاك، غدت مكلفة جدّاً فيما الوجود السوريّ يُشرف من فوق، وحزب الله يقضم من تحت.

بعد ذاك تولّى اغتيال رفيق الحريري تقديم وليد جنبلاط زعيماً عابراً لطائفته، وكان بهذا يسدّ فراغاً قيادياً خلّفته زعامة سعد الحريري. وبدوره كسب زعيم الشوف ودّ البيارتة السنّة الذين كانوا، في الثمانينات، يحقدون على الميليشيات العابثة بالعاصمة، ومنها ميليشيا حزبه، كما كسب ودّ كثيرين من المسيحيّين الذين خاض ضدّهم حرب الجبل. لكنّ ١٤ آذار تحوّلت، هي الأخرى، عبئاً في أيّار ٢٠٠٨، حين غدت الترجمة العنفيّة للانقسام السياسيّ حادّة ومباشرة.

وبعدما درج كمال جنبلاط على أن يقدّم مرشّحين للانتخابات في معظم محافظات لبنان ودوائره، ومن مختلف الطوائف، من نجدت هاجر وتوفيق سلطان السنّيّين في طرابلس، إلى فريد جبران المسيحيّ في بيروت ومحمّد عبّاس ياغي الشيعيّ في بعلبك، عزف نجله عن هذه العادة التي تشتّت الجهود مركّزاً على الدروز وحدهم. كذلك بعدما كان كمال يزيّن حزبه بقيادات غير درزيّة، كنسيم مجدلاني ومحسن دلّول وعبّاس خلف وتوفيق سلطان، وقبلهم عبدالله العلايلي وكلوفيس مقصود وموريس صقر، باتت قيادات الحزب، اليوم، ذات أكثريّة درزيّة كاسحة.

"بَلاط مفتوح"

لكنّ مهارة وليد هذه لا تختزل سائر مهاراته. فهو، كي يرأب الصدع التقليديّ والعصبيّ بين الدروز الذين خاضوا معاً حرب الجبل، اختار نوّابه من عائلات اليزبكيّين، العريضي وشهيّب وحمادة، المناوئة تقليديّاً للمختارة. لكنّه أيضاً، ومنذ البداية، حرص على ملء "الحصّة" الدرزيّة في الإدارة بكوادر وموظّفين معظمهم يزبكيّ، كما فعل الشيء نفسه في اختياره قيادات حزبه.

وهو لم يقتصد في استثمار ضعف الزعامات التي طرحت نفسها منافساً، وفي الإفادة من تناقضاتها وتعثّر خياراتها. فقد بدأ بقضم الزعامة الأرسلانيّة مستفيداً من عزوف رئيس الجمهوريّة يومذاك أمين الجميّل عن احتضان فيصل أرسلان. أمّا أخوه

طلال أرسلان، فكان ما سهّل الانقضاض عليه أنّه "لم يفهم المزاج الدرزيّ"، بحسب عارف بالخريطة السياسيّة للجبل. لقد ماشى طلال السوريّين وحزب الله، ضدّاً على ذاك المزاج، فيما كان لضعف مواصفاته الشخصيّة أن جعل "كتفه لا تقوى على حمل الثقل الأرسلانيّ". ومن ناحيته فجنبلاط المتربّص خبير بأكل الأكتاف.

وإذا بقي وئام وهّاب حالة خارجيّة تفسّرها الخدمات التي يقدّمها له حزب الله، لم يحاول أغنياء الدروز الطامحون تحدّي وليد، والشيء نفسه يقال عن الطامحين من المتعلّمين المصابين بإحباط مديد ناجم عن انسداد الآفاق في وجوههم.

ولئن قدّر المحامي سليمان تقيّ الدين المعارضة لزعيم المختارة بثلث الدروز، بقي أنّ هذا الثلث موضع تجاذب بين زعامات صغرى كثيرة في الشويفات وعاليه والمتن الجنوبيّ وحاصبيّا. وتجاذبٌ كهذا يفتّت ذاك الثلث ويلغيه كفاعل سياسيّ.

ثمّ إنّ وليد جنبلاط، في نَحته زعامته، جدّد طرقاً وأساليب فيها، مثلما حافظ على البعض الآخر الموروث عن والده. فهو وسّع نطاق الخدمات التي تُقدّم لأفراد وعائلات ومؤسّسات، إذ أدخل عليها التقديمات النقديّة التي كان الأب المتقشّف يتعالى عليها، والتي لم تكن تنسجم مع حياة درزيّة تميل إلى التعفّف والاقتصاد. وهو، عبر دعمه البلديّات، بات يساهم في مشاريع ويؤمّن مولّدات كهربائيّة للإنارة والريّ، مستثمراً لهذا الغرض علاقاته مع بلدان الاتّحاد الأوروبيّ والدول المانحة لمشاريع ريفيّة.

بطبيعة الحال بنى وليد على الخدمات الكثيرة التي سبق لكمال أن وفّرها. فالأخير، مثلاً لا حصراً، شغل الوزارات الخدميّة، لا سيّما الأشغال العامّة، في حكومات عدّة، وغالباً ما كانت جبهته النيابيّة تتمثّل بأكثر من وزير واحد. وبفعل علاقاته مع البلدان الاشتراكيّة السابقة، ساهم في تعليم الكثيرين في تلك البلدان.

كذلك ورث النجل عن الأب بعض ممارسات الزعامة التقليديّة، كالحضور الشخصيّ في مناسبات العزاء، وعدم التدخّل في السلطة الأخلاقيّة للمشايخ، علماً بأنّها ترتّب أكلافاً باهظة على الحياة الاجتماعيّة للشوفيّين. ففي بعقلين المحافظة لا مكان للسهر مثلاً، ومَن شاء أن يفعل كان عليه النزول إلى بيروت، وربّما إلى دير القمر المسيحيّة المجاورة. أبعد من ذلك أنّ مدارس العرفان الدينيّة تخرّج اليوم، بحسب هيثم نمّور،

ثلاثة آلاف تلميذ سنويّاً على الأقلّ.

إلاّ أنّ وليد، في المقابل، يرعى ما يسمّيه الناشط والأكاديميّ مكرم رباح "بَلاطاً مفتوحاً" لتعدّد عريض النطاق ولمروحة من الاهتمامات تعثر دائماً على من تخاطبه. وفي السياق هذا يُستخدَم لون من الشبابيّة التي لا تخلو من إثارة المفاجأة. فهناك اكتراثه بالبيئة وهندسة العمارة، بحيث يقول الصناعيّ طارق حسن مفتخراً إنّ "وليد بك يمنع قطع شجرة أو رمي كيس على الطريق". وغالباً ما يشار إلى تشجيعه رؤساء البلديّات التي تُزعّمه عليها على حضّ السكّان كي يبنوا بيوتاً سطوحها من قرميد. وهو، على ما يبدو، يساهم ماليّاً في ذلك.

وفي مواكبة منه لاهتمامات تفيض عن المألوف التقليديّ، يقرأ وليد صحفاً أجنبيّة وينثر أسماء كتّاب وعناوين كتب بين مجالسيه، فضلاً عن استضافة صحافيّين غربيّين أو مصادقتهم. ولا يخلو أمره من استعراض هوايات ليس التعلّق بهذا الغادجيت أو ذاك بعيداً عنها. وبدورها، فإنّ زوجته نورا تضفي على زعامته بُعداً اجتماعيّاً، سياحيّاً وبيروتيّاً، يقوّي حضوره في صالون "البورجوازيّة اللبنانيّة" العابرة الطوائف.

وقد جعل الزعيم الدرزيّ الحزبَ الذي ورثه يستوعب صعود المتعلّمين والطامحين الدروز. وهناك أكثر من وائل أبو فاعور واحد، هو الذي وصل إلى النيابة فالوزارة من موقعه الحزبيّ في الحركة الطلاّبيّة. لقد وسّع الحزب لهؤلاء أكثر كثيراً ممّا فعل كمال حين كان يعهد لغير الدروز بمواقعه القياديّة التجميليّة.

هكذا بات في وسع مُدافع عن وليد جنبلاط أن يراه القوّة "الأكثر تقدّماً" في البيئة الدرزيّة، خصوصاً أنّ الأحزاب التي كانت تنسب التقدّم إليها ضمرت وذوت تباعاً. فالحزبان الشيوعيّ والسوريّ القوميّ الاجتماعيّ اللذان تمتّعا بقوّة لا يستهان بها في الشوف في العقود الماضية، انتهيا على نحو بائس: الأوّل صدّعته الانقسامات الداخليّة الكثيرة، وليس من دون دلالة أنّ أكثريّة الشيوعيّين الدروز انحازوا إلى المعارضات الشيوعيّة وإلى جماعة "اليسار الديموقراطيّ"، مستأنفين الوقوف على أرض قريبة من أرض وليد. أمّا الثاني الذي لطالما اعتدّ بحضور هائل لا سيّما في بعقلين، فانتهى بؤراً متناثرة وقليلة الفعاليّة.

ثقة مطلقة ونقد حادّ

إذا كان من الصعب تجاهل البراعة التي يدير بها وليد جنبلاط زعامته، وكثرة أعينه التي ترصد شؤونها، فمن الصعب أيضاً عدم الانتباه إلى ثقة بالنفس تلغي كلّ حاجة إلى توكيد الزعامة. ذاك أنّ منطقة الشوف مثلاً تخلو خلوّاً تامّاً من الصور والملصقات والشارات التي تعجّ بها مناطق لبنانيّة أخرى. وعلى مستوى آخر، يحلّ في بيت الطائفة الدرزيّة واثقاً مطمئنّاً حليفه الشيخ نعيم حسن، لا شيخ العقل الآخر، القريب من طلال أرسلان، نصر الدين الغريب. ويتحوّل وليد، على ما بات وصفاً شائعاً في الصحافة، "بيضة قبّان الحياة السياسيّة اللبنانيّة". وهذا التموضع، في الطائفة كما في السياسات الوطنيّة العامّة، يريح الدروز عموماً، سيّما وأنّه لا يحرمهم التعبير عن مشاعر وحساسيّات يؤثر جنبلاط ألاّ يعبّر عنها شخصيّاً.

ومن دون مبالغة يمكن القول إنّ وليد جنبلاط ليس "زعيماً درزيّاً"، بل هو زعيم الدروز العابرين للحدود الوطنيّة. وفي ذلك استفاد من الوضع الملتبس لطائفته في إسرائيل، كما من المصادرة المديدة للزعامات الدرزيّة السوريّة في ظلّ نظام البعث الأمنيّ والعسكريّ.

لكنّ هذا كلّه لا يلغي ظهور انتقادات بالغة الحدّة في بيئة معارضيه. هكذا يقول أحدهم إنّ "ما من أحد يتوظّف في الشوف من دون الذهاب إلى المختارة"، ويضيف أنّ وليد يترك الواجهة الأمنيّة للمخفر والقضاء، إلاّ أنّ المسائل الأساسيّة يحلّها بنفسه. ويحدّثنا آخر عن أنّ "مدرسة عمّاطور لا يُسمح لها بأن تصير ثانويّة بسبب الخوف من اتّساع التعليم فيها ومن الماضي الحزبيّ لأبنائها". ويتحدّث ثالث عمّا يسمّيه ابتزاز وليد لكلّ مَن ينوي الاستثمار في المنطقة، وهو ما يحصل بالتخويف أو بفرض خوّة باهظة، مشيراً بالاسم إلى بعض ضحايا هذا السلوك. ذاك أنّ وليد "يعطّل كلّ مشروع لا علاقة له به ولا يستطيع، في الوقت عينه، أن يبتزّه".

وإذ يذكّر البعض بقصص المال والمحاسبات الماليّة التي ترشح دائماً من أخبار علاقاته بأقطابه ومعاونيه، يشير آخرون إلى أنّه لا يتردّد في تهديد كلّ من قد يفكّر في الترشّح ضدّه أو ضدّ حلفائه. وهو، بحسب واحد من نقّاده، لا يحتمل ثانياً له. فهو، مثلاً، لا يريد مروان حمادة نائباً يمارس موقعه السياسيّ في الشوف، بل يريده

حصراً نائباً يمارس نيابته في بيروت والخارج.

تواطؤ وتكامل

على أنّ السياسات المعلنة لوليد جنبلاط، بما فيها تقلّباته الوظيفيّة، لا تتعادل تماماً مع المشاعر الدرزيّة التي تترجّح بين الخفاء والإعلان. فأحياناً تذهب هذه المشاعر أبعد ممّا تبلغه تلك السياسات، وأحياناً تتكتّم السياسات على المشاعر تلافياً لحرج قد ينجرّ عنه خطر أو تورّط غير محسوبين.

في الحالة الأولى ينتقد الدروز وليد جنبلاط على حكمته، وفي الحالة الثانية يتصرّف الأب تصرّف الخائف من تهوّر أبنائه أو من شجاعتهم. ولأنّ الحكمة والشجاعة صفتان إيجابيّتان، تضيق مجدّداً الهوّة بين الناقد والمنقود فلا يبقى إلاّ تنافر جزئيّ بين طائفة تقدّس الشكل وزعيم لا يعبأ بأيّ شكل.

هكذا يلوح أنّ تواطؤاً داخليّاً عميقاً يحكم العلاقة بين الـ"فوق" الذي يقال وا لـ"تحت" الذي يُحسّ، وأنّ التكامل هذا هو ما تُكتب له الغلبة في اللحظات الحاسمة.

فمعظم الدروز الشوفيّين الذين تحدّثنا إليهم أجمعوا على أنّ يوم ٧ أيّار ٢٠٠٨ كان يوماً مفصليّاً في حياة الطائفة واقتناعاتها، فيما ربطه بعضهم الأكثر حماسة بالكرامة الدرزيّة. حتّى الشاب الذي عاش طويلاً في الخارج وصار يتكلّم العربيّة بصعوبة، قال إنّه حمل السلاح يومذاك "دفاعاً عن عِرضنا". وقد تركَنا هذا الشابّ الذي يجد كلمة table أسهل نطقاً عليه من كلمة طاولة، على شيء من الحيرة، إذ من أين جاء بمفردة "عِرض" التي يصعب أن يكون لها معادل في اللغات الأوروبيّة؟!

واقع الحال أنّ التباين بين أجيال الدروز، حيال ما يتراءى لهم أمورَ مصير وبقاء، لا يكاد يُلحظ. والراهن أنّ يوم ٧ أيّار، حين قاتلوا بالسلاح المتوافر ومن دون أن يكونوا مدرّبين، دفع الكثيرين من شبّانهم إلى الدين والإيغال في التديّن. وإذا كان سهلاً ربط التديّن بحروب الهويّة والمصير عموماً، بقيت هناك تفاصيل مهمّة لجلاء المشهد هذا. ذاك أنّ المشايخ، لا سيّما في الشويفات، نقطة الاحتكاك الأبرز مع الشيعة وحزب الله، بدوا منظّمين مع اندلاع القتال، فشكّلوا لسواهم نموذجاً مرغوباً. لهذا أقدم كثيرون

على ترك "ملذّات الحياة" وراحوا "يقرأون في الدين ويذهبون كلّ خميس مساءً إلى الخلوة، فضلاً عن ارتداء الزيّ الخاصّ بالمشايخ".

وثمّة من ذهب أبعد، فحدّثنا عن نشأة عادات مستجدّة على الطقوس الدينيّة بعد ٧ أيّار، وأنّ تلك العادات تنحو إلى تقريب الممارسات الدرزيّة من ممارسات الإسلام السنّيّ. ففضلاً عن الارتياح التاريخيّ للسلطنة العثمانيّة، يزكّي الحاضر تلك اللوحة في رسم التحالف والتعاطف الدرزيّين. ذاك أنّ "تيّار المستقبل"، كما وصفه أحدهم، ليس هجوميّاً أو توسّعيّاً. صحيح أنّ المشاكل مع سعد الحريري لم تكفّ عن الظهور، خصوصاً بسبب احتكاك الجسدين السياسيّين في إقليم الخرّوب، المجاور للشوف، إلاّ أنّ تلك تبقى خلافات قابلة لـ"الحوار" وشديدة البعد عن أن تتحوّل عنفاً.

"تنظيم المشايخ"

وفي هذا السياق ثمّة كلام كثير يُتداول عن "تنظيم المشايخ" الذي يقال إنّه غامض وذو تمويل غامض، والذي لعب دوراً ملحوظاً في معركة الشويفات. فهو ينتشر هناك في مناطق التماسّ مع الشيعة أكثر ممّا في الشوف. ويغمز البعض من أنّ التنظيم المذكور يحظى بغضّ نظر جنبلاطيّ يراعي المساحات التي يُخليها الزعيم الدرزيّ لرجال الدين "الراديكاليّين" القابلين للاستخدام حين يحين أوان استخدامهم. فوليد لا يسلّح، لكنّ شعاره "خلّوا أعينكم مفتوحة للدفاع عن أنفسكم" يخلق التباساً مفيداً للجميع. وفي المقابل، فالشيوخ التقليديّون المتحفّظون على وليد لأسباب شتّى، يتعاملون معه باعتباره ضرورة ماسّة للطائفة ولكيانها، خصوصاً أنّه لا يتدخّل في أمور القيم ونوعيّة الحياة، أي السلطة الثقافيّة المتروكة لرجال الدين.

كذلك يتحدّث البعض عن حركة الداعي عمّار بزعامة علاّم نصر الدين الذي قتل في تلك المجابهة مع حزب الله ليرثه نجله. لكنّ هؤلاء، على ما يبدو، أقرب إلى جماعة أصوليّة متشدّدة لا يستسيغها المشايخ التقليديّون، علماً بأنّهم، بحسب البعض، يعدّون ما بين ٤٠٠ و٥٠٠ نفر.

لقد قتلوا ناصر العيتاوي، أحد القادة العسكريّين لحزب الله في معركة الشويفات،

ثمّ قُتل عدد منهم، ليرتسم خطّ كثيف وحادّ للعداء والتباغض. وكان ما عزّز وحدة الاصطفاف الطائفيّ في المواجهة هذه أنّ حزب الله اتُّهم، بعد أشهر قليلة على توقّف المعارك، باغتيال صالح العريضي، المسؤول العسكريّ في "الحزب الديموقراطيّ اللبنانيّ" لطلال أرسلان المحسوب حليفاً للحزب الشيعيّ.

والمؤكّد أنّ العداء للشيعة حالة شعبيّة جامعة بين الدروز اليوم. فبيع الأراضي لهم، بعد ٧ أيّار، صار أقرب إلى محرّم، لا سيّما في الشويفات وجوارها. ومَن يُسأل منهم عن ذلك يحمّل المسؤوليّة الحصريّة لحزب الله الذي استهدف "مناطقنا"، و"حاول لغرض الهيمنة أن يربط قريتي كيفون والقماطيّة الشيعيّتين في قضاء عاليه".

ومن موقع المراقب يشرح سناء أبو شقرا ما يسمّيه "قلق الدروز من أيّة طائفة مسلّحة"، ولأنّ الشيعة اليوم هم الفائقو التسلّح، بلغ القلق الدرزيّ حيالهم قمّته الأعلى. أمّا سليمان تقيّ الدين فيعترف بأنّ العداء الراهن الدرزيّ – الشيعيّ فاق بأشواط ما كان عليه العداء الدرزيّ – المسيحيّ إبّان حرب الجبل، "وحتّى الدروز المؤيّدون للمقاومة، لأسباب عقائديّة، ليسوا اليوم مع الشيعة".

"الفارس" و"الفلاّح"

إذا كان الشيعيّ عدوّ الحاضر المشرع على المستقبل، فإنّ المسيحيّ عدوّ الماضي الذي يرغب دروز الشوف في أن يطووا صفحة العداء معه. لكنّ التاريخ يحضر هنا حضوراً ثقيلاً، من محنة بشير جنبلاط، إلى إحراق القرى المسيحيّة والتهجير الواسع في ١٨٦٠، ثمّ تهجير المسيحيّين الصغير في ١٩٥٨ وتتويجه بقتل النائب نعيم مغبغب، فالتهجير الكبير في حرب الجبل، فضلاً عن المقتلة التي حلّت بالمسيحيّين إثر اغتيال كمال جنبلاط في ١٩٧٧. وهي صفحات مريرة تستعصي على الطيّ البسيط وتبادل القُبل.

والحال أنّ شعور "الفارس" الدرزيّ حيال "الفلاّح" المارونيّ انطوى دائماً على تعالٍ ممزوج بالحاجة.

ذاك أنّ فائض التباهي عند "الفارس" وجهه الآخر الافتقار إلى التقاليد التجاريّة والسياحيّة التي تُركت لـ"الفلاّح" وحده. وفعلاً تردّت الخدمات نوعيّاً بعد تهجير

المسيحيّين من الجبل، بحيث نُسب إلى وليد جنبلاط قوله: "كنّا نريد إضعاف المسيحيّين لكنْ ليس إلى هذا الحدّ". فعودتهم اليوم مطلوبة درزيّاً لأنّها وحدها ما يعيد النجّار والحدّاد وصاحب المطعم والمقهى والفندق إلى تلك القرى والبلدات. وهذا ما قد يفسّر، بين أمور أخرى، الارتياح الدرزيّ الراهن لمواقف سمير جعجع وأقواله، في رمزيّة دالّة حيال واحد من أكثر الذين قاتلوا الدروز في حرب الجبل.

بيد أنّ المسيحيّين لا ينوون العودة، ومن عادوا منهم يتراوحون، في أحسن التقديرات، بين ربعهم وثلثهم. ذاك أنّه "ينبغي أن تنشأ في الجبل جاذبيّة اقتصاديّة تشدّهم، وهذا غير قائم"، بحسب مكرم رباح. أمّا سناء أبو شقرا فيرى أنّ المسيحيّين لم يرجعوا "بسبب الفارق بين وضع الشابّ المسيحيّ اليوم، وقد تعلّم وهاجر وأثرى، ووضع أبيه وجدّه. فهو مثلاً لم يعد يسكن البيت الذي سكنه أهله من قبل". وهذا معطوف على أنّه لم يعد يشعر بالطمأنينة لبيئة الجبل بحروبها وأعمال تهجيرها الكثيرة.

سوريّة والسوريّون

ولا يخفي الدرزيّ المتوسّط تأييده الكاسح للثورة السوريّة، وربّما كان المحرّك الأهمّ لهذا التأييد اغتيال النظام السوريّ كمال جنبلاط. وما كان أنكى من الاغتيال، على طائفة فخورة ومُعتدّة، ذاك الاضطرار المديد إلى كتمان الحزن والغضب، وإلى التظاهر، سنة بعد سنة، بالودّ للقاتل.

فالشوفيّون وسائر الدروز نظروا إلى مصالحة وليد جنبلاط والنظام السوريّ على أنّها من أجل البقاء، فيما استعاد بعضهم ما نُسب إلى جدّته الستّ نظيرة من أنّها قالت، حين سئلت عن تقرّبها من الفرنسيّين، "اليد التي لا تقدر عليها قبّلها وادع عليها بالكسر".

ويبدو أنّ تأييدهم الثورة ذهب بعيداً، بحيث تردّدت أخبار عن انتقال عناصر من "الجيش السوريّ الحرّ" واستقرارهم في بعض قرى الشوف بعد هزيمتهم في القصير.

بيد أنّ تأييد الثورة شيء ومسألة العمالة السوريّة "الغريبة" شيء آخر. فـ"العمّال السوريّون الذين كانوا هنا أتوا بعائلاتهم. ففي قرية كعمّاطور مثلاً ارتفع العدد من ٣٠ إلى ٣٠٠، وهكذا باقي القرى". أمّا في بتلون حيث يقيم أيضاً ٣٠٠ عامل و١٠٠

عائلة من السوريّين، فـ"في البداية كان كلّ شيء طبيعيّاً، ثمّ حصلت في البلدة أعمال سرقة وتحرّش ربّما قام بها سوريّون وربّما غير سوريّين. لكنْ من قبيل الاحتياط وحفاظاً عليهم وعلى أشغالهم، منعناهم من مغادرة البيوت بعد الثامنة أو الثامنة والنصف، وهذا معمول به في معظم القرى".

ولا يلبث محدّثنا الذي يعتزّ بموقف وليد جنبلاط من الثورة السوريّة، أن يختم معلناً قلقه "من تكاثرهم"، ومتسائلاً: "كيف ندبّر أمرهم إذا راحوا يتكاثرون؟".

الحياة على إيقاع حربيّ

وعلى العموم تلوح حياة الشوفيّين بسيطة، على رغم التعرّض للتمدين وزخم امتداد الرأسماليّة في العقود القليلة الماضية. وأغلب الظنّ أنّ العداوات والحالة شبه الحربيّة المستدامة، وما تستدعيه من لحمة وتضافر، أقوى أثراً من تلك العوامل التي تفتّت الجماعة وتحيلها أفراداً.

"فنحن"، كما قال أحدهم بخليط من جدّ ومزاح، "نقلّد مشايخنا، والمشايخ حين يتبضّعون لبيوتهم يتبضّعون لعام كامل، إذ يفترضون أنّ الحياة محفوفة باحتمال الحصار الطويل".

والراهن أنّ الوجدان الجمعيّ الدرزيّ عالق هناك في زمن الجماعة المتّصل. ففي الشوف لا تسمع عن إسهامات في الميادين والأنماط الثقافيّة الأحدث عهداً، ويبدو أنّ النشاط الأبرز هناك هو ما ترعاه المكتبة الوطنية في بعقلين، التابعة بدورها لوزارة الثقافة.

بيد أنّك تسمع عن متضلّعين في النحو، وعن مؤرّخين شفويّين، وتقرأ إعلانات تجاريّة عن "سهرات زجليّة كبرى". فكأنّنا أمام تمثيل متواصل لـ"التراث"، أو أمام قطعة من الماضي متروكة في قلب الحاضر تستهوي أيّ أنثروبولوجيّ مفتون بالجماعات أو العادات "الغريبة".

والبساطة هذه تغذّيها أزمة اقتصاديّة مستحكمة يتصدّرها تراجع الزراعة. ذاك أنّه "إن لم يحمل موسم الزيتون فهناك من أهل الطلاّب من لا يستطيعون أن يدفعوا

أقساط أبنائهم". وهكذا يناط بوظيفة الدولة والتجارة الداخليّة، فضلاً عن تحويلات المهاجرين، أن تعوّض بخل الأرض وشحّة الاكتراث بها.

أمّا السياحة في الشوف، وهي ضعيفة أصلاً، فيكفي القول إنّنا تناولنا الفطور وحدنا في قاعة الطعام الواسعة في فندق المير أمين، وهذا علماً بأنّ الفندق المذكور ومهرجان بيت الدين الصيفيّ هما المصدران الوحيدان للدخل السياحيّ في تلك المنطقة.

ويشير غير واحد ممّن التقيناهم إلى ظاهرات تتنامى هناك بسبب التردّي الاقتصاديّ، من نوع تأخّر سنّ الزواج وتراجع نسب الإنجاب. أمّا المديح الوحيد للحياة الاقتصاديّة فأتانا في صيغة سلبيّة، إذ "المصاريف قليلة هنا، على عكس بيروت"، على ما ذكر طارق حسن.

وبيروت، فعلاً، بعيدة جدّاً عن الشوف.

جزين: بؤس التعايش

ذات يوم، قبل ١٩٤٨، كانت المصائف الأبرز في لبنان عاليه وزحلة وجزّين. أمّا البلدات الأخرى، كبحمدون وصوفر، فكانت تهمّ أن تصير كذلك. ولأنّ جزّين غير بعيدة عن فلسطين المتّصلة بمصر، غدت مصيف الباشوات المصريّين وسواهم من المتّجهين شرقاً وشمالاً. هكذا نشأت مبكراً فنادق تحمل أسماء "الأهرام" و"فلسطين"، فيما عرفت المنطقة انتعاشاً لم يتكرّر إلاّ في الستينات والسبعينات، قبل أن يذوي مع حرب السنتين في ١٩٧٥.

وكانت قد جُدّدت البنية التحتيّة للبلدة، فجُرّت المياه في ١٩٢٧، واعتُمد الصرف الصحّيّ في ١٩٤٠. وأهمّ من ذلك كانت البنية النفسيّة للجزينيّين: ذاك أنّ صفات مرنة وقليلة العصبيّة وسمت شخصيّتهم، مثلهم في ذلك مثل جوارهم المسيحيّ في شرق صيدا. فلئن طغى على شمال متصرّفيّة جبل لبنان المارونيّ، في زغرتا وبشرّي، افتخار ابن العشيرة الغاضب، طغى على جنوب المتصرّفيّة المارونيّ، في جزّين، اعتدال ابن العائلة – النواة الذي يهيّئ نفسه للعصر الحديث. وإذا درج الأوّل على إطلاق العنان للسانه تعبيراً منه عن شعور حادّ ألمّ به، لم تفارق الثاني عفّة اللسان واقتصاد سلوكيّ تشارك فيهما مع جاره الدرزيّ في الشمال.

وهذا ما كان منّة الطبيعة التي غدت، في وقت لاحق، لعنتها. فالمحيط المسيحيّ هناك إنّما ولد أصلاً بوصفه منطقة عازلة بين الشوفيّين الدروز والجنوبيّين والبقاعيّين الشيعة الذين أقام أسلافهم في جزّين. وعن موقع كهذا، منوط به امتصاص التوتّر، ينشأ التوسّط بالقدر الذي ينشأ فيه التكيّف.

والحال أنّ معظم أسماء الجزينيّين الذين برزوا في الشأن العامّ يصحّ فيهم النعت

هذا. فزعماء جزّين، من جان عزيز إلى سمير عازار، يوصفون بـ"الاعتدال"، أمّا أحدهم، إدمون رزق، فلم تحلْ كتائبيّته التي دامت عقوداً دون كونه خطيب المناسبات العاشورائيّة. ولئن عُرف الشاعر الكلاسيكيّ بولس سلامة بالملاحم في عليّ بن أبي طالب ومواقعه، فإنّ البطريرك المارونيّ بولس المعوشي اشتُهر بمعارضته عهد كميل شمعون الذي أخذ عليه تطرّفاً في المارونيّة.

وعلى امتداد سنوات الحرب حافظ سياسيّو جزّين، موحّدين أو متفرّقين، على نهج يصون العلاقة مع الجوار، لا الشيعيّ أو الدرزيّ فحسب، بل السنّيّ في صيدا كذلك. وهي مهمّة كانت بالغة الصعوبة في ظلّ احتدام الأوضاع وتشابك ما لا حصر له من عوامل تستحيل السيطرة عليها. إذ، كما قال لنا جزينيّ مُلمّ بأحوال الدنيا، "كيف لنا أن نتحكّم في ما يقرّره الإسرائيليّون والفلسطينيّون والسوريّون والإيرانيّون؟".

الجهد أوّلاً

بيد أنّ سبباً آخر جعل تلك الشخصيّة تكتسب ما اكتسبته من مواصفات. فالجزينيّون لم يكونوا من المحاربين والعصاة أو الطفّار، بل نشأوا نشأة فلّاحين. والقضاء كلّه، وهو الحدود الجنوبيّة للمتصرّفيّة، كان ملكاً لآل جنبلاط الذين ورثوا بيت القاضي. ويروي الأستاذ الجامعيّ الياس قطّار أنّ السكّان الذين انتقلوا إلى جزّين وجوارها إنّما فعلوا بوصفهم شركاء لكبار الملّاكين، فأحرزوا ما أحرزوه بالعمل والجهد واستصلاح الأراضي. وهذا ما جنّبهم المبالغة والإطناب وعلّمهم درس التوافق مع الآخر، منطقةً كان الآخر أو طائفةً أو طبقة اجتماعيّة، بحيث باتوا يؤثرون حلّ المشاكل بالّتي هي أحسن. "فنحن"، كما يقول أنطوان رزق، رئيس لجنة التجّار في جزّين، "نملك من تركيبنا ومن وضعنا الجغرافيّ ما لا يسمح لنا بأن نختلف مع أحد".

والجزينيّون لا يكتمون ارتياحهم لما هو سلميّ وحديث في حياتهم. فمنطقتهم، وهي قضاء جنوبيّ، تنتمي سياسيّاً واجتماعيّاً إلى جبل لبنان، كأنّها بذلك تستأنف سيرتها في عهد المتصرفيّة. هكذا كانت تيّاراتها السياسيّة امتداداً لما هو سائد في الجبل، بحيث عُرف إدمون رزق طويلاً بكتائبيّته، واشتُهر كلود عازروي بكتلويّته، وانتسب نديم

سالم إلى "حزب الوطنيّين الأحرار" قبل أن ينضوي في "حركة التجدّد الديموقراطيّ". وهي اليوم حيث يعمل المخفر والمحاكم والبلديّات، وحيث تنعدم الجريمة أو تكاد. ذاك أنّ عائلاتها، التي فرّعها انتشار التعليم، كفّت عن التلاحم الانتخابيّ وراء مرشّح بعينه والتعصّب له ضدّاً على عائلة أخرى. وبتواضع، يحتفي أهل جزّين بتاريخهم الحديث، ما يعكسه تمثال صغير ووديع في ساحة البلدة لسليمان كنعان "بك"، عضو مجلس إدارة جبل لبنان وأوّل زعمائهم بعد انقضاء زعامة آل ناصيف.

والحقّ أنّ التمثيل السياسيّ للقضاء نمّ عن الكثير من تلك المواصفات. فلعشرات السنين تعاقب أصحاب المهن الحديثة، لا سيّما منهم المحامين، على مقاعدها البرلمانيّة. وإذا صحّ أنّ القضاء لم يحصل على ما يستحقّه من تصدّر سياسيّ، صحّ أيضاً أنّ المركزيّة الجزينيّة أرحب من مركزيّة بلدات لبنانيّة أخرى. ذاك أنّه، في أواخر الخمسينات، حلّ في البرلمان نائب من قرية البابا الصغيرة هو نقيب المحامين فريد قوزما الذي شغل الوزارة ثلاث مرّات في العهد الشمعونيّ، كما اتّسعت السياسة المحلّيّة لبروز كلود عازوري من قرية عازور، الصغيرة هي الأخرى.

الوجهة المعاكسة

ليس من المبالغة إذاً أن يقال إنّ جزّين مصغّر لبنان في الهشاشة حيال خارج مضطرب. "فنحن"، بحسب أنطوان رزق، "جعلَنا الموقع الجغرافيّ والاعتماد على السياحة، لا نحتمل اهتزاز الأمن في أيّ مكان: فإذا انهار في طرابلس فكّرنا في ما قد يحصل في صيدا، وإذا تردّى في بعلبك أو سواها خفنا من إغلاق المطار". ويضيف جزينيّ سألناه عمّا قد يحدث لبلدته فيما لو اصطدم الشيعة في الجنوب والشرق بالسنّة في الغرب أو بالدروز في الشمال: "يجتاحوننا في طريقهم".

وهذا ما يرفع التعايش، والطلب على الأمن تالياً، إلى سويّة الشرط الشارط لأهل جزّين. غير أنّ الخارج بدأ يضطرب مبكراً. وبحسب الوزير السابق إدمون رزق شرع التدهور يذرّ قرنه مع الانقطاع عن الدولة أواخر الستينات، حين قامت "فتح لاند" وأُسقطت اتّفاقيّة الهدنة، ثمّ ظهر، في ١٩٧٦، "جيش لبنان العربيّ" الذي أسقط

ثكنات الجيش في الجنوب. ورداً على المناشدات بالانضمام إلى تلك الثكنات، طالب رزق قائدَ الجيش حنّا سعيد بإنشاء تجمّع للجيش اللبناني في الجنوب يضمّ أبناء المنطقة بسائر طوائفهم. وفعلاً نشأ التجمّع الذي انضوى فيه ٨٧٠ عسكريّاً ساعدوا جزّين على الصمود. لكنّ أواخر العام ذاته، ١٩٧٦، شهدت مذبحة العيشيّة، على حدود القضاء مع النبطيّة، فقضى على أيدي القوّات الفلسطينيّة واللبنانيّة المتحالفة أكثر من ٧٠ قتيلاً.

حينذاك تداعى سياسيّو جزّين وقادتها إلى إنشاء لقاء عهدوا برئاسته إلى "أكبرنا" جان عزيز، فيما تولّى إدمون رزق النطق بلسانه. وفضلاً عنهما ضمّ اللقاء النائبين فريد سرحال ونديم سالم والمطران إبراهيم الحلو. أمّا الهدف من اللقاء هذا فكان تشجيع السكّان على البقاء في البلدة وتأسيس هيئة أهليّة تطوّق الحوادث وتفضّ النزاعات.

لكنّ أسباب التوتّر ما لبثت أن فاضت بما يغمر القدرات المتاحة. ففي ١٩٧٨ كان الاجتياح الإسرائيليّ الأوّل حيث نشأ الشريط الحدوديّ و"جيش لبنان الحرّ" الذي صار لاحقاً "جيش لبنان الجنوبيّ". وبعد أربعة أعوام كان الاجتياح الأكبر وما تلاه من محنة تهجير الجبل في ١٩٨٣ – ١٩٨٤، حيث هُدّدت جزّين نفسها. وفي ١٩٨٥ كان الانسحاب الإسرائيليّ من الأوّليّ وقد تبعه الفلتان والفوضى وتهجير ما سمّي ساحل منطقة جزّين وشرق صيدا.

وحيال عجز الدولة أمام تلك الأحداث الجسام وتمنّعها عن إدخال جيشها، وفّر "جيش لبنان الجنوبيّ" الأداة الوحيدة للدفاع عن جزّين المسكونة بمذبحة العيشيّة وبأعمال التهجير في الجوار. لكنّه وفّر أيضاً الذريعة لإبقائها في مرمى نيران الجماعات التي تقاتل إسرائيل.

فجزّين بدت عالقة في الفراغ، لا هي مضمومة إلى الشريط الحدوديّ ولا هي في عهدة الدولة التي لا تجرؤ على ضمّها إليها. هكذا بدا طبيعيّاً الإقبال على "لبنان الجنوبيّ"، أو "جيش أنطوان لحد"، دفاعاً عن النفس.

لكنّ تلك الأسباب لا تختصر علاقة الجزّينيّين بالجيش اللحديّ. ذاك أنّ تهجيري الجبل وشرق صيدا قذفا بالآلاف من أبناء المنطقتين المذكورتين إلى جزّين. وهم نزحوا غاضبين ويائسين، ولكنْ أيضاً مُفقرين تركوا وراءهم أملاكهم وأشغالهم وما ادّخروه،

ليقيموا في بيوت جزّين المهجورة ومبانيها العامّة. والحال أنّ أبناء المهجّرين هؤلاء كانوا، بحسب الياس قطّار، أكثر من انضووا، مدفوعين بالحاجة، في قوّات لحد، فيما أبقى بعض الجزّينيّين أبناءهم خارج بلدتهم كي يجنّبوهم التجنيد في تلك القوّات. وبينما كانت الليرة اللبنانيّة تنهار أمام الدولار، وبانهيارها تتقلّص القدرة الشرائيّة للأجور، تقاضى المجنّد في "لبنان الجنوبيّ" ٤٠٠ دولار شهريّاً، ما حرّك الاقتصاد المحلّيّ نسبيّاً، خصوصاً أنّ متقاضي تلك الأجور لا يستطيعون إنفاق نقودهم خارج جزّين.

ذاك أنّ الأخيرة التي أتاح لها موقعها، في أزمنة السلم، العديد من المعابر والممرّات إلى بيروت، أضحت رهينة معبر واحد، يُغلق في الخامسة مساءً، هو قرية باتر الشوفيّة. فمن خلاله وحده استمرّ التواصل المخنوق مع العاصمة بين ١٩٨٥ و١٩٩٩، مثلما استمرّ تواصل الدروز الشوفيّين مع دروز حاصبيّا.

بطبيعة الحال لم يكن الجزينيّون مسرورين بحصارهم وما آلت إليه أمورهم. هكذا يروي القائمقام السابق توني عازار قصصاً لا تنقطع عن بؤس الحياة في تلك السنوات المُرّة. ففي الخامسة مساءً كانوا يلوذون ببيوتهم، يزيد من شعورهم بالاكتهال ذاك التجنيد الإجباريّ الذي يفرّ منه الشبّان ولا يعودون بعد ذاك. وإذ حاصرهم الاختناق، نتج من إعاقات المعابر تردّي الوضع الصحّيّ تبعاً لصعوبات الانتقال إلى المستشفيات. وهذا، كما يضيف عازار، "ما لا تعوّضه بتاتاً المعاشات التي تُدفع للجنود والتنفيعات التي يحظى بها المتعاونون".

لقد خسر قضاء جزّين ٤٠٠ شابّ قُتلوا إبّان الاحتلال الإسرائيليّ، وكانت تمرّ أيّام يدفن الجزينيّون في واحدها ما بين ١٠ و١٥ قتيلاً.

مشيئة "سوريّة الأسد"

لكنّ تلك المحنة المتمادية لم تكن بعيدة عن تصوّر "سوريّة الأسد" لصراعها مع إسرائيل ونظريّتيها الوظيفيّتين عن "الساحة اللبنانيّة" و"تلازم المسارين". فبغضب يعلن إدمون رزق، معلّقاً على تلك الأطوار الدامية، أنّ "الجريمة الأكبر في تاريخ لبنان الحديث كانت عدم إبرام اتّفاق ١٧ أيّار، بسبب صفقةٍ مع السوريّين قضت بإسقاطه، فاتحةً

الباب للفوضى التي مثّلها الانسحاب الإسرائيليّ الأحاديّ". أمّا سيمون كرم، السفير اللبنانيّ السابق في الولايات المتّحدة، فيلاحظ أنّ "سوريّة، منذ المسار الذي ابتدأ بمؤتمر مدريد في ١٩٩١ وتُوِّج بمعاهدة أوسلو في ١٩٩٣، تشدّدت في لبنان عبر تنشيطها العمليّات العسكريّة. لقد عطّلت عرضاً أميركيّاً – إسرائيليّاً للانسحاب من جزّين وفقاً لمعادلة "جزّين أوّلاً". وفي ظلّ التحكّم السوريّ بلبنان خُوّن أهل جزّين عن بكرة أبيهم، وهُدّدوا بالعمليّات التي راحت تتعدّى جيش لحد إلى السكّان المدنيّين، كما كانت تشنّها، فضلاً عن حزب الله، الأحزاب والقوى الأخرى التابعة لدمشق. وبالفعل، صار القضاء الخاصرة الرخوة عند كلّ تعادل ميدانيّ يطرأ بين إسرائيل وحزب الله".

وفي هذه الغضون، وفي ١٩٩٧ تحديداً، أنشئ "لقاء مار روكز" المدعوم من البطريرك نصرالله صفير، والذي ضمّ إدمون رزق ونديم سالم وسيمون كرم وكلود عازوري وشخصيّات، سياسيّة ودينيّة، أخرى. فهؤلاء كانوا، ضدّاً على الرغبة السوريّة، يسعون إلى حلّ لبلدتهم وقضائهم يقوم على انسحاب لحد ودخول الدولة. لكنّ ما لم يحصل في أواسط الثمانينات لم يحصل في أواخر التسعينات. فقد وافق لحد وامتعضت دمشق، صاحبة "تلازم المسارين"، فجبنت بيروت المحكومة من دمشق.

وبالفعل انسحب لحد وقوّاته المثخنة بالجراح صبيحة ١/٦/١٩٩٩، فعوقبت جزّين على انسحابه منها بعدما عوقبت على بقائه فيها. أمّا شكل العقاب فكان، هذه المرّة، الانتقام.

فقد حوكم حوالى ٣٠٠ شابّ ممّن لم يُعامَلوا معاملة سائر الميليشيات بعد اتّفاق الطائف. وهم لئن طالتهم أحكام معتدلة تراوحت بين سنة وثلاث سنوات، فإنّ سجلّاتهم وسجلّات أهلهم بقيت مفتوحة، كما بقي التسلّط عليهم سهلاً، استدعاءً إلى مراكز المخابرات، وتضييقاً في فرص التوظيف، وتحكّماً في مخاتيرهم ورؤساء بلديّاتهم، ومساءلةً عند السفر أو عند العودة.

وإذ رأى سيمون كرم أنّ "هذا السلوك إنّما تمأسس"، ذكّرنا إدمون رزق بقوله أمام المحكمة، فيما هو يدافع عنهم، إنّ "الذين هربوا وفرّوا يتّهمون اليوم الذين صمدوا".

هكذا أقامت الحرب الأهليّة الضامرة، حصاراً ثمّ عقاباً، وراء الصراع المعلن مع إسرائيل. وكان ما ضاعف المرارة أنّ أكثريّة المجنّدين في جيش لحد لم يكونوا جزينيّين

أو مسيحيّين، بل كانوا من الشيعة الجنوبيّين. بيد أنّ ارتباط المقاومة بحزب الله الشيعيّ وفّر لهم عفواً عمّا مضى، في الواقع كما في الرواية. هكذا ارتسمت صورةٌ لمقاوم كامل في مقابل متعاون كامل، فيما كانت سنوات الوصاية السوريّة، وابتزازها المسيحيّين بالتعاون مع إسرائيل، تُحبط تطويرَ أيّة رواية جزينيّة للأحداث يدافع فيها أصحابها عن أنفسهم ويشرحون ظروفهم إبّان الاحتلال. لقد ساد التعثّر والتأتأة في مواجهة الفصاحة الظافرة.

الجوار الصيداويّ

والجزينيّ لا يستطيع، بسبب معاناته مع فائض الجغرافيا، أن يفكّر بنفسه إلاّ من خلال جواره. والحال أنّ التاريخ هناك سخيّ في استعراض ما فعلته الجغرافيا، بدلالة المرارة والألم اللذين تذكّر بهما أحداث ١٨٦٠، وهي التي كانت على وشك أن تتكرّر مع حرب الجبل في الثمانينات. وإذ يلوح الآن أنّ العلاقة بالدروز هادئة ومستقرّة، ترسم العلاقة بالسنّة والشيعة لوحات أعقد.

فمدينة صيدا التي هي سوق الجزينيّين التجاريّ ومقصدهم الخدميّ كانت أيضاً مصدراً لبعض مصطافيهم، خصوصاً منهم الموظّفين وأبناء الطبقات الوسطى والدنيا. وهذا ما حمل الجزّينيّين تقليديّاً على رصد شهر رمضان بشيء من القلق: فإذا حلّ شتاءً كان الأمر بشيراً "لأنّهم سيصطافون عندنا"، وإذا حلّ صيفاً كان نذيراً.

هكذا استلزمت مصلحة الطرفين وتجاورهما علاقة سويّة ومؤدّبة لا تسمو إلى صداقة ولا تنحطّ إلى عداوة. وبقيت هناك، بطبيعة الحال، استثناءات، كمودّة أفراد جزّينيّين لمعروف سعد، نائب صيدا الراحل، الذي كان يصطاف في بكاسين. وهو ما استؤنف، بمزيد من الطقوس والكلفة والبرودة، مع بهيّة الحريري، نائب صيدا الحاليّة، التي تحرص على دعوة وجهاء جزّين إلى مناسباتها العامّة. وعلى العموم، لم ينقطع تبادل "الواجبات" الاجتماعيّة بين أفراد من هنا وآخرين من هناك.

لكنْ، في تلك الغضون، اهتزّت العلاقة اهتزازاً حادّاً في الثمانينات، مع الحرب في شرق صيدا وحواجز القوّات اللبنانيّة التي اضطهدت الصيداويّين وآذتهم من غير أن

تستشير في ذلك الجزينيّين ممّن دفعوا أكلافها لاحقاً. وكان مؤلماً، خصوصاً، هدم المجمّع الضخم، الطبّيّ والتعليميّ، الذي أنشأه رفيق الحريري في قرية كفر فالوس بذريعة أنّه مشروع لـ"أسلمة لبنان".

أمّا اليوم فلا يُخفي أهل جزّين، المرتاحون عموماً إلى صيدا، برمهم ببعض ما يصدر عنها، كـ"حركة" الشيخ أحمد الأسير التي ترتّب عليها، بين ما ترتّب، إرهاب موسم السياحة وإضعافه. "ذاك أنّ موسمنا، يبدأ في ٢٠ حزيران (يونيو)، وفي الوقت نفسه بدأ الأسير حركته هذا العام". كذلك يلاحظ توني عازار أنّ موجة التديّن حدّت من صعود الصيداويّين "كي لا يُتّهموا في مدينتهم بأنهم يشربون عندنا".

لكنّ هذا لا يرقى إلى المشكلة المعقّدة المتّصلة ببيع الأراضي. فهنا، وحيال مخاوف الطوائف الضعيفة من الطوائف الأقوى، ينبغي نسيان كلّ القوانين المعروفة عن الرأسماليّة وسيولة البيع والشراء، وطيّ صفحة الدستور في ما خصّ حقّ اللبنانيّ، أيّ لبنانيّ، في التملّك في أيّة منطقة من لبنان.

ذاك أنّ الجزّينيّين الذين يأتيهم الخوف من تحت الأرض يخيفهم شراء الأرض في قضائهم. فقرية كفر جرّة، مثلاً، القريبة من صيدا "بيع معظمها وأقيمت فيها مجمّعات سكنيّة"، أمّا جائزة الترضية فجسّدتها تسمية الجامع الذي أقيم هناك "جامع عيسى بن مريم". وثمّة من يخشى أيضاً، وامتداداً لحركة الشراء الصيداويّة، أن يشتري فلسطينيّون من عين الحلوة أراضي في جزّين.

الجوار الجنوبيّ

وبحسب الرواية الجزّينيّة اشترى علي تاج الدين، أحد متموّلي حزب الله، ٥ ملايين متر مربّع أقام عليها ٤٧٢ وحدة سكنيّة يسمّيها بعض الجزّينيّين "مستعمرات". وهذه تتخلّلها مراكز تجاريّة تضمّ مزارع دجاج ومصانع موادّ غذائيّة، ما نمّى بلدة كاملة "على أطرافنا، يسكنها شيعة من كافّة المناطق حتّى بعلبك". وهنا أيضاً ثمّة جائزة ترضية، إذ إنّهم، وبأموال قطريّة، رمّموا كنيسة قرية القطران هناك. ويبدو أنّ حركة بيع الأراضي، التي اعترضت عليها بكركي، تلقى حذراً مشابهاً عند دروز الشوف، شمال جزّين،

ممّن يشاطرون الجزّينيّين هواجسهم الأقلّيّة.

صحيح أنّ شراء الأرض الذي يهبّ من صيدا يفوق كمّاً مثيله الجنوبيّ والبقاعيّ، غير أنّ أموراً ثلاثة تجعل الشراء الشيعيّ أشدّ إقلاقاً للجزّينيّين.

– فهو، أوّلاً، ذو بعد أمنيّ مباشر. ذاك أنّ حزب الله أنشأ مواقع عسكريّة له على تلال جزّين، فبات يمنع المزارعين هناك من قطف مواسمهم أو استصلاح أرضهم بحجّة عدم المساس بأمن المقاومة.

وبحسب سيمون كرم، جعل حزب الله جزّين، منذ التحرير في ٢٠٠٠، قاعدة خلفيّة له، إلاّ أنّه حوّلها، بعد حرب ٢٠٠٦، قاعدةً رئيسيّة، ما استوجب تمدّده على تخومها وصولاً إلى البقاع.

– والشراء الشيعيّ، ثانياً، مكتفٍ بذاته، لا يؤدّي إلى أيّ اتّصال بالحياة الجزّينيّة وطرقها. وهذا يخالف الوضع في ما خصّ صيدا، حيث ثمّة مساحات مشتركة وعلاقات قد تتّسع وقد تضيق، بيد أنّها لا تختفي. فحزب الله، الذي بات يتحكّم في الخيار الثقافيّ اليوميّ للشيعة وينشر الحسينيّات في قراهم، يغيب عن كلّ مناسبة يشتمّ أنّ فيها خمراً أو موسيقى وغناءً. وقد حدّثنا أحد الجزّينيّين عن محاولة لمدّ الجسور بعد حرب تمّوز، حيث أقيم احتفال بانتهاء الحرب وعودة الكثيرين من المهجّرين إلى قراهم في القضاء. لكنّ أحداً من حزب الله لم يحضر بسبب اشتمال الحفل على برنامج فنّيّ.

– وأخيراً، هناك الحضور الشيعيّ في قضاء جزّين الذي يرفع، والحال على ما هي عليه من حساسيّات الطوائف، سويّة التوجّس. فثمّة، في القضاء، قرية سنّيّة وحيدة هي بنواتي، وبعض السنّة في قرية الجرمق، وكذلك قرية درزيّة لا غير هي السريرة، وبعض الدروز في قرية عاراي. بيد أنّ أكثر من نصف قرية روم الكبيرة شيعة، كذلك فاق الشيعة في كفرحونة المسيحيّين، بينما معظم عرمتا ومليخا من الشيعة أيضاً. والراهن أنّ الشيعة صاروا خُمس الكتلة التصويتيّة في قضاء جزّين، متفوّقين على الروم الكاثوليك الذين تقلّصوا إلى سُدسها.

صحيح أنّ الذاكرة الجماعيّة للجزّينيّين لا تنطوي على عداء للشيعة. وفي الستينات، حين كان زعيم الشوف كمال جنبلاط متحالفاً مع زعيم صيدا معروف سعد، كان الجزّينيّون "يأخذون روحاً" بزعامة كامل الأسعد في الجنوب. وحتّى مع موسى الصدر،

الذي أثارت حركته بعض قلقهم، ظلّ الدفء يطبع العلاقة ويبدّد المخاوف. إلاّ أنّ حقبة الاحتلال الإسرائيليّ ومضاعفاته أسّست أحقاداً وخلّفت ذيولاً نفسيّة حيال حزب الله. وهذا ما لم يستطع ميشال عون، بتحالفه معه، أن يؤثّر إلاّ سطحيّاً فيه، سيّما أنّ الامتدادات الاجتماعيّة لتحالف كهذا معدومة، لا يتيحها تكوين الحزب المغلق على إيديولوجيّته وطقوسه وعالمه المضادّ.

عون المخلّص

في ساحة جزّين تبدو صورة ميشال عون الأكبر بين صور قليلة لسياسيّين. فزعيم "التيّار" شكّل، في انتخابات ٢٠٠٩، لائحة مكتملة من مارونيّين وكاثوليكيّ اكتسحت المقاعد الثلاثة ومعها بلديّات القضاء. جاء هذا بعد مقاطعة الجزّينيّين الدورات الانتخابيّة السابقة، استجابةً لدعوة الكنيسة المارونيّة ثمّ اعتراضاً على القانون الانتخابيّ الذي ألحق قضاءهم ذا الأكثريّة المسيحيّة بالجنوب الشيعيّ.

هكذا، وبحسب الياس قطّار، قضم "التيّار" الزعامات التقليديّة وبات يمثّل ما بين ٦٠ و٦٥ في المئة، معطياً الشباب المهمّش سياسيّاً بعض الثقل الملحوظ.

لكنْ كيف أصبح عون ملك جزّين، على رغم تحالفه مع حزب الله الذي كان يقصفها بالأمس؟

تجيب عن هذا السؤال أسباب منها البسيط ومنها الأكثر تعقيداً.

فعائلة عون كبيرة في جزّين، موزّعة على قرى عدّة، ومنها كان أسلاف ميشال عون قد انتقلوا إلى حارة حريك بعد مذابح ١٨٦٠. ثمّ إنّ الأحزاب السياسيّة، كما يشرح الزميل توني الحاج، لم تقوَ مرّةً في البلدة ولم تتمكّن. فهي نمت نسبيّاً في قرى القضاء الصغرى، أو في العائلات الصغيرة للقرى الكبرى، ما لم يشكّل وزناً يعيق الصعود العونيّ اللاحق. وقد ضمّت العونيّة، في من ضمّت، مهاجري أوائل الستينات إلى ضواحي بيروت الشرقيّة في عين الرمانة وفرن الشباك والحدث، ممّن فرزوا، في حرب السنتين، مقاتلين من بينهم يدافعون عن أحيائهم وشوارعهم أكثر ممّا ينشدّون إلى الأحزاب المسيحيّة المقاتلة. كذلك ضخّم العونيّةَ أنّ الأقليّة الكاثوليكيّة،

في تماهيها مع الأكثريّة المارونيّة، تبنّت الدعوة الجديدة وتشدّدت فيها. ومن ناحيتها، أصيبت عائلات التقليد السياسيّ بالوهن، وانتهت إمّا إلى انعدام الوريث أو إلى تعدّد الورثة وتطاحنهم.

ولئن تمكّن الإعلام العونيّ، لا سيّما محطّة "أو تي في" غير المعروفة بالذيوع والانتشار، من أن تنتشر في جزّين تغطيةً وتوجيهاً، التفّ حول قائد الجيش السابق عدد من كبار المتموّلين في عدادهم غازي الحلو، شقيق رئيس البلديّة وليد الحلو، وعصام صوايا الذي صار نائباً، وشقيقه جاد، وأمل أبو زيد.

أبعد من ذلك أنّ دعوة "الجنرال" جاءت تستثمر مقت الجزّينيّين للقوّات اللبنانيّة، خصوصاً منهم المقيمين في بيروت. فهؤلاء لم ينسوا تهجير شرق صيدا ومردوده البائس عليهم، ولا نسوا حواجز القوّات في المنطقة، في الثمانينات، بمضايقاتها السكّان الذين تعوّدوا المكث ساعتين أو ثلاثاً على الحاجز.

أهمّ ممّا عداه أنّ العونيّة استنطقت في الجزّينيّين ذمّيّةً سهّلها الاستضعاف المترتّب على الاحتلال الإسرائيليّ وعلى مقاومته، تماماً بقدر ما أشاعت وهم الانتصار على تلك الذمّيّة. وهي سيرة تبدأ مع سيطرة نبيه برّي على قرار الجزّينيّين المهيضي الجناح وعلى تمثيلهم السياسيّ.

وكانت نيابة النائب السابق سمير عازار التعبير المحلّيّ عن "هيمنة برّي" التي اتّخذت أشكالاً عدّة. فمثلاً، حين انضمّ النائب الكاثوليكيّ نديم سالم إلى "لقاء مار روكز" المعارض في ١٩٩٧، عاقبه الزعيم الشيعيّ باستبعاده عن لائحته. وفي انتخابات ٢٠٠٠ تضامن الجزّينيّون مع سالم بأن أعطوه ٢٦ ألف صوت، لكنّ عشرات آلاف الأصوات الجنوبيّة، في ظلّ وحدة الدائرة، أسقطته.

ويرى إدمون رزق، في هذا المعنى، أنّ الالتفاف حول عون ردّ فعل على الأخطاء العديدة المرتكبة بحقّ الجزّينيّين. وعون، من هذا القبيل، لم يتكاسل في التركيز على نقطتين: أنّه "سيستردّ" جزّين بعدما أُخضعت لزعامة شيعيّة، وأنّه سيحميها بفعل تحالفه مع حزب الله.

بيد أنّ النتائج لبست لبوس المفارقات. فصعود العونيّة رافقه التمدّد العسكريّ لحزب الله على تخوم جزّين، وهذا فضلاً عن أنّ وصاية برّي غير مكلفة، في ما خصّ طريقة

الحياة، قياساً بمراعاة حزب الله. أمّا الذين أحلّهم عون محلّ سمير عازار فقليلون جدّاً من لا يقرّون بتفوّقه عليهم.

فعازار، ابن المحامي والسياسيّ إبراهيم عازار، أحد المعبّرين عن تقليد الاعتدال الجزّينيّ. هكذا لم تحلْ بَرّيّته دون بنائه علاقات جيّدة مع جميع القوى السياسيّة، بما فيها آل الحريري. غير أنّه مطّ هذا الاعتدال كثيراً في زمن التمدّد العسكريّ والسياسيّ الشيعيّ وتعثّر جزّين في إنتاج روايتها عن الاحتلال والمقاومة. هكذا قايض موقعه التقليديّ في بلدته وتوفيره غطاءً مارونيّاً لبرّي بحصوله على خدمات لجزّين قدّمها "مجلس الجنوب"، كشقّ طريق صيدا – جزّين، وإقامة شبكات للماء والكهرباء، ودفع تعويضات للمتضرّرين الجزّينيّين في حرب لحد وحزب الله.

أمّا النوّاب الحاليّون فكلّ كلام عنهم يعرّج على المشاحنات في ما بينهم. وهو ما يكمّله حال المجلس البلديّ لجزّين ولبلدات أخرى، حيث عجز الفائزون، وكلّهم عونيّون، عن الوفاء بتعهّدهم التزام مبدأ المداورة في ما بينهم. فوق هذا، لا يزال صعود أولئك النوّاب أقرب إلى فورة انقلابيّة يُستعاض بها عن ضعف الركائز التي يستند إليها تمثيلهم. ذاك أنّ أحدهم، زياد أسود، مناضل عونيّ سابق ينتمي إلى إحدى أصغر العائلات التي لم تعش قبلاً في البلدة. أمّا ميشال الحلو، المحامي الثريّ، فيُستدلّ على برّانيّته بأنّ والده دُفن خارج جزّين، فيما الثالث، عصام صوايا، فـ"جديد على المنطقة"، عائلته محصورة في قرية كفر حونة.

وهم، إلى هذا، ردّوا على مبالغة عازار في الاعتدال بالمبالغة في التجرّؤ على الاعتدال. "فنحن ليس من عاداتنا شتم زعماء الجوار، ولا نملك هذا الترف أصلاً"، كما قال أحدّ الجزّينيّين. وهو ما تغيّر مع النوّاب العونيّين الذين يتهجّمون على الزعامتين الجنبلاطيّة والحريريّة في الشوف وصيدا، من دون أن ينتزعوا أيّ تنازل فعليّ من شقيقهم الحزبيّ الأكبر. فحين تُطرح مثلاً مسألة من بقوا في إسرائيل، يتكشّف الخلاص العونيّ عن عجز كامل.

ويتبدّى، على نحو موعى أو غير موعى، كأنّ التعلّق بعون، حليف حزب الله، ينطوي على لحظة تكفير عن ذنب "التعامل مع إسرائيل"، وطيّ لصفحة لحد واللحديّة. وهو ما وُصم به الجزّينيّون فيما حُرموا القدرة على تفنيده.

المكان المهجور

واليوم تلوح جزّين كئيبة، تكاد أن تكون مهجورة. فسنوات الاحتلال قطعتها عن بيروت وعن جيل من أبنائها نما خارجها. وإذ استقرّ باقي لبنان، مع الطائف، بقي الجنوب على حاله، بلا استثمار ولا مستثمرين. لكنْ بعد ٢٠٠١ عاد البعض إلى جزّين متفقّدين قراهم وبيوتهم، كذلك انتعشت حركة اصطياف أكثر منها إقامةً فعليّة على مدار العام. وعندما أتيح البناء بلا تراخيص، شهدت المنطقة فورة إعمار استمرّت حتّى الانفجار السياسيّ في ٢٠٠٥ الذي أخمدها.

وكان، ولا يزال، ما يضاعف الانقطاع تردّي التعليم. فهناك اليوم ثلاث ثانويّات فحسب في القضاء كلّه، واحدة خاصّة واثنتان رسميّتان، علماً بأنّ القضاء نفسه حضن ٣٥ مدرسة رسميّة في ١٩٧٤. ويقول أنطوان رزق إن الجزّينيّين يحضّون، من سنوات، جامعتي الروح القدس والأنطونيّة على إقامة فروع لهما في جزّين من دون جدوى. وهذا فضلاً عن محدوديّة وسائل الترفيه للشبيبة، لا سيّما وقد جعل تحسّن الطرق الوصول إلى العاصمة أسهل كثيراً من قبل.

فالمقيمون في القضاء كلّه لا يتجاوزون شتاءً عشرين ألفاً، ولئن بلغ عدد مقترعي قرية قيتولي ٢٧٠٠ مقترع، فإنّ المقيمين فيها شتاءً لا يتعدّون المئة. أمّا رئيس بلديّتها فؤاد الحاج فيحدّثنا عن تعاظم الهجرة إلى بيروت لأسباب شتّى، خصوصاً أنّ فرص العمل خفّت وأن هناك مدارس تقلّصت مع تراجع عدد السكّان. فتكميليّة قرية بكاسين مثلاً تضمّ ٨٦ تلميذاً سوريّاً و١٠ تلامذة لبنانيّين.

وتعيش جزّين تقليديّاً على السياحة ومقلع الحجر والوظيفة الرسميّة، وعلى مواسم الزيت والصنوبر والتفّاح الذي تنتج منه نحو ٣٠٠ ألف صندوق سنويّاً، كان الجيش اللبنانيّ يشتري معظمها إلى أن توقّف في ٢٠٠٩. غير أنّ المواسم كلّها عانت آثار الوضع السياسيّ وانعكاسه على العبور والنقل، خصوصاً منذ اندلاع الثورة السوريّة. ولئن اعتادت البلديّة إقامة مهرجانات فنّيّة كلّ صيف، يحضرها خمسون ألفاً على مدى ٢٠ يوماً، فهذا ما توقّف الصيف الماضي بسبب النزاع على رئاسة البلديّة وما رافقه من تهم بالفساد.

ويعيش اليوم في بلدة جزّين قرابة ١٣٠٠ سوريّ معظمهم من دير الزور. لكنّ

الذين هم أكراد منهم يعرّفون عن أنفسهم بأنهم كذلك، إذ تبدو "الكرديّة" أرحم بهم من "السوريّة". غير أنّ أنطوان رزق، ومن موقعه كربّ عمل، يشرح الحاجة الماسّة إلى العمالة السوريّة لأنّ العامل اللبنانيّ "تحتمله على مدى الشتاء ثم يتركك حين يأتي موسم الصيف".

وهذا، على أيّ حال، ليس الشعور السائد، إذ يُمنع على السوريّين التجوال في البلدة بعد السابعة، حيث "الوضع مضبوط بين مخابرات الجيش والبلديّات". وكانت البلديّة، بحسب رواية أحدهم، "اتّخذت قراراً بإعادة بعض السوريّين ممّن يسكنون في محالّ أو كاراجات أو خيم غير مجهّزة ومكتظّة ولا تستوفي الشروط الصحيّة". ويُخبرنا فؤاد الحاج عن قيتولي، حيث العونيّون يسيطرون أيضاً على البلديّة، أنّ هناك ما بين عشرين وثلاثين عاملاً سوريّاً لم تنضمّ عائلاتهم إليهم، و"أنّنا أخذنا صوراً عن هويّاتهم ورفعناها إلى المؤسّسات الأمنيّة، وأفهمناهم أنّكم تعملون هنا وأنّ من يريد منكم أن يقاتل فليذهب إلى هناك".

والبؤس له دائماً وجوه عدّة تتداخل وتتوزّع وغالباً ما تلبس لبوس الانتصار على خصمٍ متوهَّم.

زحلة: مشكلة الهويّة الدائمة

يصعب أن يُفهم لبنان القديم من دون أن تُفهم زحلة. فهي، مُصغّره، المكان الذي سريعاً ما تغدو مشاكله الداخليّة عابرة للحدود. وهي، مصحوبة بقضائها، الرقعة التي تعيش فوقها أقوام الطوائف جميعاً. فهناك المسلمون، السنّة منهم والشيعة، والمسيحيّون، بموارنتهم وكاثوليكهم وأرثوذكسهم، وهناك الدروز. وفي قضاء زحلة تتمثّل أقليّات إثنيّة وقوميّة كالسريان والأرمن والأكراد، ويترك البروتستانت ما يدلّ عليهم. وقبل هذا وذاك، لا تكتم مدينة زحلة، ذات الغالبيّة المسيحيّة، أزمة هويّة مردّها الفارق بين الموقع الجغرافيّ وإرادة الجماعة.

ففي الطباع هم بقاعيّون جدّاً ومباشرون بلا تزويق وتدوير. يُستدلّ على ذلك في معظم وجوههم العامّة التي عُرفت على نطاق وطنيّ، من رئيس الجمهوريّة الراحل الياس الهراوي إلى الشاعر سعيد عقل. لكنْ يتراءى للبعض كأنّ سكّان المدينة البقاعيّين جغرافيّاً يشبهون سكّان أوروبا الشرقيّة والوسطى إبّان الحرب الباردة، حين كانوا أسرى كتلتهم الشرقيّة، لكنْ منشدّين بعواطفهم وإراداتهم إلى أوروبا الغربيّة. فأهل المدينة يؤثرون، بحسب شواهد عدّة، الانتساب إلى جبل لبنان على الانتساب إلى المحافظة التي تُسمّى مدينتُهم "عروسها".

هكذا طالب الزحليّون منذ الستينات بإنشاء أوتوستراد بينهم وبين الجبل. ووفقاً لأستاذ علم الاجتماع ملحم شاوول، كان المطران الكاثوليكيّ كيرلّس مغبغب، الذي حلّ في المطرانيّة أواخر القرن التاسع عشر بعد عدد من المطارنة الحلبيّين، من أبكر المتحمّسين لجبليّة زحلة.

صحيح أنّ مصالح كثيرة شدّت الزحليّين تقليديّاً إلى البقاع. فأراضيهم واقعة في

سهله، وثلثا أراضيه كانت ذات مرّة ملكهم، فيما كانت مدينتهم العاصمة التجاريّة والخدميّة، التعليميّة والاستشفائيّة، لمحافظتها. وهذا ما حيّرهم وبلبلهم حين طُرح ضمّهم إلى متصرفيّة جبل لبنان. بيد أنّ العلاقات تلك طالتها تغيّرات كثيرة في العقود القليلة الماضية، إذ باع الزحليّون أكثر أراضيهم في سهل البقاع، كما نمت حواضر أخرى في القضاء واستغنت عن مركزيّة زحلة. وبحسب أسعد زغيب، رئيس البلديّة السابق، تبقى سنة ١٩٧٥ مفصليّة هنا، إذ أفضى انحياز زحلة الصريح إلى مسيحيّي الجبل إلى انكفائها عن جوارها، وانطلق بيع الأراضي في سهل البقاع، وصار أهلها ينفقون من مدخراتهم، فيما راحت تنمو المناطق الأخرى. "هكذا"، كما يضيف زغيب، "خرجنا من الحرب ضعفاء وذوي ملكيّات أقلّ".

وحيال مستجدّات كهذه، صارت المصالح والهويّة، على ما يرى المثقّف والأستاذ الجامعيّ فارس ساسين، أقلّ تعارضاً في ما بينها، إن لم يكن أشدّ انسجاماً.

وفرة النعوت الاحتفاليّة

ومثلما يتغنّى لبنانيّو الإيديولوجيا التقليديّة بلبنان، كما لو أنّهم بالأغنية والتغزّل بالطقس وبالمآكل يحاصرون تفتّتهم ويكافحون خوفهم من غدهم، يفعل الزحليّون شيئاً مماثلاً. فهم ربّما كانوا أشدّ اللبنانيّين احتفالاً بذاتهم واستدراجاً للنعوت في وصف مدينتهم. ذاك أنّ الزجل جعل زحلة "دار السلام" و"مربى الأسود" في وقت واحد، فيما وصفها الشعر، عبر قصيدة أحمد شوقي الشهيرة، بـ"جارة الوادي". وبين هذين الحدّين، هي "عروس لبنان" و"عروس البقاع" و"عاصمة الكثلكة في الشرق" و"أوّل جمهوريّة في الشرق" تمتلك علماً ونشيداً، وهي كذلك "مدينة الكنائس" و"وادي السباع" و"وادي النمور" و"الميناء البرّي للبقاع وسوريّة". ولئن نُسب إلى ابنها وشاعرها سعيد عقل أنّها "المدينة المسيحيّة الوحيدة بين البحر المتوسّط والصين"، فإنّ زحليّين كثيرين يتباهون بأنّها سُمّيت مدينة قبل العاصمة بيروت.

والأوصاف، بعد حذف المبالغات، يبقى منها أنّ إحدى أبكر النقابات العمّاليّة في لبنان أُسّسها رشيد سويد، عام ١٩٢٣، في زحلة. وكان لزحليّين هما شبل دمّوس

وموسى نمّور دورهما في وضع الدستور اللبنانيّ عام ١٩٢٦. لكنْ قبل ذلك، وفي أواخر القرن التاسع عشر، شهدت زحلة بدايات السياحة والهجرة وتأسيس الجمعيّات والأندية الثقافيّة. كذلك ففي عهد المتصرفيّة، الذي يبدو العصر الذهبيّ في ذاكرةٍ جمعيّة ما، ازدهرت صحف ومجلّات أسّسها رجال كعيسى إسكندر المعلوف وإسكندر الرياشي وشبل دمّوس، وعاشت منها حتّى اليوم "زحلة الفتاة" التي ظهرت في ١٩١٠. ودائماً في موازاة ذلك كان احتضانها الإرساليّات ينشر فيها المدارس الدينيّة والأهليّة على أنواعها.

لكنّ الزحليّين، وكمثل سائر المأزومين بالهويّة، يكادون يحفظون عن ظهر قلب تاريخ تشكّلهم ووفادة أجدادهم إلى المدينة وما عرض لهم بعد ذاك.

وبحسب دراسة ملحم شاوول "زحلة: من الزعامة الوطنيّة إلى الزعامة الملحقة"، وهي نُشرت فصلاً في كتاب صادر بالفرنسيّة بعنوان "قادة ومحازبون في لبنان"، تلاحقت ثلاث موجات من الهجرة القسريّة لتشكّل النسيج الاجتماعيّ للمدينة.

الأولى كانت نزوح عائلات مسيحيّة من شمال سهل البقاع ومن الداخل السوريّ، استوطنت وادي البردوني نهاية القرن السابع عشر ومطلع الثامن عشر. أمّا الثانية، الأهمّ والأكبر، فأعقبت انشقاقاً عرفته الكنيسة الأرثوذكسيّة مطالع القرن الثامن عشر ونشأة الكنيسة الملكيّة الكاثوليكيّة في منطقة المشرق، بينما تلت الثالثة تنصّر آل أبي اللمع الدروز بعد ١٧٥٠، وكانوا "المقاطعجيّين" هناك. حينذاك بدأت بعلبك تخسر دورها كعاصمة للبقاع لمصلحة مدينة ناشئة تضمّ نحو ١٢ ألف مسيحيّ هي زحلة.

والحال أنّ الأصل السوريّ، لا سيّما الحورانيّ، للعائلات الكاثوليكيّة الأولى التي باتت تُعرف بـ"العائلات السبع"، لا يزال حاضراً في مصاهرات الزحليّين مع مسيحيّين سوريّين وفي علاقات تجاريّة مع الداخل السوريّ، لكنْ أيضاً في شيء من النقمة حيال ماضٍ ومكان لم يكونا ودّيّين. ففي زحلة قد تُفهم أكثر من أيّ مكان آخر مقولة لبنان ملجأً للأقليّات الهاربة إليه.

والتاريخ الصراعيّ الذي تمتلئ صفحاته بالقتل والحرق والحصار حاضر أيضاً، أكان في ما خصّ العلاقة بالجوار الإسلاميّ أم في ما خصّ نزاعات الفرق المسيحيّة ذاتها. فالمدينة، في ذاك الزمن الذي كانت عشائريّته تغلب تشكّله الطائفيّ، أُحرقت ثلاث

مرّات في ١٧٧٧ و١٧٩١ و١٨٦٠ التي شهدت أكبر نكباتها. حينذاك كان أهلها وأهل دير القمر، بحسب الزميل نجيب خزّاقة، أوّل من عرف المخيّمات في تاريخ لبنان، إذ نُصبت الخيم لإيوائهم في حرج بيروت قبل أن يعيدهم الجيش الفرنسيّ إلى بلدتيهم. وهم، في هذه الغضون، كانوا يصدّون هجمات متكرّرة من الأكراد والحرافشة والبدو.

لكنّ الزحليّين، بدورهم، لم يكونوا ملائكة. ففي مطالع القرن التاسع عشر انتقم فرسان منهم من جيرانهم الشيعة فأحرقوا قريتي بريتال وشمسطار، ثمّ في ١٨٤٠ أحرقوا حمّانا وكفر سلوان الدرزيّتين. وربّما كان مردّ هذا الإحساس بالقوّة، الذي لا يُلمس في بلدات ذات ظروف مشابهة كجزّين، أنّ ملاّكيهم من آل أبي اللمع كانوا ذوي سطوة ضعيفة، ثمّ تحوّلوا إلى المسيحيّة، رافعين لدى الزحليّين معنويّاتهم ومعزّزين شعورهم بالبأس والشكيمة.

طوائف وجماعات

وكان آل أبي اللمع أوّل من استقدم فلاّحين موارنة إلى زحلة للعمل في أراضيهم هناك، وهذا قبل أن يتمدّد، في عهد الانتداب الفرنسيّ، الموظّفون الموارنة ممّن انتقلوا من الريف إلى المدينة. وهو تمدّد تفاقم نوعيّاً مع حرب السنتين، حتّى غدا الموارنة يناهزون الكاثوليك عدداً.

واليوم يُقدّر كلّ من الطائفتين بما يقارب ثلث المدينة، فيما يعدّ الأرثوذكس قرابة عُشرها، يساويهم الشيعة عدداً. ولئن قُدّر سنّة المدينة بـ٥ في المئة، توزّع الباقون على جماعات صغرى أهمّها السريان أو الماردينيّون الذين يسكنون بمفاصل المدينة الصناعيّة ويلتحمون بكنيستهم ومغالاتهم في المسيحيّة.

وزحلة وإن اختلط بعض أحيائها، بقي من ثوابت تقسيمها السكنيّ أنّ حيّ مار أنطونيوس للموارنة الذين يقيمون بكثافة أيضاً في وادي العرايش، وأنّ آل الهراوي يسكنون حوش الأمرا التي هي خارج زحلة الإداريّة ألحقها بها التمدّد السكنيّ، فيما يقيم الأرثوذكس في المعلّقة التي ضُمّت مع الانتداب إلى لبنان الكبير.

لكن إذا عُدّ أهل المدينة ما بين ٥٠ و٧٠ ألفاً، عُدّ أهل القضاء بما بين ١٧٠ و٢٥٠ ألفاً، أكثر من نصفهم مسيحيّون، وأكثر من ربعهم سنّة وأقلّ من خُمسهم شيعة.

وهؤلاء عصفت بهم نوائب عدّة في ماضٍ تراءى أنّه مضى. دليل ذلك، وفقاً لأسعد زغيب، أنّ زحلة، قبل ١٩٧٥، كانت المكانَ الوحيد في لبنان الذي تتّسع مقبرته لموتى الأديان والطوائف كلّها. لكنْ مع حرب السنتين وجدت المدينة نفسها تستعيد شيئاً من أزمنتها الصراعيّة تلك. فقد حاصرتها المنظّمات الفلسطينيّة وجماعات "الحركة الوطنيّة". وفي آخر المطاف، وبحسب نجيب خزّاقة، كان الجيش ما أنقذ زحلة من حصارها، فضلاً عن قرار "حركة فتح" بعدم دخولها، ضدّاً على رأي حليفتها "الحركة الوطنيّة" التي "حرّكت الجوّ الإسلاميّ الانتقاميّ في الجوار".

تكرّر الأمر على نطاق أوسع وأشمل في ١٩٨١. فبشير الجميّل، النجم الصاعد للقوّات اللبنانيّة يومذاك، أراد أن يفكّ عنها الحصار المضروب، كما أراد في الوقت ذاته أن يستخدمها لدخوله المعادلة الإقليميّة السوريّة – الإسرائيليّة التي تناسلت "أزمة صواريخ" شهيرة.

لكنّ الحصار الذي دام ستّة أشهر، تخلّلتها مئة يوم من القصف السوريّ المتواصل، معطوفةً على تعدّيات كانت قد بدأت تطال القرى والبلدات المسيحيّة في البقاع، ومنها زحلة ذاتها، منذ ١٩٧٥، رفعت بشير إلى مصاف الزعامة الفعليّة للمدينة. يومذاك، على ما يروي الدكتور جوزيف خوري، "كان الزحليّون كلّهم مستعدّين أن يموتوا ولا يستسلموا". وفي مناخ كهذا، خضع "التجمّع الزحليّ" الذي أنشأه وجهاء المدينة بعيد اندلاع "حرب السنتين"، لسلطة بشير، وانضوت زحلة، وهي التجمّع المسيحيّ الأكبر في لبنان، في عباءته.

الزعامة السياسيّة

ويبدو أنّ بشير الجميّل مثّل للزحليّين، فضلاً عن الأمل بالخلاص، قيماً أحبّوها ورأوها فيه، كالشجاعة ورفض المساومات. وهو ما تعاظم في الأيّام التي تلت انتخابه رئيساً، إذ غدا يمثّل أيضاً شرعيّة الدولة التي راهنوا دائماً على أنّها مخلّصهم. والزحليّون معروفون

بتعلّق تقليديّ بالدولة وجيشها الذي "يحمي"، بحيث احتضنت المؤسّسة العسكريّة ضبّاطاً كثيرين منهم.

بيد أنّ وريث بشير، إيلي حبيقة، لم يحظ بغير نفور الزحليّين واستيائهم. فهو استقرّ في مدينتهم مدعوماً بالجيش والأمن السوريّين ممّن سبق أن قصفوهم بلا هوادة. وفوق هذا عاث عناصره، وهم من خارج المدينة وقضائها، فساداً، ففرضوا الخوّات واختطفوا فتيات وسرقوا فندق القادري العائد بناؤه إلى ١٩١٠، والذي جعله جمال باشا مقرّاً له في ١٩١٤، ومنه أعلن الجنرال غورو، بعد ستّ سنوات، توحيد "الأقضية الأربعة" مع جبل لبنان.

والتطوّرات هذه لم تكن بلا أثر على الزعامة السياسيّة في زحلة. فوفقاً لدراسة ملحم شاوول المذكورة أعلاه، برز الزعيم الأوّل الياس طعمه السكاف، ملّاك الأراضي الكاثوليكيّ، مع بداية الانتداب الفرنسيّ. وقد قُيّضت لهذا الرجل سيرةٌ تجتمع فيها صفحات من الغرب الأميركيّ إلى أخرى من الجنوب الإيطاليّ. فعائلته لم تكن من "العائلات السبع"، وإن ربطتها قرابة بإحداها، الحاج شاهين. وأهمّ من ذلك أنّه عمل مدير أعمال لآل سرسق في بيروت، حيث اتّسع إلمامه بالعالم الخارجيّ وتقلّبات أحواله وأسواقه وسلعه. هكذا انقضّ على شراء الأراضي في سهل البقاع، حتّى قيل إنّ سعر ضمان الأرض يُحدّد في بيته. ومنذ ١٩١٤ صارت عائلة السكاف الأكبر عدديّاً والموزّعة على جميع الأحياء السكنيّة لزحلة.

بيد أنّ بروز الياس طعمة ترافق مع صعود الموارنة بدعم فرنسيّ تجلّى في تزعيم المحامي الفرنكوفونيّ والمارونيّ موسى نمّور، وهو من المعلّقة التي يعتبرها الزحليّون طرفيّة. لكنّ العائلات الكاثوليكيّة التقليديّة التي تمتّعت بالنفوذ إبّان المتصرّفيّة اعتبرت تزعيم نمّور عليها إهانة لها، خصوصاً أنّه بقي بيروتيّ الهوى والإقامة.

أمّا جوزيف السكاف، نجل الياس طعمة، فعمل على تمتين شعبيّته بين الموارنة الذين غدوا عصب قوّته الانتخابيّة، بحيث كانت أصوات وادي العرايش، ذات الأكثريّة المارونيّة، تصبّ تقليديّاً لمصلحته ومصلحة لائحته. غير أنّه عمل أيضاً على انتزاع موقع الزعامة الكاثوليكيّة الأولى، لا في زحلة فحسب، بل في عموم لبنان الخمسينات والستينات. وفي هذا كان عليه أن ينوب مناب "العائلات السبع" زحليّاً، وأن يُعد،

وطنيّاً، عن الموقع الطائفيّ الأوّل هنري فرعون. وبالطبع كانت العلاقة بالسلطة وما تقدّمه من تنفيعات أساسيّةً في هذا، خصوصاً أنّ السكاف لبث عضواً شبه ثابت في حكومات الحقبة الاستقلاليّة.

لكنْ مع "حرب السنتين" التي قلّصت قدرة الزعامات التقليديّة على تقديم الخدمات، طارحةً تحدّياتها عليها، ركّز السكاف خطابيّاً على التنديد بـ"اقتتال الإخوة" وعلى رفض "التجييش الطائفيّ"، من دون أن يشكّل ميليشيا مسيحيّة خاصّة به. إلاّ أنّه لم يعترض نشوء لجان وتجمّعات أهليّة للدفاع عن الأحياء أبرزها "التجمّع الزحليّ"، لا بل وُجد من يتّهمه بالوقوف وراء هذا "التجمّع" الذي غطّى نشاطات عسكريّة لشبّان متحمّسين.

ومع معركة زحلة في ١٩٨١، تدهورت زعامة السكاف. فهو يومذاك كان يشغل وزارة الدفاع من دون أن يتمتّع بأيّة قدرة على صناعة القرار. حتّى إذا دخلت القوّات السوريّة، تعامل قادتها مع وجهاء المنطقة وسياسيّيها كـ"مهزومين"، وطالبوهم بالانصياع الكامل وإلاّ استحالت إقامتهم في مناطقهم وبين أهلهم.

وبالفعل واجه السكاف معضلة مزدوجة: فالقوّات اللبنانيّة تضغط عليه كي يتخلّى عن خطّه "الوسطيّ" وينحاز كلّيّاً إليها، فيما يضغط السوريّون لحمله على معارضة اتّفاق ١٧ أيّار (مايو) واعتباره المسيحيّين "حالة إسرائيليّة"، وذلك تحت التهديد بمنعه من الوصول إلى مدينته وأراضيه التي احتلّوها.

وهذا ما يفسّر حادثة السيّارة المفخّخة التي كادت تودي به في أيلول (سبتمبر) ١٩٨٨ فيما كان متوجّهاً إلى مقرّ البطريركيّة المارونيّة. لكنّه، على رغم إصابته وتدهور وضعه الصحّيّ، شارك في اتّفاق الطائف مجادلاً بحرارة لتحديد موعد الانسحاب السوريّ من البقاع. ولئن جلب على نفسه كراهية الرئيس السوريّ حافظ الأسد، غاب السكاف عن زحلة التي لم يعد إليها إلاّ في ١٩٩١ جثّةً هامدة.

الياس الهراوي

في ١٩٨٩، ومع سلام الطائف، انتُخب زحليّ هو الياس الهراوي رئيساً للجمهوريّة

بعدما اغتيل الرئيس المنتخب رينيه معوّض.

وهذا ما لم يقع وقعاً حسناً على عموم الزحليّين المرتابين بكلّ مشروع تسنده دمشق.

لكنْ إلى ذلك، وعلى ما يضيف نجيب خزّاقة، نشأت مفارقة مؤدّاها أنّ الهراوي بات رئيس الجمهوريّة فيما السكاف، المستضعَف والمهمّش، بقي زعيم زحلة. ففضلاً عن الإقرار العميق بكاثوليكيّة الزعامة هناك، لم يكن ما هو معروف عن الرئيس الجديد عاملاً مساعداً.

ففي سجلّ الهراوي السياسيّ أنّه وصل إلى النيابة على لائحة السكاف، لكنّه غادر كتلة زحلة البرلمانيّة لينضوي في تكتّل "الموارنة المستقلّين". وهذا ما لم يلق هوى لدى الزحليّين، بمن فيهم أكثريّة الموارنة المؤيّدة للسكاف، فضلاً عمّا بدا لهم وفاءً منقوصاً.

لقد حاول الهراوي إيقاظ مارونيّة نامت في زحلة التي يصفها ملحم شاوول بأنّها اعتنقت، مع مرور الزمن، هويّة عابرة للطوائف المسيحيّة، يُستدلّ عليها في مدى الزيجات المختلطة، كما في تكاثر المناسبات التي يتصدّرها المطارنة الأربعة، الكاثوليكيّ والمارونيّ والأرثوذكسيّ والسريانيّ. وأغلب الظنّ أنّ تجربة الحصار المديد في ١٩٨١ كانت العنصر الأفعل في إنشاء هويّة كهذه، هويّة عزّزها ضمور الشعور الكاثوليكيّ التقليديّ بالتعالي والفرادة.

وعلى أيّة حال، كان ما زاد في إضعاف الهراوي ما فعله حلفاؤه السوريّون، حين دعموا زعامات شيعيّة وسنّيّة في القضاء، أبرزها محسن دلّول، على حسابه. فهؤلاء باتوا يستطيعون تقديم خدمات قد يعجز هو، وهو رئيس جمهوريّة، عن تقديمها. لا بل لم يتردّد غازي كنعان وطاقمه الأمنيّ في استخدام وجوه من مدينة زحلة نفسها، ومن بيت الهراوي ذاته، لإضعافه. وفضلاً عن تغييب زعيمهم التقليديّ جوزيف السكاف، ثمّ رحيله، وسط شعور مسيحيّ عامّ بالإحباط، جاء التجنيس الممهور بتوقيع الهراوي ليُقنع الزحليّين بأنّ "فخامة الرئيس" ضالع في محاصرة المسيحيّين.

لقد بدا أنّ موقع زحلة حيال الدولة انهار برحيل السكاف، ولكنّه انهار أكثر بوصول الهراوي إلى رئاسة تلك الدولة.

لمن يخفق القلب؟

مع اغتيال رفيق الحريري في ٢٠٠٥، خفق قلب المدينة لمن صاروا ١٤ آذار. وفي ذاك اليوم الذي حمل التحالف السياسيّ اسمه، زحفت زحلة إلى بيروت بكثافة ربّما كانت الأعلى بين مساهمات المناطق اللبنانيّة. والحال أنّ تعبير "١٤ آذار" لا يزال الزحليّون، حتّى اليوم، يستخدمونه في كلامهم أكثر ممّا يُسمع في أيّة مدينة أو بلدة أخرى.

وكان الياس السكاف، نجل جوزيف ووريثه السياسيّ، المتضرّر الأوّل من خفقان القلب لـ ١٤ آذار. صحيح أنّ متانة الموقع التقليديّ الذي يصدر عنه آل السكاف أبقته جزءاً من المعادلة السياسيّة، غير أنّه بقي فيها مترنّحاً وعرضة للتآكل.

وبحسب دراسة ملحم شاوول المشار إليها قبلاً، لم يكن هذا "الشبل" من ذاك "الأسد" في ما خصّ السوريّين.

ففي بدايته السياسيّة التي اقترنت برئاسة الهراوي، حاربه الأخير وأقصاه عن الحكومات كما حدّ من قدرته على توفير الخدمات لقاعدته الشعبيّة الموروثة. أمّا السوريّون فامتحنوه بقوّة وأرادوا مسبقاً إسقاطه في الامتحان. ومثلهم مثل الهراوي، لم يتركوا له من الفرص إلاّ أن يكون معارضاً، غصباً عن نفسه. هكذا وضعتْ أجهزة أمنهم يدها على محاصيل أرضه، ما فاقم ضائقته، فيما عُيّن عصام درويش مطراناً كاثوليكيّاً لزحلة، فتسنّم المرجعيّة الروحيّة الأولى فيها، علماً بأنّ كثيرين من الزحليّين يصفون درويش بالقرب من تلك الأجهزة. وفي الوجهة نفسها صبّ تعزيز النائب الثريّ نقولا فتّوش والرهان عليه بديلاً للسكاف. ولئن صحّ أنّ تلك العلاقة لم تخل من استخدام غازي كنعان للسكاف، بين وقت وآخر، بقصد إزعاج الهراوي، ظلّ ذلك هامشاً ضيّقاً وموسميّاً على متن الاستبعاد العريض وشبه الدائم.

وبدوره، ردّ الياس السكاف وقد فُرضت عليه الوطنيّة فرضاً، باعتماد توجّهات سياديّة عامّة، فطرح نفسه رافضاً للوصاية السوريّة، ومعارضاً للسياسة الاقتصاديّة لرفيق الحريري، ولتحالفه مع الهراوي، ومستنكراً تهميش المسيحيّين. لكنّ ذلك ما لبث أن تغيّر مع خروج الهراوي من الرئاسة ووصول إميل لحود إليها، الشيء الذي توازى مع حلول رستم غزالة على رأس الأجهزة السوريّة محلّ غازي كنعان. هنا بدأ الطبع ينتقم من التطبّع.

فقد اصطفّ السكاف، الذي دنت حظوظه، إلى جانب لحّود وغزالة، وانخرط، على النطاق الوطنيّ، في التحالف المؤيّد لدمشق. وبالفعل كوفئ بتسليمه وزارة الصناعة في ٢٠٠٣، وفي العام التالي كسب الانتخابات البلديّة في مدينته.

وبعد ٢٠٠٥ مضى السكاف، ضدّاً على الإرادة الطاغية في زحلة، في طريقه ذاتها، فاقترب من ٨ آذار وانضوى "مجرّدَ عضو" في كتلة ميشال عون البرلمانيّة.

وهذا، على عمومه، إنّما أمعن في تقويض شعبيّته، ما عبّر عنه زحليّ لم يكتم امتعاضه من "جلوسه على يمين عون" في اجتماعات الكتلة.

المزاج قواتيّ

صحيحٌ أنّ الأحزاب العقائديّة لم تقوَ مرّة في زحلة. أمّا القوّة النسبيّة التي أحرزتها فنشأت في تقاطعات عريضة مع العوامل الأهليّة والطائفيّة. هكذا مثلاً أحرز السوريّون القوميّون بعض الحضور، أواخر الخمسينات وأوائل الستينات، إبّان التحاقهم بزعامة كميل شمعون والتطرّف المسيحيّ. كذلك عُرف مطران الأرثوذكس الراحل نيفون سابا بتعاطف مع الشيوعيّة وقد رُدّت إلى سلعة أرثوذكسيّة روسيّة.

واليوم، في ظلّ تراجع النفوذ الذي تتمتّع به الكنيسة الكاثوليكيّة، بسبب ما يؤخذ على مطرانها من هوى سوريّ، ولأنّ الزعامات التقليديّة في ضمور، خصوصاً وقد قضى صراع الأحزاب على نطاق وطنيّ على سياسيّي المناطق، تبدو القوّات اللبنانيّة الطرف الأكثر استفادة من تلك العناصر والمستجدّات، كما يبدو المزاج الزحليّ أقرب إلى المزاج القوّاتيّ.

فالقوّات، بحسب جوزيف خوري، هم الأقوى في لحظات الاضطراب لأنّهم مَن يعبّر عن عصبيّة المدينة والذين يوحون لأهلها بأنّهم يحمونهم. وإذا صحّ أنّ البيئة المارونيّة الأفقر هي النواة القوّاتيّة – الكتائبيّة الأصلب، بقي أنّ الأكثريّة الكاثوليكيّة والأرثوذكسيّة ليست في منأى عن المزاج هذا. فالزحليّون، كما يضيف خوري، لا يحبّون حتّى أن يسمعوا بوجود فارق بين الكتائب والقوّات، لأنّهم يرون في وحدتهم وقوّتهم ما يطمئنهم إلى شروط حمايتهم.

في المقابل، لا تُرى صورة لميشال عون في زحلة. ذاك أنّ تحالفه مع حزب الله والسوريّين أضعفه كثيراً. فالزحليّون، على ما يذكّرنا أسعد زغيب، لا يتحمّلون سلاح الحزب ولا ينسون أنّ السوريّين أذاقوهم الأمرّين. وكان ما يشحذ هذه المشاعر لديهم أَسراهم ومخطوفوهم في المعتقلات الدمشقيّة ممّن اعتبروا أنّ "الجنرال" تخلّى عنهم.

بين السياسيّ والاجتماعيّ – الثقافيّ

بيد أنّ علاقات الطوائف سياسيّاً لا تتعادل مع علاقاتها اجتماعيّاً. والحال أنّ زحلة المدينة لم تتعرّض لهجرات سنيّة أو شيعيّة ضخمة، فبقيت الصلات خارجيّة نسبيّاً، تُضعفها السياسة وذكريات الماضي، وتقوّيها المصالح التجاريّة بيعاً وشراءً، فضلاً عن مركزيّة المدينة تقليديّاً حيال محيطها. فوق هذا، وعلى ما ينبّه فارس ساسين، عمل الاعتبار الانتخابيّ دائماً على إلزام الطوائف بحدّ ما من العلاقة بينها.

ومنذ عشر سنوات تقريباً عاد السنّة والشيعة يتردّدون إلى زحلة للسهر وارتياد المطاعم، ساعد في ذلك انتشار الجامعات على أطراف المدينة والتي تضمّ خليطاً طلّابياً من المحيط. فقد قدّرت مثلاً رئيسة معهد يسوع الملك، الأخت دنيز عاصي، أنّ نصف التلاميذ في شبكة المدارس الكاثوليكيّة الهائلة الحجم في القضاء من المسلمين.

لكنْ في غابة التناقضات التي تتخلّل ذاك التداخُل، يُلاحَظ أنّ التحالف السياسيّ مع السنّة، المسمّى ١٤ آذار، لا يرقى إلى اشتراك اجتماعيّ أو ثقافيّ بالمعنى العريض للكلمة. فمنذ الطائف، على ما يقول فارس ساسين، وزحلة تصوّت سلبياً، أي ضدّ الوصاية السوريّة، وهو الموقف الذي تبنّاه السنّة بعد ٢٠٠٥. ولئن رأى كثيرون من الزحليّين، مثلهم مثل مسيحيّين كثيرين، أنّ السنّة هم المسؤولون عن انتكاسات لبنان الكبرى، بسبب تأييدهم عبد الناصر ثمّ المقاومة الفلسطينيّة، فقد رأوا أيضاً أنّ رفيق الحريري كان فرصة تحويلهم إلى اللبننة السياسيّة. ولأنّ الطائفة السنّيّة الناخب الأكبر اليوم على مستوى القضاء، بسبب الانقسام بين المسيحيّين، وجد الياس السكاف نفسه يعتمد على الصوت الشيعيّ.

لكنّ الزحليّين يكنّون للشيعة عواطف غير مثقلة بحمولات ماض سلبيّ. فإبّان

حصار ١٩٧٥، أوصلت عشائر بعلبكيّة للزحليّين موادّ غذائيّة ومساعدات. ولا يزال البعلبكيّون الشيعة حتّى الآن يسجّلون أبناءهم في مدارس بعلبك فيما يسجّلون فتياتهم في مدارس زحلة، وهي علامة على طمأنينة وثقة بعيدتين. وهذا فضلاً عن علاقات وثيقة تقليديّاً مع الأسر الشيعيّة في الجوار، خصوصاً بدنايل، وعن شراكة "متصرّفيّة" مع شمسطار أثمرت، في ما أثمرت، صداقة وطيدة بين عائلتي السكاف والحسيني.

ويقول زحليّ مولع بالتمييز إنّ أهل مدينته حين يقولون "إسلام" يقصدون السنّة، وحين يقولون "متاولة" يقصدون الشيعة بوصفهم طرفاً أهليّاً أقرب إليهم.

مركز سابق

لكنّ فارس ساسين يرى أنّ التحوّل الأبرز في حياة زحلة هو فقدانها الدور الذي كان لها قبلاً. فهي اليوم مركز المحافظة بمعنى شكليّ فحسب، لأنّ معظم موظّفي الدوائر والسرايا لم يعودوا زحليّين. وإذا صحّ أنّها لا تزال نسبيّاً عاصمة تربويّة واستشفائيّة لمنطقتها، إلاّ أنّ المدارس والمستشفيات تنشأ وتتوسّع في الجوار أيضاً. أمّا المصارف التي كانت حكراً على زحلة، فصارت منتشرة في كلّ مكان، لا سيّما شتوره. فإذا استثنينا زراعة العنب وصناعة الخمور، وأسواقهما ليست في الجوار، باتت مركزيّة زحلة تسمية تنطوي على مبالغة وإطناب كثيرين.

والحقّ أنّ اقتصاد زحلة مضروب بعماديه، السهل والنهر. ذاك أنّ المدينة على شكل فراشة يشكّل الوادي عمودها الفقريّ. ويكفي أن تقفل مقاهي البردوني أبوابها في أشهر الشتاء والخريف كي يكون ذلك إعلاناً عن مأساة السياحة فيها. أمّا الذين لم يبيعوا أراضيهم في سهل البقاع، فلم تعد الأرض تنتج الكثير لهم. وينبّه جوزيف خوري إلى مشكلة أخرى تسبّب بها حفر الآبار الذي قلّص تدفّق الماء من دون أن يخفّ الهدر الهائل في استخدامه. إذ بعدما كانت المياه تطفو على وجه الأرض، بات العثور عليها يتطلّب الحفر ١٥٠ متراً.

هكذا بات اقتصاد الزحليّين يقوم على نتف من هنا وهناك، كصناعة الخمور والبلاستيك والموادّ الغذائيّة التي ظهرت بسبب القرب من السهل، وما تدرّه الهجرة

ذات التقليد العريق إلى أميركا والبرازيل، والنشاط الرعويّ للكنيسة حيال المحتاجين، فضلاً عن مداخيل موظّفي القطاعين العامّ والخاصّ في المدارس والمطاعم. وإذا كان أهل القضاء لا يزالون مصدراً لنصف التسوّق في المدينة، إلاّ أنّ هذا التسوّق نفسه بالكاد يوفّر الحدّ الأدنى لأصحاب الدكاكين.

شبّان... وسوريّون

يرسم هنري إسطفان، وهو جرّاح تجميل شابّ، لوحة عن الحياة الاجتماعيّة لمدينته التي لا يبقى فيها شتاءً إلاّ نصف سكّانها. فهو يلاحظ، بالنسبة إلى الشبيبة، فوارق كبرى، ترقى إلى قطيعة في العقليّة والتوقّعات، بين الشبّان الذين درسوا في بيروت ويشكّلون ما بين ٣٠ و٤٠ في المئة، ومَن بقي في زحلة. فالأوّلون لم يعد يربطهم بمدينتهم إلاّ وجود عائلاتهم فيها، خصوصاً أنّ مجالات العمل ووسائل التسلية والترفيه انعدمت أو تقادمت. أمّا العلاقة بالجوار فلا تخترق السطح الظاهر، وأمّا الزيجات المختلطة فشبه معدومة، وهي إن حدثت فمع الشيعة لا السنّة.

لكنّ المشكلة الأكبر، كما يضيف إسطفان، إنّما طرأت مع انفجار الثورة والأزمة في سوريّة، ومع تدفّق اللاجئين بالتالي. فالزحليّون لا يحبّون النظام السوريّ بالتأكيد، إلاّ أنّ موقعهم السياسيّ هذا لا يوحّدهم مع معارضيه وضحاياه من السوريّين. فما يرسخ، في الوعي وفي الكلام، أنّ الأعمال التجاريّة والماليّة توقّفت بسبب ما يجري هناك، خصوصاً في قطاع الفنادق الذي شُلّ تماماً في الموسم الماضي، لا سيّما وأنّ مهرجانات بعلبك لم تُحيَ. ذاك أنّ كثيرين ممّن يقصدون تلك المهرجانات كانوا يقضون أماسيهم في زحلة كما يتوقّفون في شتوره للتبضّع بأجبانها وألبانها.

وهذا الربط بالأحداث السوريّة أسوأ ما يكون عند ملاّكي الأراضي أو الأبنية في سهل البقاع، ممّن نُصبت للاجئين السوريّين خيم على مقربة من أملاكهم. فبدل التعاطف مع ضحايا المأساة، حلّ الخوف من تعرّض الأملاك للخطر أو انخفاض سعرها، خصوصاً أنّ ما من مهلة زمنيّة لبقاء السوريّين في البقاع. وإذ انتشرت مؤخّراً سرقة السيّارات، وهو ما يُرجّح قيام أفراد لبنانيّين به، كان لذاكرة عهد الوصاية السوريّة وانتشار تلك

السرقة آنذاك أن سهّلا ربط ما يجري بـ"السوريّين".

وأغلب العمّال في زحلة سوريّون يعملون في الخدمات أو كنواطير. ويقول أسعد زغيب: "عندنا عدد كبير من السوريّين تساعدهم الجمعيّات والمطرانيّة. هناك مشاعر ضدّهم وميل إلى تحميلهم مسؤوليّة السرقات الصغرى، مع أنّهم ليسوا بالضرورة مرتكبيها، وهناك برَم بتسوّلهم وبأنّهم يأخذون أشغال اللبنانيّين".

ففي زحلة ما من بيت إلاّ شارك في تكبّد الأكلاف التي فرضها النظام السوريّ على الزحليّين، وهي أكلاف بشريّة وماديّة. هكذا فاض العداء للنظام المذكور ليسقط بعضه على شعب بأكمله، خصوصاً أنّ ماضي الملل والنحل وهرب الأقليّات إلى "وطن الأقليّات" بمثابة أدبيّات ومشاعر لم يزدها الزمن إلاّ يقظة وحضوراً.

مع ذلك، يبدو أنّ المناخ السياسيّ الذي تشيعه القوّات اللبنانيّة أكثر ما يحدّ من هذه الوجهة، مبقياً على درجة من التعاطف مع الثورة السوريّة. فكره الزحليّين لبشّار، على ما يقول زغيب، لا يزال قادراً على إنساء الكثيرين منهم المخاطر المنسوبة إلى التكفيريّين، أو على تحميل بشّار مسؤوليّة وجودهم.

ويختصر جوزيف خوري وضع زحلة اليوم بكلمتي الخوف والقرف: الخوف من مهاجمة المدينة التي كثيراً ما توصف بالنقطة الساقطة عسكريّاً لوقوعها في واد، والقرف لأنّ الدولة غير موجودة، لا تؤمّن الكهرباء ولا الماء فيما طرقاتها بالغة الرداءة، وهذا فضلاً عن افتقارها المزمن الى المشاريع، لأنّ نوّاب زحلة حتّى لو طالبوا فلن يجدوا من يتجاوب معهم.

أمّا الأمن، فصحيح أنّ الناس هناك تحتكم في حلّ نزاعاتها إلى مخفر الدرك، وأحياناً يتدخّل رجال الدين والمخاتير لفضّ النزاعات، فيما تخلو زحلة من الأطراف المسلّحة ومن الأسباب العميقة للتوتّر، بيد أنّ الدرك لم يعد يمارس دوره في زحلة لأنّه لا يمارسه في المناطق الأخرى المجاورة لها حيث لا يستطيع ذلك. وأن يبدو إحقاق الحقّ عقاباً، فهذه مساواة لا يحبّها الزحليّون الذين يتساءلون التساؤل المسيحيّ الشهير: إذا فسد الملح فبماذا يُملّح؟

التعدّد الصيداويّ كعبء على أهله

تحرق مدينة صيدا الماضي، هي التي يستغرقها الحاضر مثلها مثل معظم المدن والمناطق المسلمة السنّيّة. فإذا بدت زغرتا دائمة التذكّر ليوسف كرم، وبشرّي لخليل جبران، وإذا كانت زحلة وجزّين مفطورتين على استحضار عائلاتهما، فهذه ليست حال صيدا التي تعدو مسرعة من غير أن تلتفت إلى الوراء. وإذ يحوّل الجنوب الشيعيّ ماضي الإسلام الأوّل روايةً تأسيسيّة لصلته بذاته وبالعالم، فصيدا تبقى في حلّ من كلّ تأسيس.

وهي، في إحراقها الماضي، تروح تبدع يوماً بيوم قواها وسياساتها بينما تطوي صفحاتها. فقد أصبح رياض الصلح، زعيم صيدا الأوّل في الزمن الاستقلاليّ، نسيّاً منسيّاً. وكانت المدينة قد ودّعته، قبيل مقتله، بأن حجبت أصواتها عنه في انتخابات الجنوب عام ١٩٥١، بحيث فاز الصلح بأصوات الجنوبيّين الشيعة التي ضمنها له رئيس اللائحة أحمد الأسعد. وينبئ "شارع رياض الصلح"، حامل اسمه، بما آل إليه الرجل. فبعدما كان أهمّ شوارع المدينة، أعادته الطرق التي شُقّت لتربط صيدا بالجنوب شارعاً "قديماً".

أمّا معروف سعد فأضحى شأناً يكاد يقتصر على عائلته وعلى "التنظيم الشعبيّ الناصريّ" الذي يتزعّمه نجله أسامة. وهو، مثل رياض، رسب في آخر انتخابات خاضها في ١٩٧٢. وقبل أيّام فقط احتفل أنصاره بالذكرى الـ٣٩ لإطلاق النار عليه الذي أودى به بعد أسبوع، فلم تنقل الصحف إلاّ أنّ "مئات" هم "من صيدا ومنطقتها وإقليم الخرّوب والمخيّمات" ساروا من أمام تمثاله إلى ساحة النجمة.

ولا تفوت المراقبَ تلك البرودة في التعامل مع أبرز الوجوه التي أنجبتها صيدا: رفيق الحريري. فالأخير، بدوره، انهزمت لائحته في الانتخابات البلديّة لعام ٢٠٠٤، قبل

أشهر على اغتياله. صحيح أنّ السوريّين يومذاك استخدموا كلّ أوراقهم وضغوطهم للوصول إلى تلك النتيجة، إلاّ أنّهم نجحوا في ذلك.

والراهن أنّ حضور الحريري في طرابلس أو الطريق الجديدة في بيروت يبدو اليوم أشدّ حرارة منه في مدينته، حيث مُزّقت يافطات لـ"تيّار المستقبل" رُفعت تكريماً له في ذكرى اغتياله في ١٤ شباط (فبراير) الماضي. ويُلاحَظ أنّ الصور واليافطات التي لا تزال مرفوعةً ممهورةٌ بتوقيع "تيّار المستقبل"، لا بأسماء روابط عائليّة أو أهليّة أخرى. أمّا المضمون فيشبه كلام المناسبات الجاهز: "في ذكرى استشهادك... صيدا تجدّد العهد بالبقاء أمينة لمبادئ الدستور واتّفاق الطائف"، أو "الرئيس الشهيد رفيق الحريري كان لكلّ لبنان وعمل من أجل لبنان الوطن واستشهد من أجل عزّته واستقلاله". والمسألة، في أغلب الظنّ، أبعد من أنّ أزمة "سعودي – أوجيه" الماليّة ضيّقت فرص العمل التي يحظى بها صيداويّون في مؤسّسات الحريري. فهذا، من دون شكّ، خلّف امتعاضاً وأطلق موجة من اللوم والعتب. لكنّ أزمة صيدا مع زعمائها أعقد من ذلك، سيّما أنّ الثلاثة، الصلح وسعد والحريري، رحلوا قتلاً واغتيالاً. وفي العادة، يؤجّج القتلُ العواطفَ حيال الزعيم الضحيّة، وقد يحرّك مشاعر ذنب تجاهه، أو يفتح الباب واسعاً لعمل المخيّلة أسطرةً له أو أَمْثَلَة.

هويّة باردة تقليديّاً

ويتراءى، في صيدا، أنّ البرودة حيال الزعيم ناجمة عن برودة تقليديّة حيال "الهويّة" وما ترتّبه من ميل صراعيّ يستدعي الزعماء. فربع المليون المقيمون بين الأوّليّ شمالاً وسينيق جنوباً، أقلّ تحسّساً بهويّتهم الذاتيّة من الطرابلسيّين مثلاً، إذ الأخيرون راودتهم طويلاً منافسة بيروت وتزعّم السنّة اللبنانيّين. والحال أنّ "عاصمة الشمال" أكبر مساحةً وسكّاناً من "عاصمة الجنوب"، وهي تتربّع على رأس ريف سنّيّ مماثل لها، فيما يحيط بصيدا ريف شيعيّ يغايرها ويزن أكثر كثيراً ممّا يزن الريف السنّيّ في إقليم الخرّوب. في الآن نفسه، فإنّ ذاك الريف الشيعيّ يملك حواضره الكبرى، كصور والنبطيّة وبنت جبيل، التي تغنيه عن مركزيّة صيدا في تدبير حياته. ثمّ إنّ الطرابلسيّين عاشوا تاريخيّاً

على أوهام موقع راسخ لهم في الداخل السوريّ، بينما كسر قيام إسرائيل ومأساة الفلسطينيّين، الملموسة جدّاً في صيدا، توهّماً كهذا عند الصيداويّين. وفي فترة لاحقة، وبفعل الإذلال الذي أنزله النظام السوريّ بطرابلس، بدت هويّة الأخيرة جريحة محتقنة، سيّما أنّ الأذى مصدره الأمّ السوريّة ذاتها. لكنّ صيدا التي دمّر مسلّحو "فتح" فيها دبّابة سوريّة في ساحة النجمة، عام ١٩٧٦، لم تشعر بذينك الجرح والاحتقان. وفوق هذا، انفصلت طرابلس فعليّاً عن بيروت، منذ ١٩٧٥، وتقوقعت على نفسها، وهو ما لم تعرفه أختها الجنوبيّة الأصغر الموصولة، عبر المقاومة الفلسطينيّة فحزب الله فرفيق الحريري، بالعاصمة الأقرب إليها جغرافيّاً ممّا إلى طرابلس.

فلن يكون صعباً بالتالي ملاحظة الفارق في المشهد العامّ، كأنْ تبدو المحجّبات في صيدا أقلّ كثيراً منهنّ في "عاصمة الشمال"، وأن تبدو الوجوه الصيداويّة البارزة، من مفتي المدينة الشيخ سليم سوسان إلى رئيس بلديّتها محمّد السعودي، أشدّ اعتدالاً من زملائهم الطرابلسيّين. وفي بعض خلفيّات تلك المقارنة أنّ الحياة السياسيّة لصيدا لم تَشُبْها الحدّة التي شابت سياسةَ الطرابلسيّين، من منازعة عائلتي كرامي والمقدّم التي أودت بعدد من القتلى إلى صعود "دولة" الشيخ سعيد شعبان وهبوطها.

فإذ يُروى تاريخ الصراعات التقليديّة في "عاصمة الجنوب"، بردّها إلى عائلتي البزري والجوهري، قبل أن يصعد معروف سعد منافساً لنزيه البزري، يبدو الرواة مطمئنّين إلى رواية مضبوطة الفصول ومحكومة بنهايات سعيدة.

فوفقاً للمحامي حسن شمس الدين، كانت الحياة السياسيّة في المدينة مغلقة تقليديّاً. فلعقود ظلّت المنافسة محصورة بين نزيه البزري ومعروف سعد، لا يفوز واحدهما على الثاني إلاّ بمئات قليلة من الأصوات، علماً بأنّ الاثنين لم يمثّلا زعامتين تقليديّتين من عيار الزعامة الكراميّة في طرابلس. فالبزري ينتسب إلى جبّ فقير في عائلته، بنى زعامته عبر الخدمات الإنسانيّة التي قدّمها كطبيب، فيما كان معروف مفتاحاً انتخابيّاً لرياض الصلح ارتبط اسمه بـ"القبضنة" والقتال في فلسطين.

ويمضي رجل الأعمال عدنان الزيباوي في تشريح الزعامتين، والتقاطع العريض بينهما، ملاحظاً أنّ البزري في الخمسينات إنّما عبّر عن "صعود متعلّمي الفئات الوسطى في مواجهة رياض الصلح وأغنياء عائلته. صحيح أنّ العائلات التقليديّة التفّت حوله، إلاّ

أنّ خدماته كطبيب وفّرت له قاعدة تأييد معتبرة من فقراء المدينة ومحدودي الدخول. أمّا معروف، ولأنّه "قبضاي" قاتل في فلسطين ثمّ أصبح من رموز الناصريّة، فغدا الأشدّ التصاقاً بالمزاج الشعبيّ، لكنّ هذا لم يحرمه أيضاً تأييد عائلات تقليديّة كالأنصاري والبابا وبعض آل قطب".

وعموماً، دفعت عناصر عدّة نحو نزع التطرّف عن الحياة الصيداويّة، كما يرى شمس الدين. فقد كان لضيق العمليّة السياسيّة أن سدّ الباب على كفاءات حزبيّة وغير حزبيّة انتقلت منذ الخمسينات إلى بيروت. كذلك، حال هذا الاستقطاب دون نموّ أحزاب كالشيوعيّين أو كـ"الجماعة الإسلاميّة" (الإخوان) التي انتعشت في الجوار. لكنْ، وكامتداد لزعامة معروف سعد ولناصريّته، استطاعت وحدها الأحزاب القوميّة العربيّة، كحركة القوميّين العرب، وخصوصاً حزب البعث قبل صدامه مع عبد الناصر في ١٩٥٩ –١٩٦٠، أن تتمدّد. فقد تحوّل البعث، وفقاً للزميل نهاد حشيشو، "قوّة أولى في المدينة"، وكان يلتفّ حول القياديّ النقابيّ حسيب عبد الجواد. بيد أنّ ذاك الصعود القوميّ العربيّ ضبطه التحالف الشهابيّ – الناصريّ، وحدّ من جموحه، فيما كان معروف سعد الأكثر تعبيراً عن التحالف المذكور وشخصنةً له.

التفاؤل القويّ

وفي السيرة تلك يُلاحَظ أنّ ثلاثة من "أبناء الفقراء"، هم نزيه البزري ومعروف سعد، ثمّ رفيق الحريري، وصلوا إلى المواقع القياديّة في مدينتهم، ما يعزّز ثقة الواثقين بحِراك اجتماعيّ سلميّ تسير الأمور بموجبه سيراً طبيعيّاً إلى حيث ينبغي أن تسير.

وهذا، في عمومه، ما غذّى ميلاً إلى التفاؤل مسحوباً إلى يومنا هذا، وهو تفاؤل لا تشذّ عنه إلاّ القلّة. فالشيخ ماهر حمّود، مثلاً، يرى أنّ أحوال صيدا الراهنة "جيّدة جدّاً بالمقارنة مع لبنان، فهنا أمان وتوافق سياسيّ"، ولا يلبث أن يضيف: "فإذا انحلّ الوضع السوريّ، وهو يبدو ذاهباً إلى الحلّ، ازدادت الأمور تحسّناً". ومن موقع سياسيّ مختلف، يرى الأستاذ الجامعيّ محمّد علي مقلّد وبعض أصدقائه من تجّار ورجال أعمال ومثقّفين أتيح لنا أن نلتقيهم، أنّ أسباب الاطمئنان إلى صيدا ومستقبلها كثيرة، في عدادها ضعف

الشعور الطائفيّ واعتدال سائر المشتغلين بالشأن العامّ فيها. أمّا عدنان الزيباوي، فيذهب إلى أنّ "لا مخاوف إلى هذه الدرجة"، وأنّ المدينة الآن "شرعت تتجاوز الحدّة الطائفيّة". وهو يميل إلى التفاؤل من موقع استهواله أيّ صدام مسلّح قد يطرأ. ذاك أنّ حدثاً كهذا "سيكون أشرس وأقسى من الصدام المسلم – المسيحيّ منتصف الثمانينات، نظراً إلى الاختلاط السكنيّ حيث تنعدم خطوط التماسّ". وإذ يشدّد الزيباوي على أنّ القوى السياسيّة كلّها، بما فيها حزب الله، واعية لخطورة ذلك، يخالف المحامي خالد لطفي تفاؤل المتفائلين، فيرى أنّ الوضع "لم يكن مرّة أسوأ منه الآن"، من دون أن يبدي الثقة التي يبديها الآخرون بقدرة القوى السياسيّة على الضبط والتحكّم.

شيعة المدينة والحارة

كائناً ما كان الأمر، يبقى من الصعب ألاّ تُرى صيدا ضمن المناخ العريض من تنازع سنّيّ – شيعيّ يشقّ العالم الإسلاميّ ويخضّه. فكيف وأنّها الجسر بين بيروت والجنوب الذي تُسمّى "بوّابته". وغنيّ عن القول إنّ حاجة حزب الله إلى إبقاء هذا الجسر مفتوحاً، وضمان سيولة التواصل بين الجنوب والضاحية الجنوبيّة، يضاعفان التنبّه إلى تلك الوظائف الصيداويّة.

والحال أنّ ما قوّى الميل الصيداويّ إلى التفاؤل ذاك السجلُّ الناصع تقليديّاً عن التعايش السنّي – الشيعيّ في المدينة. فلسنوات مديدة، بحسب عدنان الزيباوي، لم يكن ممكناً تمييز السنّيّ عن الشيعيّ، ولا التمييز بين مقبرة للسنّة ومقبرة للشيعة. ويرى طبيب الأسنان فادي الأمين، الجنوبيّ الذي عاش وعمل طويلاً في صيدا، أنّه لا يشعر حتّى اليوم بمشكلة سنّيّة – شيعيّة. فـ"٨٠ في المئة من مرضاي سنّة، علماً بأنّ عائلات بعضهم فيها أطبّاء أسنان". والرأي هذا مشترك بين كثيرين في دائرة البيزنس ومهنيّين ومتعلّمين. فصيدا، بوصفها السوق التقليديّة للجنوب، إنّما نمت في علاقتها مع شيعته. ولئن استثمر الأغنياء الصيداويّون في الجنوب، فإنّ "بورجوازيّتهم، على عكس نظيرتها الشيعيّة، قليلة التسيّس والأدلجة"، وفقاً للأمين. وهناك مصاهرات بين المذهبين شملت معظم الأُسر السياسيّة، فضلاً عن التجاريّة، بمن فيهم عائلتا البزري وسعد، كما تسلّلت

إلى طبقات وفئات أدنى كعباً، ما دلّ عليه "اكتشاف" الأمّ الشيعيّة للشيخ أحمد الأسير نفسه ولكثيرين من مريديه.

ويعيدنا الزيباوي إلى مرحلة سبقت حيث كانت "حركة القوميّين العرب" في الخمسينات تجمع سنّة وشيعة، وكان أغلب قياداتها، كالمحامي مصطفى صالح وحسين الدرويش وسواهما، شيعة من حارة صيدا، كما كانت قرية الغازيّة الشيعيّة أيضاً، إلى الجنوب من المدينة، شريكة في تظاهراتها ونشاطاتها القوميّة العربيّة.

وعلى العموم، لم تكن التنظيمات السياسيّة التي نمت في صيدا راديكاليّة من حيث المردود الأهليّ لعملها أو لدعاوتها. فحتّى "الجماعة الإسلاميّة" تحوّلت، مع الطائف، على ما يشير محمّد علي مقلّد، حزباً سياسيّاً برلمانيّاً يتقيّد باللعبة السياسيّة.

وإذا وضعنا حارة صيدا جانباً، وسكّانها يقاربون ثمانين ألفاً، قُدّر عدد الشيعة في المدينة بما بين ١٠ و١٥ في المئة من سكّانها، وهم خمسة آلاف ناخب من أصل نيّف وخمسين ألفاً، ترقى هجرتهم إلى مطالع القرن العشرين. فهم بدأوا حينذاك يغادرون قراهم ويفدون إلى "عاصمة الجنوب" مقيمين حول بيت علي "أفندي" عسيران، جدّ رئيس المجلس النيابيّ الراحل عادل عسيران، الذي ورث عن أبيه قنصليّة إيران وكان من أغنى أغنياء زمنه. وتدريجاً تحوّل مكان إقامتهم الجديد إلى ما بات يُعرف بـ"حيّ رجال الأربعين"، من دون أن يقتصر الحضور الشيعيّ في صيدا عليه وحده. ذاك أنّ التداخل السكنيّ غدا من سمات المدينة وممّا تتباهى به في مناسبات التباهي اللبنانيّ بالتعايش والتسامح.

إلاّ أنّ الرضوض شرعت تظهر مع اغتيال رفيق الحريري، خصوصاً حين وقف الحزب إلى جانب سورية وكرّم أمينُه العامّ رستم غزالة ثمّ دافع عن "الضبّاط الأربعة" وهاجم المحكمة الدوليّة. هكذا بدا حزب الله للكثيرين من الصيداويّين كأنّه مع الاغتيال، وقد حصل هذا "فيما لا يزال قتيلنا في الأرض" بحسب أحدهم.

لكنْ حتّى بعد اغتيال الحريري، ظلّ من الصعب إقناع الصيداويّين بالوقوف ضدّ حزب الله. فهم لا يمكنهم إلاّ أن يكونوا في صفّ المقاومة والصراع مع إسرائيل. هكذا، وكما يرى شمس الدين، فإنّ "التحالف الرباعيّ" خاطب مزاجهم الباحث عن التوافق بما لا يُخرجهم من كتلة المقاومة العريضة.

غير أنّ حزب الله لا يقنع بالقليل. فتعاليه، والأصابع السبّابة لحسن نصرالله ونعيم قاسم، ولغة "لن نسمح" و"لن نتسامح"...، نفّرت الصيداويّين، بمن فيهم الذين أحبّوا الحزب بسبب المقاومة فجعلوا يتحوّلون عنه.

وكانت "سرايا المقاومة" التي أنشأها حزب الله لتكون واجهة صيداويّة له، وتضمّ بضع مئات من المقاتلين أكثريّتهم شيعيّة، تذكيراً يوميّاً بانزعاج السكّان. فـ"السرايا" تلك تضمّ شبّاناً عاطلين من العمل تحوّلوا عبئاً على أمن المدينة واستقرارها، حتّى إنّهم اصطدموا، قبل أشهر، مع حليف الحزب أسامة سعد وتنظيمه الناصريّ.

وفي هذه الغضون كان ما يزعج الصيداويّين من محدودي الدخل أنّ جنوبيّين قدموا إلى المدينة بعد حرب ٢٠٠٦ اشتروا محالّ تجاريّة تبيع الألبسة أو تدير مصالح ووكالات صغرى كان يحتكرها صيداويّون سنّة. ولمّا كانت التعويضات التي دُفعت عن حرب تمّوز بعض ما استُثمر لإقامة تلك المحالّ والمصالح، شاع محلّيّاً أنّ حزب الله هو الذي يشتري ويبيع. وعلى العموم، انتشر خلط واسع يربط كلّ شيعيّ بالحزب المذكور.

لقد تركّز هذا التذمّر في بيئات المدينة الأفقر والأكثر تهميشاً، وفي أوساط أصحاب المصالح الصغرى ممّن باتوا الأكثر حذراً حيال الشيعة، إن لم يكن عداءً لهم. ففي بيئات كهذه تبلورت المشاعر الأشدّ حدّة التي راح يعبّر عنها ويؤجّجها الشيخ أحمد الأسير.

وجاء الهجوم على بيروت في ٢٠٠٨ ليضاعف المرارة في صيدا التي اقترعت بغزارة، بعد عام واحد، لبهيّة الحريري وفؤاد السنيورة. لكنْ حتّى ذلك الحين لم يظهر على الشيعة، بحسب نهاد حشيشو وفادي الأمين، أيّ خوف أو قلق يحملان على التفكير في مغادرة المدينة.

مع هذا، راحت النُذر تتجمّع وتتكاثر. ففضلاً عن ظاهرة أحمد الأسير، كان من حاول تفجير السفارة الإيرانيّة في ضاحية بيروت الجنوبيّة شابّاً صيداويّاً اسمه معين أبو ضهر، وظهر اسما الصيداويّي الأصل، المقيمين في العاصمة، حسن ومحمود أبو علفه في الملفّ الخاصّ بـ"كتائب عبدالله عزّام". وإذ رحل عن حارة صيدا معظم الصيداويّين السنّة المقيمين فيها، باتت الحارة مثل الضاحية الجنوبيّة في صورها وشعاراتها وملصقاتها. ولم يعد مستهجَناً سؤال الصيداويّ عمّا إذا كان مخيّم عين الحلوة الفلسطينيّ، القريب من الحارة في الجنوب الشرقيّ للمدينة، سبباً للاطمئنان حيال تمدّد شيعيّ. صحيحٌ أنّ

الصيداويّ المتوسّط لا يزال ينفي احتمالاً كهذا، مستبعداً أن تؤول مدينته إلى ما آلت إليه مدينتا صور وبعلبك اللتان تحوّلت أكثريّتهما من سنّة إلى شيعة. لكنّ الصحيح أيضاً أنّه بات يسمع السؤال ويفكّر فيه ويُطرق قليلاً قبل أن ينفي.

وفي هذا ما يشير إلى احتمالات مفتوحة أمام تسخين الهويّة الصيداويّة الباردة تقليديّاً.

الإنكار

والراهن أنّ كلّ تفاؤل ينطوي على قدر من الإنكار. وهذا معهود في اللبنانيّين عموماً حين يتحدّثون عن "العيش المشترك"، غاضّين النظر عن كمٍّ من التناقض في الواقع ومن النزاع في التاريخ. وميلٌ كهذا، وإن استوطنه قدر من البراءة، يستجيب تطلّباً إنسانيّاً غالباً ما تناولتْه الأمثلة و"الحِكَم" حين ربطت بين الأمل واستمرار الحياة.

مع ذلك، ثمّة لحظة يعلو فيها نذير الخطر حتّى ليغدو، على نحو مفاجئ، واقعاً ساطع الوضوح. مع لحظة كهذه يمسي الإنكار مستحيلاً.

تلك اللحظة اسمها، في صيدا، الشيخ أحمد الأسير.

ولا بأس، هنا، بملاحظتين أوّليّتين: الأولى، أنّ الأسير ليس التعبير الأوحد عن التديّن السياسيّ في "عاصمة الجنوب"، فضلاً عن مخيّم عين الحلوة الذي يعجّ بمثل هذا الاختلاط الدينيّ – السياسيّ. فهناك مثلاً جماعة "قوّات الفجر" المتفرّعة عن "الجماعة الإسلامية"، والتي والت الداعية الطرابلسيّ الراحل فتحي يكن ومشت في ركاب حزب الله. هؤلاء، وبسبب خيارهم السياسيّ المذكور تحديداً، لم يحوّلهم تديّنهم إلى ظاهرة ملحوظة.

أمّا الثانية فإنّ الصيداويّين، لا سيّما منهم الذين يتوزّعون على النصف الأعلى من الهرم الاجتماعيّ، ينظرون إلى الأسير بكثير من التنصّل والتعالي. فهم، وبما يشبه نظرة المصريّين الأغنى والأكثر تعلّماً إلى رئيسهم السابق محمّد مرسي، يخجلون بأن يكون الأسير ممثّلاً لهم.

والحال أنّ ديناميّات التنصّل والتعالي تتّخذ صيغاً عدّة. فالأسير، عند البعض، ظاهرة

صنعها الإعلام، لا سيّما التلفزيون، منذ ٢٠٠٨ حين انتقل من مجرّد داعية ليباشر الإدلاء بدلوه في الشأن السياسيّ. وهو، عند البعض الآخر، لا يمثّل شيئاً على الإطلاق، بمجرّد هزيمته العسكريّة في مسجد بلال بن رباح، أواسط العام الماضي، انتهى أمره. وبين طرفي البداية والنهاية، يؤخذ عليه أنّه شديد الغباء، قاده غباؤه إلى مصادمة الأطراف جميعاً، كما أفضى به إلى الصدام بالجيش الذي يلتفّ حوله الصيداويّون.

والتنصّل المصحوب بالإنكار يتّخذ أشكالاً أخرى، منها أنّ "الأسير معه فلسطينيّون"، ومنها أنّ الاستياء الذي عمّ صيدا لم يكن بسببه، بل لأنّ مناطق قُصفت خارج دائرة المواجهة، وشبّاناً قُتلوا لم يكونوا معه ولا كانوا مسلّحين، فضلاً عن تدخّل حزب الله في القتال ودخول عناصره بيوت الصيداويّين الآمنين". ويمضي الراوي مدعّماً حجّته: "لقد قالت قيادة الجيش في بيان لها إنّها لم تستخدم المدفعيّة، لكنّ المدفعيّة استُخدمت ولم يقل أحد إنّها مدفعيّة حزب الله".

ولا يخلو السرد من تذكير بأنّ الأسير نفسه وبعض أقطابه هم ثمار زيجات مختلطة، حيث الأب سنّيّ والأمّ شيعيّة.

هامشيّة ودونيّة

والحجج هذه ليست مجرّد تنصّل وإنكار، إذ تنطوي أيضاً على وجاهة يصعب تجاهلها وإن خضع استخدامها للتحوير. وفي وسع لقاء عابر بـ"الشيخ" الأسيريّ أبو فيصل الددا أن يبيّن الهوّة التي تفصل تلك الجماعة عن رموز النخبة الصيداويّة جميعاً. وهو ما يتّضح في الملبس والمظهر واللغة المستخدَمة التي تساقطت من كتب صفراء قديمة.

و"الشيخ" الددا لا يقتصد في عرض مظلوميّته ومظلوميّة من يمثّل حيال عالم لم يراه ظالماً. فـ"هم ما زالوا يوقفون الشباب لمجرّد أنّهم يصلّون في مسجد بلال بن رباح، حتّى إنّ بعضهم لم يعد يذهب إلى المسجد، إذ الذين استدعوهم لم يعودوا". وهو، بعد أن يرفع عدد المعتقلين إلى "مئة شابّ"، ينمّ عن وجه آخر من وجوه الهامشيّة التي ترسّم، من تحت، مسافتها عن المتن العريض. فـ"الشيخ"، الذي يعمل في تركيب الموكيت، يثني على جميع سياسيّي صيدا الذين طالبوا "بمحاكمة الشباب أو إطلاق سراحهم"،

حريصاً على مراضاة الجميع، من دون أن ينسى تسبيق كلّ اسم يذكره بصفته الرسميّة المبجّلة، من "فخامة الرئيس" إلى "سعادة النائب"، مضيفاً أنه كان "طول عمره" في جانب "الرئيس الشهيد رفيق الحريري". لكنْ حين يُسأل عمّن هم خصومه، يؤكّد أنّ "مشكلتنا مع حزب إيران"، وهنا يرتفع صوته ويكتسي نبرة خطابيّة وحماسيّة.

على رغم ذلك، كانت ظاهرة الشيخ الإكزوتيكيّ أحمد الأسير الصيغة التي تجلّى فيها التنازع السنّيّ – الشيعيّ على أشدّه. فهو استجاب لواقع لم يخترعه، فكان تمريناً يسكنه شيء من الكاريكاتوريّة على نزاع ليس البتّة كاريكاتوريّاً، وكان بالتالي تأجيجاً لمشكلة أراد الصيداويّون، في وقت واحد، إنكارها وإحياءها. فحينما حُلّت بالطريقة العنفيّة التي حُلّت بها، تعايش في الرواية الصيداويّة مستويان: فعلى سطح الكلام راحة الإعفاء من الورطة التي مثّلها الأسير شخصاً وقضيّة، أمّا تحت ذاك السطح فمرارة المعاملة التي لقيتْها صيدا.

يكفي، مثلاً، على ذاك التقاطع العريض الذي نشأ بين الأسير ومدينته أنّ الشيخ ماهر حمّود، وهو خصم له، قال عنه بالحرف الواحد: "قبل أن يقطع الطريق حصل على تعاطف من الصيداويّين تصل نسبته إلى ٥٠ في المئة". وحين يعترف حمّود بـ٥٠، قل إنّ النسبة اقتربت من ٩٠.

فأكثر من صيداويّ يُجمع على أنّه قضم بعض أطراف الزعامات القائمة، لا سيّما الزعامة الحريريّة، وكان جزء كبير من المُصلّين وراءه حريريّين يعانون فراغهم القياديّ، وأنّه "لو لم يستخدم السلاح لتجمّعت في يديه قوّة أكبر". غير أنّ الحجّة الأكثر دلالة التي تردّدت على أفواه البعض هي أنّ "الأسير كان ليقوى كثيراً لو اختار أن يقاتل حزب الله بدل قتاله الجيش". ولا يتمالك السامع أن يطرد من رأسه تأويلاً آخر لأسيريّة بعض أبناء الزيجات المختلطة، وهو منهم، كأنْ يكون تسمّم التعايش على النطاق الأعرض انعكس هو نفسه على العائلات الصغرى ودواخل البيوت.

الفراغ القياديّ

لقد التفّ حول الأسير شبّان صيداويّون مطعّمون بشبّان فلسطينيّين وسوريّين معدمين.

وهم قليلو التعليم وفدوا متأخّرين إلى التديّن. لكنّ الحاسم، كما يرى نهاد حشيشو، أنّ العشرات من معتَقَليهم اللاحقين من أبناء عائلات صيداويّة معروفة.

بيد أنّ الأسير تمكّن أيضاً، على رأس مئات قليلة من أنصاره الشبّان، من مخاطبة قلّة من الأغنياء جنى معظمهم ثرواتهم في المهاجر وعُرفوا بالتعصّب ضدّ الشيعة. كذلك تزنّرت حركته بنطاق من الدعم شمل صاحب مطعم الفول وصاحب محلّ السمانة وبعض أصحاب المهن الصغيرة القلقين حيال المستقبل والمنزعجين من منافسة شيعيّة مستجدّة حيث القيام بالأوَد مهمّة صعبة. ولم يخل الأمر من موظّفين صغار في مؤسّسات تنتسب إلى القطاع الحديث حيث تملك الحريريّة اليد الطولى. كذلك استمال شبّاناً من الطبقة الوسطى والمتعلّمين وجدوا فيه الردّ على خيبات الأهل العروبيّي الهوى، ملبّياً حاجة الأبناء ليكونوا "مسلمين" ومواكبين، في الآن نفسه، ما يتراءى أنّه متطلّبات الحداثة.

وما من شكّ في أنّ الوقوف إلى جانب شخص كالأسير مُحرج لزعماء صيدا، لا سيّما وقد حارب الجيش وحاربه. مع ذلك، فلغته المناهضة لحزب الله، وضمناً للشيعة، تبقى أمراً يطرح إشكاله المعقّد على الجميع. ويكاد يبدو للمراقب أنّ الأسير، بالخفّة التي ينمّ عنها، إنّما قام ببعضٍ من وظائف سواه، كذلك أعلن، ولو على نحو فضائحيّ، ما هو مسكوت عنه.

لا بل يلوح أنّ الموقع الذي احتلّه إنّما نجم، إلى حدّ بعيد، عن فراغ قياديّ تعانيه صيدا يختلط فيه الغياب بالصمت.

فالنمط البدئيّ (البروتوتايب) لنموذج الزعيم الصيداويّ يسكنه التطبيب الإنسانيّ لنزيه البزري، والشعبويّة الآسرة لمعروف سعد، والقيم الأهليّة التي تمسّك بها رفيق الحريري بعد تحوّله مليونيراً ثمّ سياسيّاً. وتلمس لمس اليد في صيدا أنّ سعد الحريري غائب تماماً، وفؤاد السنيورة مخصّصٌ للشأن البيروتيّ، فيما بهيّة الحريري، التي يثبّتها المجتمع الذكوريّ في موقع صعب أصلاً، مقيمة في قصر بعيد نسبيّاً، في مجدليون. وهذا إنّما يضعها على نقيض تامّ ممّا اعتاده الصيداويّون في زعمائهم من سكنٍ وسط حاراتهم وفي بيوت ذات أبواب مشرّعة. أمّا نجلها أحمد الذي رأى فيه بعضهم شيئاً من عفويّة معروف سعد وقربه، فانتقل إلى العاصمة أميناً عامّاً لتيّار المستقبل.

الأمس مبشّراً بالغد

ومن هنا وهناك تتجمّع سيرة لأحمد الأسير تشي بعديد التناقضات الصيداويّة، تنصّلاً وتلاحماً، وفتوراً وحماسة.

فالشيخ الذي انتهى به المطاف زوجاً لامرأتين، بدأ حياته العامّة شابّاً منضوياً في "الجماعة الإسلاميّة". إلاّ أنّه تركهم، أوائل التسعينات، لأنّهم "يشتغلون سياسة بدل أن يهتمّوا بالدين وحده". أمّا معيشيّاً فعمل فرّاناً ثمّ مصلّح تلفزيونات وفيديو. غير أنّه، في أوائل التسعينات أيضاً، توقّف عن مزاولة هذه المهنة كي يتجنّب التعامل مع فيلم بورنو مدسوس في هذا التلفزيون أو مخبّأ في ذاك الفيديو. ذاك أنّ أوائل التسعينات هي الفترة التي انضمّ فيها الأسير إلى "جماعة الدعوة والتبليغ"، لابساً الثوب الباكستانيّ الذي لم يكن يلبسه أحد في صيدا. فالجماعة المذكورة إنّما أسّسها، أواسط العشرينات، الهنديّ المسلم محمّد إلياس الكاندهلوي لتتركّز قوّتها لاحقاً في باكستان. ومن القليل المعروف عن تلك الجماعة نشر الدعوة وردّ المسلمين المتراخين في دينهم، أو المتخلّين عنه، إليه.

في هذه الغضون درس الشيخ الشابّ في كليّة الشريعة في دار الفتوى، لكنّه لم يكمل إعداد الماجيستير بحجّة "تفاهة الموضوع" الذي كان يُفترض به إعداده. ومن غير أن يُعرف بأيّ اجتهاد، أو بإلمام مميز، طوّر تدريجاً طريقة ليّنة وانتقائيّة في أحكامه. هكذا وجد الكثيرون في فتاواه ما يسهّل عليهم إسلامهم وما يوفّق بين حياتهم، بالقدر الأقلّ من النواهي والإدانة، وبين التديّن. وكان أبرز ما أكّد عليه أنّ الدعوة لا يلزمها العلم الدينيّ الغزير، إذ هي نفسها ما يجعل صاحبها مؤهّلاً دينيّاً. وربّما اضطلع التأويل الرحب هذا بضمّ أشخاص كالمطرب فضل شاكر ومريديه الذين يقول الأسيريّون الأشدّ أرثوذكسيّة إنّهم "مجرّد زعران، لا علاقة لهم بالدين ومعرفته من قريب أو بعيد".

وبتغليب الشيخ الممارسةَ على النظريّة، شرع يعارض آراءه الأولى التي أبعدته عن "الجماعة الإسلاميّة" في ما خصّ الاقتصار على الدين دون السياسة. غير أنّه، في هذا، حمّل مجموعة من الشبّان ثقافة ملخّصةً عن الأمس قبل أن يطلقهم مبشّرين بما يراه الغد الإسلاميّ الحقّ.

مثل هذا التأويل، كائنة ما كانت صلته بـ"الدعوة والتبليغ"، جالبٌ لشعبيّة لا يوفّرها

الطرح الدينيّ الرصين. والحقّ أنّ الحاجة إلى الشعبيّة والتأثير في الشأن العامّ كانت تلحّ يومذاك، في ظلّ الصعود الشيعيّ، أكثر ممّا تلحّ الرصانة والدين القويم.

فهو كان منشغلاً بإرجاع "المتشيّعين" سياسيّاً من السنّة، من المأخوذين بالمقاومة، إلى السنّيّة، وكان للغرض هذا يزورهم ويزور قراهم القريبة من صيدا. وربّما بتأثير مترسّب عن "الدعوة والتبليغ" رأى إلى محاربة حزب الله بوصفها، أيضاً، واجباً دينيّاً. فالشيخ الذي يقبل بالشيعيّة "فرقةً من فرق الإسلام"، لا يستسيغ أن يرى "حسن نصرالله وإيران يتحدّثان باسم الإسلام".

فحين اصطدم، في ٢٠٠٩، تحريم المشاركة في الانتخابات "الوضعيّة" بتحدّيات السياسة اليوميّة، انتخب الأسيريّون بغزارة كلّاً من فؤاد السنيورة وبهيّة الحريري، غاضّين النظر، تحت وطأة الضرورات، عن المحظورات.

وعلى الدوام كان إحباط الجمهور الحريريّ بزعامته يوسّع مساحة الأسير الذي راح، من مسجده، يعد تابعيه بالنصر، أو يخيّرهم بين الموت واقفين على أقدامهم والموت راكعين على رُكبهم.

وهي لغة تعالت وتصلّبت مع الثورة السوريّة والانقسام حولها، فراح الصيداويّون، لا سيّما أبناء الفئات الوسطى، يعالجون "سحر" الشيخ على أبنائهم بكثير من القلق، فيما "يتفهّمون" ظاهرة الشيخ "الساحر".

وفي ربيع العام الماضي، شهد التصعيد نقلة أخرى. فبعد مقتل شابّين في منطقة التعمير، أعلن "الساحر" إنشاء "كتائب المقاومة الحرّة"، كما أفتى بـ"الجهاد" في القصير بسوريّة. وقد أمّن الشروطَ الماديّة لعسكرته من مساهمات ماليّة قدّمها مليونير مهاجر ومفتون به، من آل العلايلي، ومن تبرّعات ذاتيّة يوفّرها أنصاره، فضلاً عمّا تحصّلَ له من بيعه منزله بمليون دولار أنفق معظمَه على القضيّة.

وفي ليلة القدر بات معظم المصلّين في صيدا يتجمّعون في مسجد بلال، ما أثار حسد باقي أئمة المساجد وكرههم. لكنّه حين اعتصم في المسجد، وكانت تلك بداية السير في الطرق الوعرة، لم يجد حوله سوى عشرات قليلة من المعتصمين الذين راحوا يتناقصون.

لقد أراد الصيداويّون شيئين نقيضين في واقت واحد. هكذا بدأوا رحلتهم معه بالتفاف لا يخلو من خجل، لينهوها بعد حين بالخذلان.

نُذر عين الحلوة

تهبّ نُذر أخرى من مخيّم عين الحلوة الفلسطينيّ الملاصق للمدينة كما تهبّ عليه. وهنا تتبلور رواية موازية تماماً للرواية الشيعيّة – الصيداويّة. لكنّ الروايتين تسلكان الطريق نفسه، فتبدآن بالسجلّ الناصع للتعايش وتنتهيان متقاطعتين وراسمتين ما يشبه توازن رعب قد ينشأ بين الحارة الشيعيّة والمخيّم الفلسطينيّ الذي يجاورها ويساويها في عدد السكّان.

فالحال أنّه، فضلاً عن عين الحلوة، ثمّة أحياء فلسطينيّة كاملة في المدينة، وثمّة أخرى يتشارك فيها الفلسطينيّون والصيداويّون سكنَهم كما يتزاوجون ويتصاهرون. والأحياء المختلطة هذه لا يزال بعض أهلها من ثمار العلاقات التاريخيّة التي ربطت الساحل الصيداويّ بمدينتي عكّا ويافا قبل "النكبة"، علماً بأنّ كثيرين من فلسطينيّي صيدا جُنّسوا وحملوا الجنسيّة اللبنانيّة. هكذا يروي نهاد حشيشو، مثلاً، أنّ أكثر من نصف طلّاب صفّه المدرسيّ في الخمسينات كانوا فلسطينيّين تدفع "الأونروا" أقساط تعليمهم. ولا يغيب عن تلك العلاقة الموقع الذي احتلّه الفلسطينيّون تقليديّاً شغّيلةً في بساتين الليمون، أحد أعمدة الاقتصاد الصيداويّ.

وقد قويت الشوكة الفلسطينيّة في المدينة عشيّة حرب السنتين. ذاك أنّ انتخابات ١٩٧٢ العامّة عاقبت معروف سعد وأسقطته بوصفه شهابيّاً غير صافٍ في هواه الفلسطينيّ والعروبيّ، قبل أن تختطفه منظّمة الصاعقة". هكذا غدت المنظّمات، القادرة على التسليح، وحلفاؤها من أحزاب "الحركة الوطنيّة"، أصحاب اليد الطولى كمرجعيّة تضاءلت أمامها مرجعيّة الدولة المهيضة الجناح.

لكنّ سنوات الوصاية السوريّة غيّرت الحال. ذاك أنّ سياسة التفتيت وتفريخ التنظيمات لإضعاف حركة "فتح" فعلت فعلها. وبسببها صار فلسطينيّو عين الحلوة متعدّدي الرؤوس، لكنّهم صاروا بلا رأس فعليّ، بينما هاجر، على مرّ السنوات، معظم ذوي التأثير العاقل والإيجابيّ أو تقاعدوا وانزووا.

ومنذ مقتل الشيخ "الحبشيّ" نزار الحلبي صيف ١٩٩٥، راح الإسلاميّون المتطرّفون يتجمّعون في المخيّم، إلى أن كانت حرب العراق في ٢٠٠٣، فقاتل بعضهم هناك وقُتل لهم عدد ضئيل. غير أنّ هذه الحالة التي تعايشت ظاهريّاً مع وضع المخيّم ومع تشرذم قواه، كانت تشهد تحوّلاً داخليّاً مهمّاً ما لبثت نتائجه أن انهمرت على الجميع. فظاهرة

التكفيريّين كانت، بدفع من السوريّين وفي ظلّ تحالفهم مع حزب الله، تضخّ مقاتلين وانتحاريّين يتوجّهون إلى العراق. بيد أنّ هؤلاء ما إن يعودوا من فرن الأحقاد السنّيّة – الشيعيّة في بلاد الرافدين حتّى يتحوّلوا خصوماً ألدّاء للحزب الشيعيّ اللبنانيّ. فهم نسجوا هناك، بعيداً عن أعين السوريّين، علاقات مع تنظيمات سنّيّة تقاتل الشيعة. وعندما عادوا، شكّلوا مصدر قلق للسوريّين تبعاً لانخراطهم في المزاج السنّيّ اللبنانيّ الذي انقلب كليّاً بعد ٧ أيّار ٢٠٠٨، كما تحوّلوا أعداءً لحزب الله "حريصين" على المدينة. وبحذر يستنتج الراوي ما لا يحبّ صيداويّون كثيرون الإقرار به، من أنّ هؤلاء يخاطبون هوى سنّيّاً في صيدا، هوىً يبحث عمّا يوازن الحزب المذكور قوّةً ويناظر طائفة الحزب عدداً. غير أنّ التحفّظ الصيداويّ لا يلبث أن يطلّ برأسه من جديد، إذ "لا يستطيع أحد أن يضمن التحكّم في هؤلاء التكفيريّين وفي الأطراف والحوافز التي تملي عليهم أفعالهم".

تحوّلات وتناقضات

والتحفّظ، هنا أيضاً، لا يخلو من وجاهة. فالقيادات السياسيّة في المدينة تبذل كلّها، وفقاً لحسن شمس الدين، جهوداً محمومة لمنع أيّ انفجار، وهناك قنوات تواصُل وبرامج مشتركة، شبيبيّة واجتماعيّة وثقافيّة وسواها، تسعى إلى الحيلولة دون بقاء المخيّم بؤرة معزولة. وهذا ما يحاصر التكفيريّين نسبيّاً ويحدّ جزئيّاً من قدرة المخيّم على إنتاجهم أو حَضنهم. فالإرهابيّ نعيم عبّاس، مثلاً، طاردته مخابرات الجيش في المخيّم نفسه وما لبث أن اضطرّ إلى الهرب منه.

ويصحّ القول إنّ القوى السياسيّة في صيدا لا يسعها، لأسباب عدّة، أن تتعاطى مع "عصبة الأنصار" و"جند الشام" وما يماثلهما من تنظيمات، بحيث تقتصر علاقات تيّار المستقبل مثلاً على معتدلي عين الحلوة كجماعة "فتح". وفي المعنى هذا، لا يستطيع الصيداويّون أن يتعاملوا مع تلك التنظيمات كظهير سنّيّ تسهل السيطرة عليه والتحكّم فيه. وبدوره، فإنّ حزب الله وأسامة سعد موجودان أيضاً في المخيّم من خلال جماعات مبعثرة صغرى، وهذا ما قد يُضعف قليلاً الاستقطاب السنّيّ – الشيعيّ أو يشذّب شفرته.

في المقابل، تبدو صيدا حين يُنظر إليها كنقطة تقاطع، مع الشيعة والفلسطينيّين،

وبدرجة أقلّ مع المسيحيّين في شرقها من دون أن تكون بعيدة عن الدروز، مؤهّلة للانفجار أكثر ممّا تبدو طرابلس. صحيح أنّ أمراً كهذا لم يحصل، الشيء الذي قد يعود جزئيّاً إلى حركة الأسير ودورها في امتصاص الحالة العنفيّة واستنفادها. وصحيحٌ أيضاً أنّ ممّا يستسهله اللبنانيّون، تبرئةً للنفس وتنصّلاً أو عنصريّةً، تحميل المخيّم الفلسطينيّ مسؤوليّات ليس وحده المسؤول عنها. فالفلسطينيّ عدنان المحمّد أقام في الزهراني، لا في عين الحلوة، بينما أقام نضال المغير، المتّهم بالتفجيرين الانتحاريين الأخيرين في بئر حسن، في قرية البيساريّة.

مع ذلك، يبقى من المقلق، مثلاً، أنّ الإسلاميّين المتشدّدين هم المتحكّمون بالمربّعات الأمنيّة في عين الحلوة. وقد أضحى هؤلاء، خصوصاً في حيّ الطوارئ في منطقة التعمير، أقوى من "فتح" والمعتدلين وأشدّ تأثيراً، لا سيّما منهم "جند الشام" وباقي المتطرّفين الموزّعين على تنظيمات شلليّة عدّة. يكفي أنّ الأشهر القليلة الماضية شهدت ثماني عمليّات اغتيال لكوادر من "فتح" كان آخر ضحاياها العقيد جميل زيدان.

وأبعد من ذلك ما يجسّده الجوّ المحتقن القابل أن يرتدّ على صيدا ومخيّمها، كائناً ما كان مسرح الأدوار الأولى ومصدرها. وقد رأينا في البيساريّة ردود الفعل الهائجة والمذهبيّة التي أدّت إلى تهجير عائلة المغير، وإحراق منزلها وسيّارتها، قبل الدعوة إلى طرد المخالفين المصحوبة بطلب الأمن الذاتيّ.

والهواء ينقل جراثيم العداوة بسرعة، خصوصاً حين تكون المسافة بين البيساريّة وصيدا أقلّ من ١٧ كيلومتراً.

فالمخيّم، والحال هذه، يمكن أن يكون، في وقت واحد، مصدر رهان ومصدر تنصّل، ومكاناً لتنفيس الغضب ومكاناً لاستقباله. وعلاقة كهذه بعين الحلوة، متعادلة ومتنازعة داخليّاً، لا تختلف في عمقها عن العلاقة بالأسير.

مسيحيّون ويهود

واقع الحال أنّ الإنكار متمكّن من نفوس الصيداويّين. فهم استدخلوه إلى حدّ يبدو معه كأنّ الماضي الذهبيّ للتعايش في ظلّ دولة قويّة نسبيّاً لا يزال راهناً ومَعيشاً. هكذا ترى

كثيرين منهم يتحدّثون عن صيدا بوصفها، أيضاً، مدينة للمسيحيّين واليهود، مؤكّدين على التعايش، ومذكّرين بأنّهم درسوا في مدارس مسيحيّة أو نصبوا في بيوتهم أشجار عيد الميلاد.

وهنا ينتاب السامعَ أنّه أمام حوار في مسرح العبث. ذاك أنّ أكثر ما يُقلق في الحاضر هو، بالضبط، تذكّر ذاك الماضي وما آل إليه. فلمّا كان اليهود والمسيحيّون سابقين في التعرّض لمطحنة العلاقات الأهليّة، بقيت الخشية مبرّرة من أن يكون هناك لاحقون.

لقد عاش اليهود طويلاً في صيدا، وكانت لهم حارة تسمّت باسمهم، وملكيّات أرض ومصالح تجاريّة. لكنّهم في عزّ الزمن الذهبيّ للتعايش، لم يفقدوا إحساسهم بالحذر الذمّيّ وضماناته. هكذا درجوا على تقسيم أصواتهم مناصفة في الانتخابات النيابيّة، فكانوا يعطون النصف لمعروف سعد والنصف الآخر لنزيه البزري. ويروي نهاد حشيشو الذي كان على رأس حملة سعد الانتخابيّة في ١٩٧٢، آخر انتخابات ما قبل الحرب، أنّ عدد المقترعين منهم يومذاك كان ٣٧ صوتاً فاقترع ١٩ لمعروف و١٨ لنزيه.

لكنّ هجرة اليهود التي بدأت مع إنشاء إسرائيل في ١٩٤٨، توالت فصولاً في موازاة المواجهات الكبرى للصراع العربيّ – الإسرائيليّ، حتّى إذا قامت حرب ١٩٧٣ لم يعد هناك يهود في صيدا.

أمّا المسيحيّون، وأغلبهم كاثوليك، فمع حرب السنتين بدأت أعدادهم تتراجع، لتتصاعد هجرتهم نوعيّاً مع حروب منتصف الثمانينات. حينذاك، وفي مناخ الاجتياح الإسرائيليّ والتكاره الأهليّ المفتوح، هُجّر مسيحيّون ردّاً على تهجير القوّات اللبنانيّة مسلمين من شرق صيدا إلى صيدا نفسها، ثمّ كانت الأسلمة التي أعقبت الانسحاب الإسرائيليّ من المدينة في ١٩٨٥. فقد فرض حزب الله منع الخمور وبيعها هناك، وتمّ الفرض عبر رموز محلّيّين سمّى أحدُ الصيداويّين الشيخَ ماهر حمّود بوصفه أبرزهم. وحتّى اليوم لا يباع الخمر ولو في مخازن "سبينس"، كما لا تقدّمه المطاعم باستثناء "الاستراحة" في مدخل المدينة والتي تعود ملكيّتها إلى وزارة السياحة.

وهنا أيضاً، في العلاقة مع المسيحيّين، كان ثمّة عصر ذهبيّ يُستدلّ عليه بآثار كثيرة قديمة وحديثة، في عدادها "مدرسة الأميركان" الشهيرة التي علّمت صيداويّين وجنوبيّين كثيرين. وعلى صعيد المنطقة، يشار إلى التواصل التقليديّ المتين بين صيدا

وجزين المسيحيّة التي ظلّت، حتّى ١٩٧٥، مصيف الصيداويّين. وهذا فضلاً عن المسار الذي اتّخذته العلاقة بشرق صيدا. ففي بداية السبعينات بدأ أغنياء وأبناء طبقة وسطى صيداويّون يعمّرون شرقاً، وشرقُ صيدا المسيحيّ كان قليل العدد، فيما لا تتعدّى مساحة مدينة صيدا، التي كانت تضمّ مئتي ألف نسمة، ٥،٤ كلم٢.

وربّما أمكن تفسير الأمر جزئيّاً بخليط من المعطيات الجغرافيّة والعمرانيّة، كما بالتقسيمات الإداريّة المعمول بها. لكنّ المؤكّد أيضاً أنّ الخيار نفسه يحتفظ بدلالات أخرى مهمّة. ذاك أنّ التمدّد السكنيّ اتّجه شرقاً نحو المسيحيّين، لا نحو شيعة الجنوب ولا حتّى نحو سنّة إقليم الخرّوب.

لقد تداخلت صيدا مع الهلاليّة وعبرا وباقي الهضاب المسيحيّة في شرقها، ومع انقلاب الأزمنة بات تمدّد العقارات وبناء المجمّعات يخيف مسيحيّي شرق صيدا. هكذا، وعملاً بقاموس الطوائف وحصصها وذعر واحدتها من الأخرى، وُجد من يصف معركة الأسير في عبرا بأنّها مواجهة بين سنّة وشيعة على أرض مسيحيّة.

أمّا في داخل المدينة، فباتت العائلات المسيحيّة الصيداويّة، كعودة ودبّانة، لا تزور صيدا إلاّ "في المناسبات"، أو لتفقّد أملاك ما زالوا يملكونها، وكنائس صامتة تدلّ إلى وجودهم السابق. فهم، في لوائح الشطب، يعدّون حتّى اليوم ما بين أربعة آلاف وخمسة، إلاّ أنّهم، في الواقع، أقرب إلى الانقراض.

ويقرّ نهاد حشيشو بأنّ "لدى جيلنا والأجيال الأكبر سنّاً حزناً وحرقة على اليهود والمسيحيّين الذين رحلوا"، لكنّ الحزن والحرقة يصغران كلّما صغرت الأعمار.

فذلك مزاج لا ينسحب على جيل لم يعرف جاراً يهوديّاً أو حيّاً مسيحيّاً في محاذاته، فلا يحنّ بالتالي إلى ما يجهل. ذاك أنّ الشبيبة الأكثر انشداداً إلى الشأن العامّ تستقطبها اليوم ميول وعواطف عدّة تتمايز فيها عن الآباء. من ذلك، مثلاً، هموم بيئيّة وعمرانيّة وإنمائيّة تسعى الى المواءمة بين رغبة في تطوير المدينة وتحديثها والحفاظ على "أهليّتها" بعيداً من النموذج الذي أرسته الحريريّة في سوليدير ببيروت.

لكنّ الأهمّ، في ما خصّ ذكرى الأقلّيّات الآفلة، أنّ الحزن والحرقة لم يتحوّلا إلى مراجعة تستخلص الدروس والعبر وتضعف احتمالات تكرار المآسي الأهليّة باسم قضيّة ما.

السوريّون وثورتهم

وبدورهم، لم يصبح السوريّون خطّاً نافراً من خطوط اللوحة الصيداويّة. فهم يعدّون نحواً من ٨ آلاف عائلة، وثمّة تجمّع كبير لهم على مدخل صيدا الشماليّ، عند جسر الأوّليّ، حيث سكنوا مباني لم تكتمل وتحوّلوا جماعةً لها مرجعيّتها، ثمّ اشتبكوا مع عاملين في مؤسّسات الإغاثة. وهذا ما أربك المدينة قليلاً كما أربكها تجمّعٌ آخر ووقائع مشابهة على طريق شرق صيدا.

لكنّ صيدا لا تكنّ عداءً للسوريّين، وهي تعرفهم تقليديّاً عمّالاً في الزراعة والبناء منسجمين مع نسيجها وعلاقاتها. أمّا الذين وفدوا إليها بعد الثورة، فبات مصلّوهم يصلّون في الجوامع ذاتها، وصار بعضهم مقرئين فيها. ولئن فتحوا القليل من محالّ الغذاء والحلوى، فهذه لا تزال أقلّ كثيراً، وأضعف كثيراً، من أن تطلق منافسة مع الصيداويّين.

فالمزاج الشعبيّ، كما يقول عدنان الزيباوي، متعاطف مع الثورة، أمّا العواطف الفلسطينيّة فهي الأخرى مناهضة للنظام السوريّ.

بيد أنّ الجوّ الأقلّيّ حاضر أيضاً ولو بانكفاء. فأسامة سعد، المقرّب من حزب الله، استمرّ على مواقفه المتحفّظة على الثورة، وإن بتبريريّة ودفاعيّة ينعكس فيهما خوفه من اهتزاز يضرب قاعدته. ويلوح أنّ ظهور التكفيريّين في سوريّة أنعشه قليلاً وأضاف شيئاً من التماسك إلى حججه. والأمر نفسه، وبحدّة أكبر، يُلحَظ في أصوات ضعيفة التمثيل كالشيخ ماهر حمّود، المتشدّد في عدائه للثورة السوريّة، والذي لا يرى فيها إلاّ التكفيريّين. وهو يمضي على هذا الرأي "على رغم كلّ ما يُنسب إلى الأسد، صحيحاً كان أو كاذباً" كما يقول. فحين يتحدّث لا تقابل لغةَ التخفيف هذه إلاّ لغةُ الجزم والقطع في إعلان "التعاون مع إيران وحزب الله والشيعة ككلّ" وفي نفي كلّ التهم التي يوجّهها الصيداويّون إلى حزب الله ومشاركته في معركة عبرا.

وأغلب الظنّ أنّ انخراط حزب الله في الحرب السوريّة يقصّر المسافة التي لا تزال تفصل بين أطراف شديدة التناقض، كلٌّ منها يمتلك أطناناً من الزيت ويمضي في التزوّد به، وكلٌّ منها ينفي وجود النار.

لا شيء يحصل على السطح في صور

تكاد تكون مدينة صور ألبوماً تتعاقب صوره كي تسرد تاريخنا. فما من شيء يحدث في صور، لكنْ تحت السطح الصُوْريّ يحدث كلّ شيء، فيما تتلاحق تلك الصُوَر التي يأتي بعضها من التاريخ، وبعضها ممّا تُسقطه الذاكرات أو تضيفه، بينما يرد بعض ثالث من خرافات محضة. فهي مواضٍ متزاحمة ومتنافسة، وروايات متعدّدة عن واقع واحد، تتجاور وتتلاصق وإن تمنّت واحدتها طرد الأخرى. فكأنّ ثمّة اتّفاقاً معلناً على أن البحر، الذي يغسل الشاطئ، يغسل كلّ شيء، فلا يبقى، في آخر المطاف، إلاّ وجه ربّك ذي الجلال.

تقول المقدّمة التي تجمع بين الروايات المتناقضة إنّ القصّة تبدأ مع الشيخ عبّاس بن محمّد الوائليّ، أو عبّاس النصّار، الذي ولاّه العثمانيّون حاكماً على صور ونواحيها في ١٧٥٠. فقد تسلّم عبّاس صور مهدّمةً، دمّرها الأشرف خليل بن قلاوون، وأبقاها قاعاً صفصفاً. هكذا بقيت نحواً من أربعة قرون مطروحة أرضاً تنتظر من يوقفها على قدميها. لكنّ عبّاس لم يَبنِها فحسب بل أحياها أيضاً. وهو للغرض هذا استقدم سكّاناً من أمكنة شتّى: من جونية وجبيل جيء بالمسيحيّين البحّارة، كما قدّمت صيدا ربابنة البحر الذين انضمّ إليهم، بعد عقود قليلة، مصريّون رافقوا إبراهيم باشا في حملته ثمّ استقرّوا في حيّ صوريّ لا يزال يسمّى "حيّ المصاروة". أمّا شيعة القرى المجاورة فهبطوا مزارعين يوفّرون للمدينة طعامها. لقد كانت "طرق البرّ" تحملهم إليها، كما كتب الشاعر عبّاس بيضون في قصيدة طويلة حملت اسم المدينة، "فتطفح السلال بعيون الفلاّحين"، وشيئاً فشيئاً انتزعت صور من حناجر الوافدين "الوتر الفلاّحيّ".

وهذا التكوين انطوى على مصالحة بين البحر ورقعة ظلّت، جيلاً بعد جيل، برّيّة

فلاّحيّة. هكذا، ووفقاً للباحث حسين شرف الدين، بنى الشيعيّ والمسيحيّ والسنّيّ المدينة متكافلين متضامنين. فصور، كما يصفها بيضون، إنّما تكوّنت من فتات الضيع، والتي استمرّت تستقبل المتدفّقين عليها، حتّى إنّ ما من أحد تقريباً من سكّانها جدّه مدفونٌ فيها. وبسبب التداخل اللاحق مع الفلسطينيّين، انضافت لهجتهم إلى لهجات أبنائها، فصار صعباً أن تنشأ لهجة واحدة لتلك المدينة المفتوحة.

حقبة الانتداب

في مطالع القرن الماضي، لا سيّما بعد العشرينات، بدأت العائلات التي تولّت السياسة والدين تفد من أرياف صور إلى صور. فمن شحور ومعركة جاء آل الخليل، ومن شحور أيضاً جاء آل شرف الدين، ومن شمع جاء آل صفيّ الدين، و لم يكن المصدر الذي قدم منه آل عرب أقرب من عرب الخيط الواقعة على الحدود الأردنيّة – السوريّة.

وكان لتكوين صور أن اضطلع بتشكيل زعاماتها ونزاعات تلك الزعامات. ذاك أنّ المدينة البحريّة التي تؤلّف نفسها يوميّاً، فيما تنبذ نفسها السابقة، تتعلّم التجارة من العالم الخارجيّ إلاّ أنّها أيضاً تستورد نقص المناعة حيال ما يقذفه البحر. وهي على الدوام تستقبل جدداً يريدون أن ينتموا عبر انتمائهم إلى أقارب سبقوهم إليها، يحمونهم من غربائها ويحتمون بهم. في هذه البيئة التي تشبه بيئات الجنوب الإيطاليّ الدائمة التكوّن، كان الزعيم مَن يدافع، قبل أيّة وظيفة أخرى، عن مرتكبي الجنح، ومن يرعى القبضايات، ومن يفكّ أسر الأسرى.

وفعلاً تولّى آل الخليل هذه المهمّة التي لم تنفصل عن موقع كسبوه مبكراً في الإدارة وتنفيعاتها. فإذا كان آل الأسعد الوائليّون أبطال الحقبة العثمانيّة، فعائلات الخليل وعسيران والزين ارتبطت، على ما بيّن وضّاح شرارة في كتابه "الأمّة القلقة"، بالإدارة الحديثة، منذ تولّي رضا الصلح منصب القائمّقاميّة. وبعد رضا، تطوّرت علاقات العائلة مع رياض الصلح ومن بعده سامي الصلح، لتبلغ ذروتها في الصلة الحميمة بين عميدها كاظم الخليل وكميل شمعون.

بيد أنّ روابط كهذه، أودعت مفاتيح النفوذ وتقديم الوظائف في أيدي آل الخليل،

استنفرت لدى عائلات السيّاد ردّاً هو، في الآن عينه، أنقى وأعتق ممّا مثّله الخليليّون. فبالتحالف مع الأسعديّين، رموز الزمن والتراتب الأقدم عهداً، ومع عصبيّتهم، تصدّى المرجع الدينيّ عبد الحسين شرف الدين، المنتقل إلى صور في ١٩٠٧، لنفوذ آل الخليل، واستمرّ أبناؤه يترشّحون لمنافستهم إلى أن فاز أصغرهم جعفر في انتخابات ١٩٦٠. كذلك فمنذ ١٩٢٥ خاض حسين صفيّ الدين، والد النائب والوزير اللاحق محمّد، معركة البلديّة ضدّ إسماعيل الخليل، والد كاظم، وكسبها.

لقد بدا للسيّاد أنّ العالم الجديد يشوبه شيء من التلوّث الذي يتغذّى على فقر وأميّة واسعين. وفي مناخ كهذا أنشأ شرف الدين، عام ١٩٣٨، المدرسة الجعفريّة مؤسّسةً لا تبتغي الربح، تموّلها عائدات الزكاة وتبرّعات المهاجرين. وكما فعلت الكليّة العامليّة في بيروت، علّمت الجعفريّة وخرّجت أجيالاً من كوادر صور والجنوب، كما رعت، بعد حين، نشأة أحزاب كالبعث، الذي نما خصوصاً في قرى القضاء، وحركة القوميّين العرب التي ازدهرت بين سنّة المدينة وشيعتها.

موسى الصدر

لكنّ عبد الحسين شرف الدين، بعد عقدين ونيّف على إنشائه الجعفريّة، ضرب ضربة أخرى كان لها أثر أبلغ، لا في تاريخ صور والجنوب فحسب، بل في تاريخ لبنان كلّه. فقد دعا إلى مدينته، وقد تقدّم به العمر، رجل دين إيرانيّاً من أصل لبنانيّ، هو موسى الصدر، كي يكمل مهمّته الدينيّة. ولمّا كانت صلات القربى الكثيرة تربط بين العائلتين الموزّعتين على لبنان والعراق وإيران، بدا الأمر أشبه باستمرار طبيعيّ.

غير أنّ كاريزما الصدر جعلت زعامته الروحيّة والزمنيّة تتعدّى صور، خصوصاً وقد وافقها الزمن الشهابيّ وتكاثر أعداد المهاجرين الشيعة وتعاظم تحويلاتهم، فضلاً عن تنامي الكوادر الشيعيّة ممّن فرزهم توسّع التعليم ووظائف الإدارة. هكذا بدأت مأسسة الطائفة بإنشاء "المجلس الشيعيّ الأعلى"، فاحتضنت صور انطلاقة لم تسكن حممها حتّى اليوم.

ولا يزال الصوريّون يتناقلون قصصاً عن الصدر وعن عيشه بينهم، وعن سلوك

كان يحضّ على التسامح بين مختلفين. ويُروى، بين عشرات القصص التي تُروى، أنّ السكّان ممّن استنطق "الإمام" شيعيّتهم وأيقظها، قاطعوا بائع بوظة مسيحيّاً من عائلة أنتيبه، ظانّين أنّ الإيمان الذي قُذف في صدورهم لا يجيز لهم تناول ما يصنعه نصرانيّ. وعلى رغم الإجماع على بوظة أنتيبه، وعلى أنّها هي البوظة، لم يعد شيعيّ يطأ دكّانه. هكذا رفع البائع شكواه إلى الصدر الذي انعطف نحو دكّانه بعد صلاة جمعة ترافقه جموع المصلّين، فحين طلب أن يتذوّق تلك البوظة، كسر التحريم الذي أقامه تأويل فقير للتديّن.

وإذ نسأل حسين شرف الدين، الذي صاهر الصدر، عن عواطف الصوريّين اليوم حيال إمامهم، يقول إنّها لا تزال قويّة. بيد أنّه يضيف أنّ "كلّ شغلنا الآن توصيات ومقرّرات".

"العهد الفلسطينيّ"

واقع الحال أنّ حرب السنتين كانت نكسة لنفوذ الصدر سبقت خطفه في ليبيا. آنذاك باتت اليد العليا للمنظّمات الفلسطينيّة المسلّحة ومعها حلفاؤها من أحزاب الحركة الوطنيّة اللبنانيّة.

يومذاك بدأ ما يسمّيه بعض الصوريّين "العهد الفلسطينيّ" الذي وطّده أنّ القوّات السوريّة لم تدخل صور في ١٩٧٦، متجنّبة الاقتراب من إسرائيل. هكذا بقيت السلطة حتّى اجتياح ١٩٨٢ الذي لم تواجهه مقاومة تُذكر، لا من المسلّحين الفلسطينيّين ولا من حلفائهم اللبنانيّين. لكنّ الملاّك الزراعيّ محمّد الفرّان، الذي كان أحد قياديّي تلك المرحلة، لا يكابر. فهو يعترف بأخطاء ضخمة ارتُكبت، إلاّ أنّه يجزم في أمر واحد هو "أنّنا لم نسرق ولم نكن فاسدين".

وربّما أمكن رصد الأصول المحلّيّة لذاك العهد وقواه في تطوّرين. ففي أواخر الخمسينات بدأ يلمع نجم شابّ صوريّ اسمه محمّد الزيّات، لاعب كرة القدم والقوميّ العربيّ، الشيعيّ المذهب. لقد وجد الزيّات وحركة القوميّين العرب التي انتمى إليها منصّة الانطلاق في "نادي التضامن"، وكانوا، إلى جانب البعث وجعفر شرف الدين

الذي أدار الجعفريّة بعد والده، الأعلى صوتاً في مناهضة آل الخليل. وفي ١٩٦٠ ترشّح الشابّ الكاريزميّ منفرداً ضدّ اللائحتين، لائحة آل الخليل ولائحة السيّاد، ونال أربعة آلاف صوت.

أمّا المصدر الآخر للرطانة القوميّة فكان الحزب السوريّ القوميّ الاجتماعيّ. ذاك أنّ الأخير ضمّ في الخمسينات والستينات كثيرين من بورجوازيّي المهجر الجدد من عائلات حلاوي ومرتضى وعجمي وسواهم ممّن رأوا فيه طريقهم إلى الشأن العامّ من خارج عائلات التقليد السياسيّ.

لكنّ "العهد الفلسطينيّ" خلّف آثاراً متفاوتة على النسيج الأهليّ. فعلى هامش الخوّات التي كانت تُفرض على ميناء صور، تمّت تصفية القبضاي التقليديّ لمصلحة "المناضل الثوريّ" الذي حدّث الوظيفة نفسها، إذ قرنها بالحزب "الطليعيّ" والسلاح الأعقد. وكان رضا الشميساني آخر رموز القبضايات في العهد القديم ممّن استؤصلوا آنذاك. أبعد من هذا أنّ المسيحيّين من ملاّكي الأراضي بدأوا يبيعونها ويغادرون صور مع إنشاء القواعد الفلسطينيّة في أراض يملكونها أو في محاذاتها، سيّما وقد ترافق الأمر مع أعمال قتل وخطف متفرّقة. أمّا السنّة فكانت قصّتهم أشدّ تركيباً. فهم أصلاً تمايزوا في تأييدهم للمقاومة الفلسطينيّة عن تأييد الشيعة لها من خلال أحزاب الشيوعيّ والقوميّ ومنظّمة العمل الشيوعيّ. ذاك أنّهم تعاونوا مع جماعات أصفى طائفيّاً كجيش لبنان العربيّ، أو التحموا مباشرة وعضويّاً بالتنظيمات الفلسطينيّة وامتلكوا مداخل أقوى عليها. فعندما شرعت علاقات البيئتين الشيعيّة والفلسطينيّة تتوتّر، تبعاً لعمليّات عسكريّة استدعت ردوداً إسرائيليّة قاسية على الجنوبيّين، استمرّ السنّة الصوريّون في تأييدهم المقاومة.

هكذا، ومع انقلاب الأزمنة اللاحق، جاءت "حرب المخيّمات" في النصف الثاني من الثمانينات لتُفسَّر على أنّها انتصار شيعيّ متأخّر على السنّة. وبالفعل، ففي مناخها قُتل ستّة من سنّة صور ما بين إعدام ورمي عن الشرفات، قيل إنّهم انتحروا.

واليوم يقيم فلسطينيّو صور موزّعين على مخيّماتهم الثلاثة، الرشيديّة، أكبرها، والبصّ وبرج الشماليّ. ولئن وُصف الأخير وحده باحتضان "عناصر متطرّفة"، يبقى أنّ القوى الإسلاميّة ضعيفة عموماً هناك، فيما الجيش يحاصر الفلسطينيّين الذين لا تغيب عنهم

عين حزب الله الخفيّة، فيما المخيّمات نفسها لم تبرأ من آلام حرب الثمانينات وما أنزلته بسكّانها. وإذ تمضي العلاقة بعيداً من الاحتكاك المباشر، ينشأ حيّز ضيّق لكلام مدنيّ من نوع أنّ الفلسطينيّين، وهم تقليديّاً عمّال البساتين في صور، "جاؤونا بخبرة البستنة" التي حملوها معهم بعد نزوحهم في ١٩٤٨، وأنّهم اليوم قوّة شرائيّة معتبرة لا يستغني اقتصاد المدينة عنها، خصوصاً أنّ أبناءهم مهاجرون يعزّزونه بتحويلاتهم وباستهلاك أهلهم.

وإذ دارت الأيّام دورتها، تحوّل الشيوعيّون والبعثيّون أفراداً مبعثرين تتقدّم بهم السنّ. وبرعاية من مثقّفين ومهنيّين أغلبهم يساريّون سابقون ويساريّون صامتون، يرعى "منتدى صور الثقافيّ" لقاءات سياسيّة وفكريّة شجاعة، شرط أن تتجنّب المسّ بالمصالح الأساسيّة للطرفين المسيطرين، أمل وحزب الله. كذلك حال القوميّين السوريّين الذين باشروا ضمورهم المديد في أواخر الخمسينات حين والوا العهد الشمعونيّ، من دون أن تسعفهم كثيراً تحوّلاتهم اللاحقة. ولم يكن بلا دلالة وجود يافطة هزيلة على مدخل صور الشماليّ يرحّب فيها السوريّون القوميّون بـ"معالي الوزير الياس بوصعب" الذي يبدو أنّه كان يزور المدينة. بيد أنّ اليافطة تبدو قشّة في عجين اليافطات والصور التي ترفعها حركة أمل وحزب الله لقياداتهما وحكّام إيران.

السلطة للبحر؟

أعقب الانسحابَ الإسرائيليّ من صور تنافسٌ بين حركة أمل وحزب الله، فيما كان المجلس البلديّ المرآة الأوضح لصراعهما على النفوذ. ففي ١٩٩٨ ثمّ في ٢٠٠٤ تنافس الطرفان من دون ضجيج، وبالحدّ الأدنى من التعبئة. وبدورها لجأت العائلات التقليديّة المتضرّرة منهما إلى ترشيح أفراد منها على لوائح حزب الله، إذ الحركة الطرف الأقوى والأقلّ حاجةً إلى سواه. إلاّ أنّ الأمور استقرّت بينهما منذ ٢٠١٠ بحيث تشكّل منهما ائتلاف فاز بالتزكية رئيسه وأكثريّته من "أمل".

لقد سارت الأمور بهدوء في صور. فالحزب، المعنيّ بإبقاء وحدة الطائفة خلفه،

أراد أن يترك تلك المدينة لنبيه برّي وحركته مقابل احتفاظه بسائر مدن الجنوب الشيعيّ وبلداته. لكنّ هذا السخاء لم ينفصل عن شعور مرجّح لدى الحزب بأنّ معدته أضيق من صور الصغيرة التي لا يتعدّى محيطها كيلومترين. هكذا كان أمام احتمالين: إمّا أن يوسّع معدته أو أن يضيّق صور.

فبُعيد انسحاب الإسرائيليّين، وقبل أن يستقرّ أمر السلطة، منع الحزب الخمور وسعى إلى تقسيم الشاطئ بين رجال ونساء، فلم يفلح. ذاك أنّ البحر وثقافة البحر انتصبا في وجهه في صيغ عدّة. فصور مدينة سياحيّة تقليديّاً، وهي ليست ذات هويّة دينيّة كاسحة كالنبطيّة مثلاً، بينما يوفّر الوجود التقليديّ للمسيحيّين والسنّة فيها ركيزة للتعدّد وممرّاً إلى الانفتاح. أمّا تركة موسى الصدر هناك فيصعب أن تُستخدم حجّةً مطلقة لطالبي اللون الواحد. وبسبب الوجود العريق نسبيّاً لبورجوازيّة مهجريّة المصادر، فإنّ تلخيص الحياة الاجتماعيّة في الحسينيّات لا يبدو يسيراً.

لقد نطق البحر ذو الأهواء المتضاربة وعصفت ريحه. واليوم، في تلك البقعة التي وصفها الدكتور إسماعيل شرف الدين بأنّها "المدينة الشيعيّة الوحيدة على البحر الأبيض المتوسّط"، يتعايش المايّوه والشادور صيفاً على الشاطئ، وتمضي الحفلات الراقصة في سبيلها. فصور، وفقاً للدكتور عمر خالد، نائب رئيس "منتدى صور الثقافيّ"، المكان الوحيد في الجنوب الذي تُحيى فيه حفلات رأس السنة. بل ربّما كانت المدينة المسلمة الوحيدة في لبنان حيث لا يُضطرّ الراغب في كأس نبيذ إلى الفرار منها والتوجّه إلى قرية مسيحيّة مجاورة.

وهناك، في ذاك الصفّ الطويل من المطاعم والمقاهي المنتشرة على الشاطئ، ترى النادلات، المحجّبات منهنّ والسافرات، وهنّ على ثقة بادية بالنفس، فيما المحجّبات والسافرات يختلطن معاً ويسرن معاً في الطريق لونين متآلفين في لوحة واحدة. لقد اختفت سلطة "القوّامين" من المشهد العامّ، فشكراً أيّها البحر.

بيد أنّ البحر لا يحكم صور وحده. فالسلطة المعلنة تحتفظ بها حركة أمل التي تجعلها طبيعتها أقدر على التعايش مع المدن البحريّة، بسيولتها النافية للصهر والتذويب كما بفسادها الملازم.

والحال أنّ الشطر الأعظم من الشاطئ بات يحمل اسم جادة نبيه برّي الذي يقال

إنّ الصلة الشخصيّة به أمتن من أيّة صلة تنظيميّة أو سياسيّة بحركته. فهناك يُحسب لبرّي أنّه جنّب صور كأس حزب الله ولم يتدخّل في طرق الحياة المألوفة فيها، مبقياً على استقرار قد يكون ركوداً لكنّه لا يفضي إلى انفجارات مدمّرة. ولا يفوت المراقبَ أنّ رئيس المجلس النيابيّ وحركته يبديان رحابة حيال الخصوم مردّها إلى شعورهما بالتفوّق عليهم وعدم الخوف منهم، سيّما أنّ الطرف الوحيد الذي يخيف، أي حزب الله، مُقرٌّ بهذه الشراكة. أمّا الشعور هذا فيتغذّى على وجود "أمل" في إدارات الدولة وقدرتها الهائلة على توفير المنافع والخدمات، مقابل الضعف الذي ينتاب عائلات التقليد السياسيّ، واقتصار الطموح، لدى أثرياء المدينة، على التقرّب من برّي وتسيير أمورهم ومصالحهم من خلاله. ويتّفق كثيرون من الصوريّين، بمن فيهم الذين لا يكنّون الودّ لحكّام المدينة الفعليّين، على أنّ "أمل" وضعت بعض الوجوه المعقولة في صدارة المدينة وواجهتها.

لكنّ نصف الحقيقة هذا لا يحول دون نصفها الآخر، حيث يردّد أفراد صوريّون أنّ ما من شبر تملكه الدولة إلاّ عُمّر فوقه، من دون اكتراث بالتخطيط المدنيّ أو البيئة أو النظافة التي تبدو، في بعض أحياء صور الداخليّة، عملة نادرة. ويذهب بعض من "يؤرّخون" هذه الوجهة إلى أصولها السابقة على هيمنة "أمل"، أي إلى حرب السنتين، حين انطلق تشويه البناء بعيداً و"شرعت المدينة تشبه مخيّم الرشيديّة بدل أن يحدث العكس". بيد أنّ الوجهة المذكورة تبلغ اليوم تمامها على أصعدة عدّة: ففي صور لا ينضب الكلام عن شفط رمول، مع ما ينطوي عليه الشفط من تهديد لحياة السابحين، وعن نهب آثار، وعن إمعان في تشويه الواجهة البحريّة. وغزيرةٌ الأخبار التي تُتداوَل عن حصص يملكها النافذون في مشاريع تجاريّة وسياحيّة كبرى ووسطى، وعن معامل لم تنشأ، رغم الفراغ من تجهيزها بأحدث المعدّات، لأنّ أصحابها رفضوا توظيف عشرات طلب النافذون توظيفهم. أمّا الزعران الذين يتمتّعون بسطوة ونفوذ فعنوان آخر من عناوين الحياة العامّة في صور.

وهكذا دواليك تمضي الرواية الصوريّة روايات عدّة، يتتابع فيها المدّ والجزر، كما لو أنّ المدينة تحاكي بحرها الذي يصخب ويهدأ، ويهبط ويعلو، محتفظاً لنفسه بعديد الأسرار المكتومة.

إنّه حزب الله

عند مفرق برج رحّال، قبل بلوغ صور، يتجمّع شبّان ذوو مظهر ولهجة ريفيّين، يبيعون ركّاب السيّارات "سي دي" عن انتصار حزب الله في يبرود السوريّة. لكنّ أولى الملاحظات عن سلعتهم المُسعّرة بعشرة آلاف ليرة، أنّ اللهجة المعتمدة فيها عراقيّة مطعّمة بالفصحى. فالسامع لا يقع في الـ"سي دي" على لهجة سوريّة أو أخرى لبنانيّة. كما لا يرد ذكر لسوريّة أو نظامها أو رئيسها، وإن وردت إشارة سريعة إلى جيشها. أمّا الموسيقى فواضحة تشكّلها آلات عدّة، ومن دون أن تقتصر على الأناشيد يخترقها لحن "راي" مغربيّ يموسق عبارة "هيهات منّا الذلّة". لكنّ ربّما كان أهمّ ما في الـ"سي دي" دعاء يكاد يكون سنّيّاً لحسن نصرالله، يتحدّث فيه عن النبيّ محمّد فيما يخلو من كلّ دلالة شيعيّة، تصحبه مقتطفات من خطابات الأمين العامّ في حرب ٢٠٠٦!

هذا الاختلاط الذي يُستقبل به الداخل إلى صور من شمالها، لا يشي إلاّ بالقليل عن وضع حزب الله في المدينة. فهنا، وعلى عكس ما يُظهره السطح من سطوة لـ"أمل"، يبدو كأنّ الحزب ينشئ سلطة خفيّة تقيم تحت السطح ولا تتدخّل إلاّ في ما تراه بالغ الحساسيّة يستدعي منه الحسم. فإذ تتقارب أعداد الصور واليافطات التي يرفعها كلّ من الطرفين، ويتعادلان في تشويه مشهد المدينة العامّ، يتسلّل إلى الناظر شعور مفاده أنّ "أمل" لا تبغي من الصورة إلاّ الصورة. وهذه ليست حال الحزب الذي يقول في لحظات الشدّة واستهداف العقيدة: الأمر لي.

ففي ٢٠٠٩، مثلاً، كانت صور على موعد مع فرقة برازيليّة للسامبا دعتها وزارة الثقافة ووافقت "أمل" وبلديّة صور على دعوتها. لكنْ ما لبثت الاحتجاجات أن تصاعدت على "عُري" الراقصات، وظهرت فتوى أصدرها مئة شيخ، على رأسهم علي ياسين المقرّب من الحزب، تقضي بتحريمها. وفي النهاية، تدخّل حزب الله باسمه الصريح معلناً أنّ الممنوع ممنوع، فصمت المتحدّثون. بعد تلك الحادثة جاء تفجير المطاعم الأربعة التي تقدّم الخمور لزبائنها، متحدّياً الرخاوة التي بموجبها تسوس "أمل" المدينة. ولئن اختلف تأويل الصوريّين فاتّهم بعضهم حزب الله، في سرّهم طبعاً، واتّهم آخرون جهاديّين من فلسطينيّي المخيّمات، لوحظ أنّ الحزب تفرّد بعدم الاستنكار الذي أبداه أهل صور، عبر فاعليّاتهم وممثّليهم الأهليّين بمن فيهم الحركة. وإذ يُقدّر وجود عين

للحزب "ساهرة" على الوجود الفلسطينيّ، يُقدَّر أيضاً وجود عين مماثلة على الوجود السوريّ، فيقال إنّ عناصره الأمنيّة منتشرة في البساتين وعند المفترقات "منعاً لأيّ تصادم" مع السوريّين.

الريف مقابل البحر

فحزب الله، فضلاً عن استنطاقه العصب الشيعيّ، وعمّا يقدّمه من رعاية وخدمات، وفّر حلاً لمشاكل النساء من أرامل الحزبيّين بتسهيل تزويجهنّ، كما تكفّل باليتامى. وهو خاطب الشبيبة الباحثة عن مثالات لم تجسّدها "أمل"، وعن تماسك تنظيميّ تفتقر إليه فيما يحبّه صغار السنّ. ومن خلال "كشّافة المهديّ" وتوزيع الدرّاجات الناريّة ودفع معاشات لعاطلين من العمل تبلغ أحياناً ٥٠٠ دولار، عزّز الحزب حضوره بين اليافعين.

لكنّ مراقبي الوضع الصوريّ يلاحظون أنّ حزب الله يختلف عن حركة أمل في سمتين اجتماعيّتين: فهو الأقوى في القرى المحيطة بالمدينة التي لا يني سكّانها يتدفّقون عليها. ومعروفٌ أنّ صور، المتجانسة طائفيّاً مع جوارها الشيعيّ، يدخلها كلّ صباح عشرات الآلاف من أبناء قرى القضاء. ثمّ إنّ البيئات الطبقيّة التي ينمو الحزب فيها أدنى كعباً، بصفة عامّة، وأضعف حيلةً من تلك التي تجذبها الحركة.

والحال أنّ حزب الله استكمل التحويل الاجتماعيّ الذي انطلق مع موسى الصدر، مُكسباً إيّاه مزيداً من الجذريّة في القاعدة الاجتماعيّة كما في الثقافة والطقوس الملازمة. فظاهرة الحجاب، وإن لم تنتشر في عموم صور التي عاش فيها موسى الصدر ونمت حركته، تنضح بها بيئة الحزب المتّسعة بسبب إقبال الشبيبة عليه. والمقلق أنّ حزب الله قد يستفيد من تشنّج لا يزال محصوراً في المساجد ليوسّع مساحته ومساحة الرموز التي يعمّمها. ذاك أنّ المساجد الصوريّة تعجّ بالمصلّين كلّ جمعة، حيث يتبارى خطباؤها الشيعة في تمجيد المقاومة، فيما يتبارى خطباؤها السنّة في تمجيد الجهاد.

وهناك تحويل في القيم أحدثه الحزب ويُحدثه. فتقليديّاً، نجح البحر، بثقافته وتجارته، كما بتغريبه وتلويثه، في كسر ريفيّة الصوريّين. هكذا نشأ، بحسب عبّاس بيضون، ميل إلى التنكّر للأصل، وباتت كلمة فلّاح مهينة في عرفهم. بل ظلّ، حتّى الستينات، مرور

لابس العُقال في الأسواق "مشكلة لصاحبه". أمّا الآن فالشعور الغالب أنّ الفلّاحين غلبوا الصوريّين وصاروا لا يقلّون عنهم رسوخاً في مدينتهم.

لقد ضخّم حزب الله مسألته مع إسرائيل لدى الشيعة، وهي التي اقتصرت طويلاً على الحزبيّين والعقائديّين منهم، لا تكاد تتعدّاهم إلى نطاق شعبيّ أعرض. لكنّ النجاح، هنا، لا يزال يبدو متفاوتاً. فمع أنّ الإسرائيليّين أنزلوا ضربات مدمّرة بصور في ١٩٨٢، يبقى الحديث عنهم أقرب إلى النثر الجيوبوليتيكيّ البارد منه إلى الشعر الحماسيّ. مع ذلك، فالنجاح يبدو مطلقاً حين يطلب الحزب أداء أدوار تفيده بذريعة الخطر الإسرائيليّ، كأنْ يعلن، مثلاً، طرد "الأهالي" الغامضين قوّات الأمم المتّحدة لأنّهم يصوّرون! وهذا في مدينة سياحيّة داعبتها لعشرات السنين كاميرات السيّاح.

يفاقم الخطرَ الآتي من حزب الله أنّ "أمل" ليست طرفاً تنظيميّاً جدّيّاً أو متماسكاً، وأنّها تخلّف فراغات أكثر ممّا تملأ، فيما عائلات التقليد السياسيّ تميل إلى الاستظلال به ضدّاً على "أمل". هكذا تسمع، مثلاً، من يقول إنّ حسن نصرالله، لا نبيه برّي، هو الذي يمثّل امتداد موسى الصدر وتركته بسبب "استمراريّة المقاومة".

وعلى العموم، إذا بدا البحر حليف الحركة، فإنّ الدفق الريفيّ على صور حليف الحزب. ولهذا ربّما كان على "أمل" أن تحذر: ذاك أنّ المؤمنين الذين يقصّرون المسافة بين الطبيعة الأولى والله، لا يتردّدون في التفكير في تجفيف البحور. تكفي نظرة سريعة إلى المدن المتوسّطيّة في العقود الماضية للتيقّن من أنّ جنود الله على أنواعهم لا يحبّون الماء.

ضمور العائلات السياسيّة

وفي هذا المناخ جرت محاولات متفرّقة رادها بعض أبناء العائلات للترشّح إلى النيابة أو إلى المجلس البلديّ. بيد أنّ المعبّرين عن المحاولات المذكورة لا يكتمون مرارةً أحدثها انقلاب الأزمنة. فرجل الأعمال شوقي صفيّ الدين، نجل محمّد، يرى أنّ الفئات الجديدة "نسيت آباءنا، فيما الشبّان يوالون حزب الله"، مضيفاً أنّ الثلاثين سنة الفائتة جعلت أيّ تحرّك سياسيّ تباشره العائلات المغيّبة صعباً جدّاً. وبدوره يقول المهندس محمّد شرف الدين، نجل جعفر وحفيد عبد الحسين، إنّ الأبناء والأحفاد "ما عادوا يذكروننا، وإن

كان أهلهم يحنّون إلى تلك الأيّام"، مقدّراً أنّ الحركة والحزب يحظيان اليوم بتأييد "ثلثي الشارع".

وليس من غير دلالة أنّ معظم تلك العائلات اخترقها التنظيمان عميقاً، لا سيّما حزب الله الذي يُعدّ أبرزُ وجوهه في قضاء صور هاشم صفيّ الدين، ابن خالة حسن نصرالله. وعلى العموم، انحاز الأغنى بينهم إلى الحركة، والأفقر إلى الحزب، وهو ما لم يبرأ منه يساريّون سابقون بعضُهم قاده عشق المقاومة إلى الله وحزبه، وبعضهم قادته الرغبة في حياة أفضل إلى نبيه برّي وحركته.

على أنّ آباء العهد القديم لم يبق أيّ منهم على قيد الحياة. فإلى وفاة كاظم الخليل في ١٩٩٠ وعلي الخليل في حادث سير في ٢٠٠٥، رحل جعفر شرف الدين في ٢٠٠١ ومحمّد صفيّ الدين في ٢٠٠٦. وهم، في عمومهم، مثّلوا حالة اجتماعيّة لم يجانبها لون من التحديث: فقد درس كاظم الخليل في مدرسة الفرير في صيدا ثمّ في الجامعة الأميركيّة ببيروت قبل أن يتخرّج في جامعة دمشق محامياً، بينما أنجز محمّد صفيّ الدين دراسته الابتدائيّة والتكميليّة في المدرسة الأسقفيّة للروم الكاثوليك. وإذ درس جعفر شرف الدين في الكلّيّة الشرعيّة في بيروت، فقد التحق بعدها لفترة قصيرة بمعهد الآداب الشرقيّة في اليسوعيّة. وعمل الخليل وصفيّ الدين محامين وقاضيين، وأدار شرف الدين الكلّيّة الجعفريّة، وكان شاعراً عموديّاً مهتمّاً بالثقافة الإسلاميّة، فيما تولّى علي الخليل تدريس العلوم السياسيّة في الجامعة. وبدورها تمثّلت البورجوازيّة المهجريّة لصور وقضائها بسليمان عرب وشقيقه علي، ثمّ بشيء من الاستعراض الكوميديّ بيوسف قاسم حمّود، بينما بقي المصرفيّ علي الجمّال مرشّحاً محتملاً دائماً.

وهؤلاء جميعاً لم تُطوَ صفحتهم فحسب، بل استعيض عنهم بأربعة نوّاب لقضاء صور كلُّهم من خارج المدينة. فممثّلا الحزب بينهم، محمّد فنيش ونوّاف الموسويّ، من قريتي معروب وأرزون، وممثّلا الحركة، علي خريس وعبد المجيد صالح، من قريتي برج رحّال وياطر التابعة قضائيّاً لبنت جبيل.

صحيح أنّ ممثّلي العهد القديم هم أيضاً ممّن وفد آباؤهم إلى صور من قراها المجاورة، بيد أنّ تلك الوفادة كانت جزءاً من تشكّل المدينة ومن تدامُج أبنائها، ما لا يصحّ اليوم بالقدر ذاته. ذاك أنّ سنوات الاحتلال الإسرائيليّ أطلقت هجرة ضخمة من قرى

"الشريط الحدوديّ" إليها، فيما غالبيّة أهل المدينة أضحوا يقيمون في بيروت أو الخارج. فكأنّ الهجرة من صور جاءت تعلن ضيقها بسكّانها وضيقهم بها، بينما الهجرات إليها اعترضت سيرورة تشكّلها بعدما قطعت، ما بين العشرينات والسبعينات، شوطاً بعيداً.

هكذا يرى حسين شرف الدين أنّه "لم تظهر حتّى الآن خطّة لإيجاد نسيج مشترك" بين سكّان صور والوافدين إليها، فيما يؤكّد آخرون أنّ الغالبيّة الساحقة من موظّفي الدولة اليوم من القضاء وليسوا من المدينة.

وربّما رغب نبيه برّي في امتصاص تذمّر صوريّ محتمل حين تبنّى علي الخليل وألحقه به، هو المولع بإلحاق العائلات المهيضة الجناح، أو حين برّز ناصيف سقلاوي، مدير شركة الريجي، والصوريّ الذي يخاطب أهل المدينة أكثر ممّا يفعل نوّابها.

مَن للمواجهة؟

وحدها عائلة الخليل، التي تزعّمها كاظم طويلاً، تتمرّد اليوم على سلطة الثنائيّة الشيعيّة، ولا تكتم عطشها إلى تغيير جذريّ يسنده تلاحم داخليّ أقوى ممّا تحتفظ به العائلات الأخرى. لكنّ الإلمام بالمدينة في حدّه الأدنى يوحي بأنّ المحاولة التي يرعاها السفير خليل كاظم الخليل أقرب إلى نطح الصخر، وأنّ صاحبها لا يعدو كونه مصغّراً عن نجل الشاه الإيرانيّ الذي يحلم بالعودة إلى إيران شاهاً.

فالخدمات التي درج كاظم على تقديمها، لا سيّما في العهد الشمعونيّ حيث كان وزيراً شبه ثابت في حكوماته، أصبحت في عهدة التنظيمين. أمّا "القبضاي" القديم الذي كان "يفعل السبعة وذمّتها" ويجد في الخليل من يفكّ أسره ويشدّ أزره، فحلّ محلّه "قبضاي" آخر هو وحده اليوم من "يفعل السبعة وذمّتها".

لكنّ آل الخليل، وفي هذا شجاعةٌ مؤكّدة، واظبوا على معاندة السائد. فهم، في ذروة الناصريّة، كانوا شمعونيّين، وقفوا ضدّ التيّار في "ثورة" ١٩٥٨ وطُردوا من مدينتهم عقاباً. ولا يزال صوريّون قدامى يتذكّرون زيارات كميل شمعون لكاظم الخليل الذي كان يصطحبه لتناول الفطور عند "العبد بارود"، فوّال صور الأهمّ. أمّا بعد انصرام العهد الشمعونيّ، فبقي الخليل شمعونيّاً قحّاً، تبوّأ منصب نائب الرئيس في "حزب

الوطنيّين الأحرار"، وسمّته الصحافة "عرّاب الحلف الثلاثيّ" في ١٩٦٨ الذي جمع، إلى الرئيس السابق، بيار الجميّل وريمون إدّه، وكان التعبير عن مارونيّة قصوى أطاحت الشهابيّة في جبل لبنان.

ثمّ في "العهد الفلسطينيّ" وقف آل الخليل في وجه السلطة الجديدة وطُردوا، مرّة أخرى، وعلى نحو أوسع، من صور التي عادوا إليها، غير هيّابين، مع الاجتياح الإسرائيليّ. وفي تلك الغضون استعادوا بعض قدرتهم القديمة على توفير الخدمات لطالبيها. لكنْ ما إن رحل الإسرائيليّون حتّى أُحرق منزلهم العائليّ وجعلت قوى الهيمنة الجديدة من اسمهم اسماً يرادف الخيانة. وإذ أتيح لهم لاحقاً أن يعودوا إلى مدينتهم، دلالةً على اطمئنان الثنائيّ الشيعيّ إلى سلطته، فهذا ما لم يحم آل الخليل من التعرّض لامتحانات صعبة. ففي ١٩٩٢، حين ترشّح ناصر الخليل، نَجل كاظم الأصغر، إلى الانتخابات، تعرّض لمحاولة اغتيال أصيب من جرّائها إصابات جدّيّة، وفي مطالع ٢٠٠٥ تناولت الصحف خبراً عن تفجير منزل النجل الأكبر خليل الخليل في بلدة معركة من قضاء صور.

لقد اصطبغت المعاندة التي أبداها آل الخليل بدم كثير اتُّهموا به سبق الدم الذي طُلب منهم، كما خلّفت جبلاً من الأحقاد والكراهية. بيد أنّ النهج الذي نهجوه، بما انطوى عليه من نضاليّة ومشاكسة، لم يُعدم الجذور والأسباب البعيدة. فهم ليسوا سيّاداً كعائلتي شرف الدين وصفيّ الدين، بل استمدّوا موقعهم من الإدارة وتقديماتها، المحلّل منها والمحرّم. وهذا ما أضعف حساسيّة الدين عندهم قياساً بحساسيّة الدولة القابلة لأن تنقلب مزرعةً في أيّة لحظة. ثمّ إنّ زعيمهم كاظم، الذي تعود نيابته الأولى إلى ١٩٣٧، لم يغازل مرّةً الاتّجاهات العروبيّة وشبه العروبيّة التي طغت في هذه الحقبة أو تلك، ولم يكن فيه، صغيراً أو كبيراً، شيء من هذا.

فلئن انتسب محمّد صفيّ الدين في شبابه إلى حزب النجّادة، فقد اقترب جعفر شرف الدين من حزب البعث الذي كان من قياديّيه علي الخليل، قريب كاظم المنشقّ عنه. وإذ ربطت شرف الدين علاقة وثيقة بالمقاومة الفلسطينيّة، وبات صفيّ الدين من أركان موسى الصدر، بقيت السياسة عند كاظم الخليل محكومة بمركزيّة المارونيّة الجبليّة.

واستمرّ هذا التقليد، في وجهه الثقافيّ، عبر كريمة كاظم، مهى الخليل الشلبي، المهتمّة بالآثار والسياحة، والتي أسّست مهرجانات صور الدوليّة في ١٩٧٢. وعلى نحو مألوف في نساء البورجوازيّة المسيحيّة، وغير مألوف في نساء مثيلتها المسلمة، سعت إلى مشاريع كتنسيب مدينتها إلى "رابطة المدن الكنعانيّة والفينيقيّة والبونيّة".

ماضٍ بلا مستقبل

ومسيحيّو صور وسنّتها ليسوا هامشاً أو تفصيلاً. فالمدينة أصلاً حارتان كبريان، مسلمة ومسيحيّة. والمسيحيّون، العرب منهم والأرمن، بأكثريّتهم الكاثوليكيّة وبموارنتهم وأرثوذكسهم، الموزّعين على عائلات برادعي وخوري وحديد وصالحة وسواها، عاشوا الأطوار الصوريّة ذاتها وإن من موقع مغاير.

فهم يشكّلون، وفقاً للوائح الشطب، ثلث السكّان، بينما يشكّل السنّة ثلثاً آخر لا يقلّ إلّا قليلاً عن الثلث المسيحيّ. لكنّهم، كمقيمين اليوم، لا يتجاوزون ١٠ في المئة في أحسن أحوالهم، بينما السنّة يقاربون الـ١٥، كونهم، كما يقول محمّد الفرّان، أقلّ منهم مغادرةً للمدينة واغتراباً.

والهجرة هذه، بحسب جورج غنيمة، عضو المجلس البلديّ ومسؤول لجنة الثقافة والتربية فيه، إنّما انفجرت في ١٩٦٧ مع الهزيمة العربيّة، فطالت ملّاكين كباراً ممّن باعوا أملاكهم وأصحاب رساميل انتقلوا إلى بيروت ووظّفوا رساميلهم هناك، ثمّ في مطلع السبعينات انطلقت موجة أخرى إلى أستراليا وكندا وأميركا ضمّت في عدادها تجّاراً وموظّفين.

هكذا، وفي ما يشبه العود على بدء، بقي في صور من مسيحيّيها العاملون في الصيد البحريّ، وقسم من أبناء هؤلاء يعملون اليوم موظّفين في مدارس القطاع الخاصّ ومصارفه.

ولم تكن الحال هكذا. فإذا نمّ وجود "القبضايات" عن شعور الجماعة بالتمكّن، في ظلّ ضعف الدولة المعروف، فقد كان للمسيحيّين حتّى الستينات "قبضاياتهم"، كفؤاد

الوطنيّين الأحرار"، وسمّته الصحافة "عرّاب الحلف الثلاثيّ" في ١٩٦٨ الذي جمع، إلى الرئيس السابق، بيار الجميّل وريمون إدّه، وكان التعبير عن مارونيّة قصوى أطاحت الشهابيّة في جبل لبنان.

ثمّ في "العهد الفلسطينيّ" وقف آل الخليل في وجه السلطة الجديدة وطُردوا، مرّة أخرى، وعلى نحو أوسع، من صور التي عادوا إليها، غير هيّابين، مع الاجتياح الإسرائيليّ. وفي تلك الغضون استعادوا بعض قدرتهم القديمة على توفير الخدمات لطالبيها. لكنْ ما إن رحل الإسرائيليّون حتّى أُحرق منزلهم العائليّ وجعلت قوى الهيمنة الجديدة من اسمهم اسماً يرادف الخيانة. وإذ أتيح لهم لاحقاً أن يعودوا إلى مدينتهم، دلالةً على اطمئنان الثنائيّ الشيعيّ إلى سلطته، فهذا ما لم يحم آل الخليل من التعرّض لامتحانات صعبة. ففي ١٩٩٢، حين ترشّح ناصر الخليل، نَجل كاظم الأصغر، إلى الانتخابات، تعرّض لمحاولة اغتيال أصيب من جرّائها إصابات جدّيّة، وفي مطالع ٢٠٠٥ تناولت الصحف خبراً عن تفجير منزل النجل الأكبر خليل الخليل في بلدة معركة من قضاء صور.

لقد اصطبغت المعاندة التي أبداها آل الخليل بدم كثير اتُّهموا به سبق الدم الذي طُلب منهم، كما خلّفت جبلاً من الأحقاد والكراهية. بيد أنّ النهج الذي نهجوه، بما انطوى عليه من نضاليّة ومشاكسة، لم يُعدم الجذور والأسباب البعيدة. فهم ليسوا سيّاداً كعائلتي شرف الدين وصفيّ الدين، بل استمدّوا موقعهم من الإدارة وتقديماتها، المحلّل منها والمحرّم. وهذا ما أضعف حساسيّة الدين عندهم قياساً بحساسيّة الدولة القابلة لأن تنقلب مزرعةً في أيّة لحظة. ثمّ إنّ زعيمهم كاظم، الذي تعود نيابته الأولى إلى ١٩٣٧، لم يغازل مرّةً الاتّجاهات العروبيّة وشبه العروبيّة التي طغت في هذه الحقبة أو تلك، و لم يكن فيه، صغيراً أو كبيراً، شيء من هذا.

فلئن انتسب محمّد صفيّ الدين في شبابه إلى حزب النجّادة، فقد اقترب جعفر شرف الدين من حزب البعث الذي كان من قياديّيه علي الخليل، قريب كاظم المنشقّ عنه. وإذ ربطت شرف الدين علاقة وثيقة بالمقاومة الفلسطينيّة، وبات صفيّ الدين من أركان موسى الصدر، بقيت السياسة عند كاظم الخليل محكومة بمركزيّة المارونيّة الجبليّة.

واستمرّ هذا التقليد، في وجهه الثقافيّ، عبر كريمة كاظم، مهى الخليل الشلبي، المهتمّة بالآثار والسياحة، والتي أسّست مهرجانات صور الدوليّة في ١٩٧٢. وعلى نحو مألوف في نساء البورجوازيّة المسيحيّة، وغير مألوف في نساء مثيلتها المسلمة، سعت إلى مشاريع كتنسيب مدينتها إلى "رابطة المدن الكنعانيّة والفينيقيّة والبونيّة".

ماضٍ بلا مستقبل

ومسيحيّو صور وسنّتها ليسوا هامشاً أو تفصيلاً. فالمدينة أصلاً حارتان كبريان، مسلمة ومسيحيّة. والمسيحيّون، العرب منهم والأرمن، بأكثريّتهم الكاثوليكيّة وبموارنتهم وأرثوذكسهم، الموزّعين على عائلات برادعي وخوري وحديد وصالحة وسواها، عاشوا الأطوار الصوْريّة ذاتها وإن من موقع مغاير.

فهم يشكّلون، وفقاً للوائح الشطب، ثلث السكّان، بينما يشكّل السنّة ثلثاً آخر لا يقلّ إلاّ قليلاً عن الثلث المسيحيّ. لكنّهم، كمقيمين اليوم، لا يتجاوزون ١٠ في المئة في أحسن أحوالهم، بينما السنّة يقاربون الـ١٥، كونهم، كما يقول محمّد الفرّان، أقلّ منهم مغادرةً للمدينة واغتراباً.

والهجرة هذه، بحسب جورج غنيمة، عضو المجلس البلديّ ومسؤول لجنة الثقافة والتربية فيه، إنّما انفجرت في ١٩٦٧ مع الهزيمة العربيّة، فطالت ملاّكين كباراً ممّن باعوا أملاكهم وأصحاب رساميل انتقلوا إلى بيروت ووظّفوا رساميلهم هناك، ثمّ في مطلع السبعينات انطلقت موجة أخرى إلى أستراليا وكندا وأميركا ضمّت في عدادها تجّاراً وموظّفين.

هكذا، وفي ما يشبه العود على بدء، بقي في صور من مسيحيّيها العاملون في الصيد البحريّ، وقسم من أبناء هؤلاء يعملون اليوم موظّفين في مدارس القطاع الخاصّ ومصارفه.

و لم تكن الحال هكذا. فإذا نمّ وجود "القبضايات" عن شعور الجماعة بالتمكّن، في ظلّ ضعف الدولة المعروف، فقد كان للمسيحيّين حتّى الستينات "قبضاياتهم"، كفؤاد

عازر وعوض أرنوبة، مثلهم في ذلك مثل المسلمين. وحتّى ١٩٧٦، وعلى رغم سطوة السلاح، ظلّ في وسع مطران الموارنة يوسف الخوري أن يطرد من مطرانيّته مسؤول "فتح" النافذ والمخيف عزمي الصغير.

والحال أنّ القانون الانتخابيّ العائد إلى ١٩٥٣ والذي جعل صور دائرة انتخابيّة، أعطاها نائباً من الشيعة. بهذا ابتدأ مسار يعكس الرجحان الضئيل الذي أحرزه العدد الشيعيّ فيما يكرّس صور مدينةً شيعيّة. وأغلب الظنّ أنّ القانون هذا، الذي صدر مطالع العهد الشمعونيّ، استهدف تطويب المدينة لكاظم الخليل بقدر ما استبطن خلوده في زعامتها. وعلى المنوال ذاته، جاء قانون ١٩٥٧، الشمعونيّ أيضاً، يمثّل صور بنائبين شيعيّين، قبل أن يرتفع العدد في ١٩٦٠، مع العهد الشهابيّ، إلى ثلاثة نوّاب شيعة.

فالمسيحيّون، وكذلك السنّة، ليس لديهم نوّاب من طوائفهم. ولئن عوّض هذا النقصَ جزئيّاً اعتمادُ المرشّحين الشيعة على أصواتهم، وما يوجبه ذلك من إنصات إليهم، فهذا ما تراجع إلحاحه مع نشأة الثنائيّة الشيعيّة الواثقة التي لا يعوزها دعم أحد.

زاد في ترشيق الوزن السياسيّ للمسيحيّين ضمور آل الخليل "الشمعونيّين"، الذين كانت أغلبيّة المسيحيّين الصوريّين توالي زعيمهم كاظم وتراه الأقرب سياسيّاً إليها والأشدّ تفهّماً لها. وقد حصل شيء مماثل للسنّة مع تعاظم المسافة التي تفصل السياسات الحريريّة، وهي ما يحبّذونه، عن توجّهات الحزب والحركة.

منذ حرب السنتين

بيد أنّ انفجارات العنف الكبرى كانت أكثر ما قوّض الموقع المسيحيّ. فخلال حرب السنتين لم يعان مسيحيّو صور ما عاناه مسيحيّو مناطق أخرى أقلّ حظّاً، لكنْ، مع هذا، حدثت حالات خطف ربّما كان أبرزها إقدام حركة الصاعقة على خطف عائلة رزق وقتل أفراد منها. حينذاك جعلت أحزاب الحركة الوطنيّة، التي لم يكن يغلب عليها لون طائفيّ، تنتدب مقاتلين منها وترسلهم إلى حارة المسيحيّين "لحمايتهم". لقد باتوا بحاجة إلى الحماية.

وبدورها سجّلت حرب السنتين الموجة الأكبر من هجرة الأرمن الصوريّين، بعدما سبقتها موجات أصغر في الستينات. فالأرمن، الذين يتحسّر على غيابهم عفيف صفيّ الدين، الأستاذ المتقاعد والملّاك الزراعيّ، كانوا زرّاع البساتين في البقعتين اللتين أصبحتا، بعد ١٩٤٨، مخيّمي البصّ والرشيديّة، أسّسوا هذه المهنة التي وسّعها الفلسطينيّون لاحقاً وعُزيت إليهم. ولئن شكّلوا، منذ وفادتهم من كيليكيا أواخر الثلاثينات، نسبة معتبرة من السكّان، فإنّهم اليوم أربع عائلات فحسب في عدادها مختارها.

في وقت لاحق، ومع انتخاب بشير الجميّل رئيساً، عبّر مسيحيّو صور وقرية دردغيا في قضائها عن فرحة تعدّت البيوت إلى الشوارع والأعلام، فتدخّل وجهاء مسلمون أقنعوا المطارنة والوجهاء المسيحيّين بأن يضغطوا لتبديد نشوتهم، وهكذا كان. وخُطف، في هذه الأثناء، أفراد من عائلتي برشا وكترا لم يُعثر عليهم حتّى اليوم.

أمّا بعد التحرير، فعوقب مستشفى بشّور بالتحطيم لأنّ زوجة الطبيب الذي يملكه تجرّأت على ما لا يجرؤ الرجال عليه. فهي ترشّحت، في ٢٠٠٤، على مقعد بلديّ ضدّ لائحة "أمل"، فأحيل المستشفى طللاً من حجارة بكماء.

وتلتقي الحوادث على الإيحاء بنمط من التحكّم يجمع بين الرعاية والوصاية. فخارج التمثيل السياسيّ، وعلى ما تروي سيّدة مسيحيّة، لا تتدخّل "أمل" في حياة الناس وطرائق عيشهم. وهذا مدعاة ارتياح، خصوصاً أنّ الجنوب الآن "أهدأ مناطق لبنان" بسبب "انتفاء التنافس بين القوى". لكنّ كلام السيّدة الذي لا يقال خارج الغرف المغلقة، متعدّد الأبعاد: "فالاطمئنان إلى عدم التدخّل لا يلغي أنّنا ضعفاء، نُضطرّ إلى الإذعان للأمر الواقع. فمن الذي يردع أزعر من الزعران المحميّين إذا قرّر إزعاجنا؟ يكفي أن يقرّر أحدهم رمي نفاياته في أرضنا أو إخافة عمّالنا...". وهي تختم مستنتجةً خلاصتها الجوهريّة: "فقط إذا نزعوا السلاح تساوى الجميع وصار في وسعهم أن يعبّروا عن آرائهم الحقيقيّة".

فالصوريّ، متى كان مسيحيّاً أو سنّيّاً، لن يكون تامّ الحرّيّة في خيار سياسيّ يخالف ما تختاره الأكثريّة الشيعيّة. ذاك أنّ السنّيّ كان تقليديّاً يتأثّر بصائب سلام الذي كان من مقرّبيه الوجيه الصوريّ السنّيّ علي المملوك، والتأثّرُ هذا كان يمكن الجهر به في أزمنة السلم كما في أزمنة التقاطع بين سلام وزعماء صور الشيعة. لكنّ السنّيّ، في

انجذابه الراهن إلى تيّار المستقبل، يجد فرصته التعبيريّة أضيق وأكثر كلفة. والأمر يبدو أشدّ حدّة في حالة المسيحيّين، إذ يصعب أن نتخيّلهم يعبّرون علناً عن تعاطفهم مع القوّات اللبنانيّة أو يقيمون لها مقرّاً في حارتهم. والخوف هذا إنّما استدخله مسيحيّو صور. فقد ضغطوا هم أنفسهم على شبّان منهم أرادوا إنشاء مقرّ لواحد من أحزابهم فحملوهم على العزوف.

وثمّة وظائف في القطاع العامّ لا يمكن الحصول عليها لأسباب مركّبة نسبيّاً. فالأولويّة في التوظيف تعود اليوم إلى أبناء قرى القضاء، يليهم الصوريّون الشيعة ومن بعدهم الصوريّون غير الشيعة. ومن الأمثلة التي تتردّد أنّه لم يُعيّن إلاّ مؤخّراً شرطيّ بلديّة مسيحيّ، ولم يتمّ ذلك إلاّ بعد بذل المطالبات والوساطات. كذلك سُحبت من أيدي المسيحيّين مصلحة الآثار، أمّا نقابة الصيّادين التي شكّلوا تقليديّاً عمادها، وعاد منصب النقيب فيها إلى السنّة، فأصبحت يدها العليا شيعيّة.

تعابير ذمّيّة

وفي هذا شيء من الذمّيّة التي يعزّزها انعدام الأحزاب مقابل الإقبال الكثيف على جمعيّات وروابط أهليّة ومدنيّة كثيراً ما تقيم مناسباتها واحتفاليّاتها برعاية رندة برّي. ذاك أنّ الرعاية تلك هي وحدها ما يضمن الحضور الواسع والتبرّعات الماليّة، أي الإقرار بشرعيّة النشاط المعنيّ وقابليّته للحياة.

هكذا يقيم شيء من عالم المذاهب العثمانيّ، ومن تجاوُره وتراتُبه، متيحاً بعض الحرّيّات من دون المساواة الفعليّة في المواطنيّة، وحائلاً دون تفاعل حقيقيّ بين الجماعات. فالمسيحيّون والمسلمون يتبادلون الواجبات الاجتماعيّة بما يحفّ بها من مجاملة، لكنّهم نادراً ما يتبادلون الزيارات التي لا تمليها تلك الواجبات، فلا يذهب واحدهم إلى "عالم" الآخر المغلق عليه. صحيحٌ أنّ القليل من الزيجات المختلطة شهدته صور، لكنْ هيهات أن تتغلّب هذه على إرث قديم يستعيده عبّاس بيضون حين يتحدّث عن أيّام الدراسة في الخمسينات والستينات: فمنذ ذاك الحين، "كان مستحيلاً أن نعرف كيف يفكّر التلامذة المسيحيّون سياسيّاً".

هكذا تطوّرت، خصوصاً في السنوات الأخيرة، باطنيّة تثقّل الألسنة وتجعل المواربة أختاً للكلام. فحين نسأل عضو البلديّة جورج غنيمة عن أحوال صور السياسيّة، يجيب بتهذيب أنّه لا يتحدّث في السياسة، ويروح يحدّثنا عن "العيش الوطنيّ الواحد". لكنّ تلك السيّدة المسيحيّة تنهي كلامها بالقول إنّ "الشبيبة" غادرت صور وتغادرها لأنّ "لا مستقبل لنا هنا".

واقع الحال أنّ انهيار الموقع المسيحيّ أتى متأخّراً بضعة عقود عن انهيار الموقع السنّيّ. فآل المملوك السنّة كانوا تقليديّاً بكوات صور وعماد نظامها في الزمن العثمانيّ، وقد ظلّ الجامع الأوحد في المدينة سنّيّاً، وهو ما بات يُعرف اليوم بالجامع القديم، إلى أن أنشأ عبد الحسين شرف الدين جامعاً للشيعة.

وعلى نطاق واسع نسبيّاً تزاوجت العائلات الشيعيّة مع عائلات المملوك وجودي ورفاعي وقدادو وقهوجي وباقي الأسر السنّيّة، كما أقام شيعة كثيرون في "حيّ المصاروة" السنّيّ تقليديّاً. لكنّ نهاية الحقبة القوميّة وتقدّم الهويّات الطائفيّة، ولو مداوَرةً، بدآ يغيّران المشهد وعلاقاته. ففيما كان موسى الصدر ينبّه الشيعة إلى شيعيّتهم، كانت الترجمة اللبنانيّة للصعود الفلسطينيّ المسلّح تعزّز سنّيّة السنّة. وبدأ التباين يغدو افتراقاً حين انفكّ الشيعة عن المقاومة الفلسطينيّة ولم ينفكّ السنّة. بيد أنّ الافتراق هذا راحت توسّعه حلقات الزمن اللاحق من حرب المخيّمات وقتل الستّة الذين قيل إنّهم انتحروا، إلى صعود رفيق الحريري ومن ثمّ اغتياله.

ومؤخّراً لم تتلكّأ "أمل" في اعتقال زعران استفزّوا أفراداً سنّة بإطلاق النار قربهم أو بمحاولات أخرى لإزعاجهم. لكنّ اعتقالهم لا ينفي السؤال عن توازن القوى الذي سمح ويسمح باستضعافهم أصلاً.

سوريّو صور وأمور أخرى

ومثل باقي لبنان استقبلت صور سوريّين، بعضهم استأجر بيوتاً وبعضهم سكن عند أقاربه. ولئن بقي عددهم ضئيلاً، سيّما أنّ معظمهم يقيمون في البساتين، فالمؤكّد أنّ تلك البساتين "مضبوطة" تقطّعها ليلاً حواجز حزب الله.

لقد ظهر، في البداية، احتضان للسوريّين، ونشأت حملات تبرّع لهم، لكنّ "الناس ضاقت ذرعاً"، كما روى صوريّ، "مع انتشار ظاهرة التسوّل"، وبالطبع وجد الاستياء ما يؤجّجه في أنّ أكثريّة النازحين من السنّة وفي عدادهم بعض الأكراد.

ويقول الدكتور عمر خالد إنّهم في المستشفى الحكوميّ يعالجون اليوم سوريّين أكثر ممّا يعالجون لبنانيّين، وهؤلاء يأتون من دمشق واليرموك خصوصاً لكنْ أيضاً من سائر المناطق السوريّة. بيد أنّ الصوريّ ينبغي أن يكون مسيّساً كي يؤيّد الثورة السوريّة التي يتحاشى الصوريّون الحديث عنها. وهو أمر يصحّ في بيئة "أمل" ومحيطها، فيما يعلّله البعض بالشكّ العميق في كلّ من يسأل في الأمر.

لكنّ جنازتين طافتا شوارع المدينة، قبل ثلاثة أشهر ونيّف، لشابّين من قرى القضاء قُتلا في سوريّة. وما حدث بعد الجنازتين كان رهيباً، إذ هوجم تجمّع سوريّ يقيم في بيوت خشبيّة في منطقة الشواكير.

غير أنّ القتيلين لا يختصران القتلى الذين يسقطون من أبناء قرى صور ويُعزّى فيهم. وهنا يظهر تفاوت آخر بين المدينة وقرى قضائها، إذ تردّد المرويّات قصصاً عن أهالٍ صوريّين أبلغوا حزب الله أنّهم يريدون تسفير أبنائهم. وعلى العموم يبدو أنّ شبّان المدينة لا يشاركون في القتال السوريّ، فيما يعزف الحزب عن الضغط عليهم، إمّا لأنّه يريد إبقاء أبنائهم السلطة الخفيّة في صور نفسها، وإمّا لأنّ وقع مقتلهم ودفنهم سيكون أكبر من وقع مقتل أبناء القرى ودفنهم، وإمّا لانضباطه بحدود تسوية ما مع "أمل".

في الوسط المقلق

وإذ لا يحدث شيء على السطح، تبدو المدينة في الوسط من كلّ شيء. فإلى توزّعها بين التنظيمين، يبقى شاطئ صور أنظف الشواطئ اللبنانيّة، ومطاعمها، بما فيها التخشيبات التي تقارب الخمسين، تستقطب الزبائن طوال فصل الصيف، يقصدونها من مناطق لبنانيّة عدّة. وهذا ما يستمرّ متحدّياً الإهمال وقلّة العناية بنظافة المدينة.

لكنّ هذه الوسطيّة تتهدّدها سياسات وسلوكات. فمثلاً، قبل تفجير المطاعم الأربعة التي تقدّم الكحول، كان عناصر قوّات الأمم المتّحدة قوّة شرائيّة واستهلاكيّة مهمّة في

المدينة. فهم ينتشرون حول صور، فيقيم الإيطاليّون في قرية شمع، والأتراك في الشعيبيّة، مقدّمين مساعدات صحّيّة ومشاركين في أعمال البنى التحتيّة ودورات تعليم للقرى التي يتمركزون فيها. بيد أنّ تفجير المطاعم حدّ من نزولهم إلى الأسواق، فما عادوا يظهرون إلاّ في حارة المسيحيّين أحياناً.

وفي الأمن يبدو واضحاً أنّ الحركة والحزب لا يريدان للدولة أن تختفي لكنّهما لا يريدانها، في الوقت ذاته، قويّة. فعديد المخافر ضئيل جدّاً، إذ هناك ٤٠ عنصراً لمئة ألف نسمة يقيمون في صور. بيد أنّ التنظيمين يفضّلان أن يُحتكم إلى الدرك في فضّ النزاعات الصغرى التي يريدان تجنّب الخوض فيها.

وهذه الوسطيّة من كلّ شيء، أو الالتباس حيال كلّ شيء، يظهر أيضاً في الحياة الثقافيّة للمدينة. فقد ألغيت، في ٢٠١١، مهرجانات صور الدوليّة على رغم أن رئاستها آلت إلى رندة بري.

وثمّة أنشطة موسميّة وسينما عند المدخل الشماليّ للمدينة اسمها A.K ٢٠٠٠ ونادي سينما ومدرسة "مايا نعمة" لتعليم الباليه التي خرّجت ٢٠٠ فتاة بعضهنّ من بيوت متديّنة. وقد افتُتح، قبل أيّام، "مسرح إسطنبولي"، ويُفترض أن تُفتتح قريباً سينما الحمرا التي توقّفت في الثمانينات وأن ينطلق معها "مهرجان صور السياحيّ". وهذا كلّه معطوف على النشاط الثقافيّ والفكريّ لـ"منتدى صور الثقافيّ". مع هذا، ثمّة بذاءة اسمها "مركز باسل الأسد الثقافيّ" تهين تلك المدينة الساحرة وأهلها.

البترون بلاد البين بين

تقع البترون في مكان انتقاليّ وفي زمن انتقاليّ أيضاً. فهي أصغر من مدينة لكنّها أكبر من بلدة، كذلك تُحسب جزءاً من الشمال إلاّ أنّها أيضاً موصولة بجبل لبنان. فهي إذاً منطقة فاصلة، جعلتها أزمنة الحرب منطقة حدوديّة يتمدّد في جنوبها النفوذ العسكريّ للقوّات اللبنانيّة، ويستقرّ في شمالها نفوذ المسلّحين من المردة الزغرتاويّين ومن ورائهم الجيش والأمن السوريّان.

لكنّ شيئاً من الانتقاليّة يقيم في تكوينها السكّانيّ كذلك. فخلال الحرب، وعلى ما يروي الزميل حنّا صالح وآخرون، شهد قضاء البترون تهجيراً واسعاً مارسه الكتائبيّون لأهل اليسار في الوسط والجرد، أعقبه، بعد جريمة إهدن في ١٩٧٨، تهجير زغرتاويّ مضادّ طال الكتائبيّين والمقرّبين منهم في الوسط والبترون.

في المقابل، فاقم العهد السوريّ الانقطاعَ القائم أصلاً بين المدينة وريفها. ذاك أنّ الأخير ازداد انشدادُه إلى الجبل بينما تعاظم ارتباط الأولى بالشمال، ما جعلها مدينة تستقبل أرياف سواها كمستهلكين وكموظّفين، ثمّ مع الطفرة السياحيّة في التسعينات، كعاملين في القطاع الناشئ هذا.

وإذ يلاحظ المحامي فادي خطّار أنّ الكثيرين من الموظّفين الذين يُعيّنون في المدينة يختارونها مكاناً لإقامة دائمة، يظهر أنّ قطاعات عدّة تمتدّ من سوق اللحم إلى المشاريع التجاريّة ومحال المجوهرات يغلب عليها حضور غير البترونيّين وتملّكهم.

فقد دفعت "أسلمة" طرابلس وانقطاعها الطبيعيّ عن زغرتا مسيحيّين من عكّار والضنيّة، ومن زغرتا نفسها، إلى البحث عن مدينة بديلة كانتْها البترون. فهي تؤمّن المدارس لأبنائهم، وتوفّر نمطاً اجتماعيّاً مقبولاً للحياة، فضلاً عن فرص عمل واستثمار

لأغلبهم ممّن عملوا في المقاولات والعقارات.

هكذا يلوح قدر من الحيرة والقلق في نظرة المدينة إلى ذاتها: فهل هي منافسة جبيل على ذاك الساحل الممتدّ من طرابلس إلى جونية، ترنو إلى منازعتها سياحيّتَها وترفيهيّتها، أم هي بديل طرابلس لمحيطها، بمعنى وظيفيّ ونفعيّ، أم أنّها، في لحظات التسليم وانكماش الطموح، حاسدة بلدة شكّا الصغيرة، التي وفّرت لها معاملُ الترابة، منذ الخمسينات، فرص عمل وتعليم سبقت الفرص البترونيّة وفاقتها؟

وإذ نمت الأحزاب العقائديّة في القضاء دون المدينة، بقيت الأطراف السياسيّة المؤثّرة في المدينة، كما في القضاء، من خارجهما. فباستثناء تنّورين والجرد، حيث الزعامة الراسخة معقودة لبطرس حرب، تعاقب على رسم الصورة السياسيّة للبترون آل إدّه والكتائب وميشال عون، ودائماً آل فرنجيّة. ذاك أنّ العلاقة بهؤلاء هي ما يرفع المرشّح البترونيّ للزعامة إلى مصاف زعيم. وممّا يُذكر في تاريخ العلاقات بين وجوه "الخارج" والوجوه المحلّيّة ما حصل في ١٩٦٨: فآنذاك عجز "الحلف الثلاثيّ" لكميل شمعون وبيار الجميّل وريمون إدّه عن الاتّفاق في البترون التي لا يتمتّع قضاؤها الانتخابيّ بأكثر من مقعدين نيابيّين، فيما لكلّ من الأحزاب الثلاثة مرشّحه، يضاف إليهم مرشّح سليمان فرنجيّة الجدّ الذي لم يكن يومذاك بعيداً من رموز "الحلف". وقد لا يكون عديم الدلالة اليوم أنّ العين، في ذاك القضاء، لا تقع البتّة على صور نوّاب ومرشّحين، كما لو أنّ ثمّة إقراراً عميقاً بأنّ التأثير الفعليّ يقيم في مكان آخر خارج البترون.

حصص الجوار

واقع الحال أنّ الـ٦٥ ألف نسمة الذين هم أبناء القضاء، والذين يسكن أقلّ من نصفهم المدينة، قليلو الضجيج وإن كان توتّرهم الداخليّ مسموع الصوت لمن يُنصت. ففي تلك المساحة الصغيرة بين نهري المدفون جنوباً والجوز شمالاً، حيث تنتشر ٦٨ بلدة، لا تتجاوز نسبة غير الموارنة ربع السكّان، وهو ربع نصفه من الأرثوذكس وربعه من السنّة مع وجود ضئيل للشيعة والكاثوليك. لكنّ هؤلاء ينقسمون بدورهم دوائر سكنيّة وانتخابيّة ثلاثاً: مدينة البترون وما يجاورها من قرى وبلدات ساحليّة كشكّا وكفر

عبيدا والهري، ومنطقة الوسط وفيها قرى دوما وكفر حلدا والكفور وإجدبرا وكفيفان وبقسميا وجران وسواها، ومنطقة الجرد وعاصمتها بلدة تنّورين.

وربّما بسبب الاطمئنان إلى غلبة طائفيّة كاسحة، معزّزة بجوار مارونيّ ومسيحيّ، أمكن وجيهاً سنّيّاً هو حلمي عبد الرحيم أن يرأس البلديّة في الستينات والسبعينات، علماً بأنّ طائفته، ولها جامعها في البترون، لا تعدّ اليوم أكثر من مئة صوت انتخابيّ في المدينة.

ووفقاً للزميل توني فرنسيس، كانت طرابلس، حتّى ١٩٧٥، منفذ أهل الساحل والوسط. فالبترون لم تكن من قبل سوقاً تجاريّاً حقيقيّاً، بل كان البتارنة يتموّنون ويشترون حاجاتهم وملابسهم من "عاصمة الشمال". وهم أيضاً كانوا يعلّمون أبناءهم هناك، إذ الثانويّة الرسميّة الأولى في البترون لم تُفتتح حتّى أواخر الستينات. وبعدما كانوا يعملون لأجيال في القزّ، أسوة بالجبليّين، وجدوا في معامل غندور في طرابلس ما يستوعب بعض أيديهم العاملة.

لكنّ جبيل أيضاً كان لها حصّتها من قضاء البترون. فالمتعلّمون والموظّفون والميسورون نسبيّاً من أبناء تنّورين والجرد كانوا يقضون فصل الشتاء فيها، وهي كانت لعموم القضاء ملجأه الطبّيّ بسبب مستشفياتها وأطبّائها ممّا لم تعرف البترون شيئاً منه. وعلى الدوام ظلّ الشرط الشارط لتحوّل ذاك القضاء قضاءً متلاحماً، وهو ما شكّل مطلباً مزمناً لأهله، إنشاء أوتوستراد يصل الساحل بالجرد. وفقط مؤخّراً بوشر بناء هذا الأوتوستراد الذي أُنجز القسم الأكبر منه، ما حدّ نسبيّاً من القطيعة بين البترون وتنّورين.

أمّا زغرتا فصِلتُها بالبترون أكثر تعقيداً وأشدّ مواربة في آن واحد. فالباحث عصام خليفة يردّ أصولَ العلاقة تلك إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حيث قاتل بتارنة كثيرون مع يوسف كرم الذي أنشأ، في تحريضه على داوود باشا والتسويات الدوليّة، ما يشبه الحزب، مخترقاً المناطق المارونيّة وصولاً إلى كسروان.

بيد أنّ حقبة الوصاية السوريّة، التي يميل البتارنة إلى تجنّب الحديث عنها، وثّقت هذه العلاقة كما عدّلتها. فمنذ دخول السوريّين أواسط السبعينات، آثر هؤلاء ألاّ يحضروا في المدينة، متمركزين على المدفون وفي بعض القرى. بهذا عادت السلطة الوسيطة والمباشرة إلى المردة ومعظمُهم، بطبيعة الحال، زغرتاويّون. فحين ارتكب مسلّحو الكتائب جريمة

إهدن، اشتدّت السطوة الزغرتاويّة، ومن ورائها السطوة السوريّة. ومن خلال الأولى، تغلغلت الثانية، عبر خدمات ومنافع صغرى، في سائر القوى السياسيّة والعائلات التقليديّة، مستثمرةً تناقضاتها وموسّعةً إيّاها.

لكنْ من دون أن تحول الوساطة الزغرتاويّة دون ارتكابات الأمن السوريّ، فإنّها حدّت منها نسبيّاً، خصوصاً أن الكتائبيّين كانوا قد فرّوا إلى جبل لبنان. هكذا، وفي ظلّ اللون الواحد وصمت الأكثريّة، عمّت مدينةَ البترون درجةٌ معقولة من الاستقرار والأمن.

إلاّ أنّ الزغرتاويّين المقرّبين من المردة تقاضوا عن هذا مكافأة باهظة. فهم كانوا أوّل المستفيدين من استملاك الأملاك البحريّة والتصرّف التجاريّ العشوائيّ بالشاطئ على مسافة تمتدّ من تخوم البترون إلى شكّا والهري. هكذا انتشرت مشاريع سياحيّة ومطاعم بدأت تظهر في التسعينات. ووفقاً لبتارنة كثيرين، انتزع المقرّبون من سليمان فرنجيّة الجدّ، ثمّ الحفيد، حصصاً في شواطئ البلدتين الساحليّتين، ووزناً ملحوظاً في مرافئ المنطقة، حتّى إنّ سلعاتا مثلاً اعتُبرت "ميناء زغرتا".

وهذا في عمومه ما أمّن لزعامة آل فرنجيّة نفوذاً، لا سيّما في المدينة والساحل، عزّزته صلتها بالأجهزة الأمنيّة المحلّيّة، والخدمات التي كان يوفّرها مستشفى البترون الحكوميّ إبّان تولّي فرنجيّة وزارة الصحّة، فضلاً عن السخاء في تزويد الشبّان برخص السلاح.

ولم يكن بلا دلالة أنّ زعامة آل عقل انتقلت، هي الأخرى، منذ مطالع التسعينات، للاصطفاف وراء فرنجيّة، وإن على قلق وتعثّر، بعدما يئست من زعامة آل إدّه الجُبيليّين التي اصطفّت وراءها طويلاً.

ولا يتردّد أحد البتارنة في القول إنّ لآل فرنجيّة ومن يلتفّ حولهم من الزغرتاويّين "هيبة استعماريّة" على أبناء مدينته. فكما في أزمنة الانتدابات، يقيم ممثّل رسميّ لفرنجيّة في البترون، تماماً كما يقيم له ممثّل آخر في قضاء الكورة.

"إقطاع سياسيّ"

وهذا الخضوع لـ"الخارج" يضاعف الطابع الانتقاليّ الذي تتّسم به الزعامة المحلّيّة. فقد

انطوت صفحة التقليد السياسيّ ممثّلاً بعائلتيه، عقل وضوّ، ولم يعثر سايد عقل وجورج ضوّ على من يكمل شوطهما في العائلتين. فحين جرّبا حظوظهما متحالفين في معركة الانتخابات البلديّة، عام ١٩١٠، مُنيا بهزيمة لا يُحسدان عليها.

ومحلّ هاتين العائلتين تربّع الوزير جبران باسيل، صهر العماد ميشال عون الذي يؤيّده اليوم ثلثا أبناء المدينة. بيد أنّ الخدمات الكثيرة التي يقدّمها باسيل، وهو الوزير الدائم منذ سنوات، لا تحول دون سؤال يراود الكثيرين: هل يحافظ جبران على زعامته بعد عمّه؟

والحال أنّ ما يمنح السؤال هذا مشروعيّة مضافة صعوبة الفرز بين القاعدة العونيّة والقاعدة الموالية لآل فرنجيّة في البترون. هكذا يتبدّى أنّ التحالفات السياسيّة على النطاق الوطنيّ هي ما قضى بإعارة باسيل بعض شعبيّته التي يُعدّ سليمان فرنجيّة سيّدها الفعليّ ومُقرّرها الأخير. فماذا إذا قرّر زعيم زغرتا، لسبب أو آخر، أن يستردّ ما أعاره، خصوصاً أنّه لم يقبل إلاّ على مضض بتزعيم المهندس الصهر على البترون؟ ويقدّر البعض أنّ المشاعر التي يكتمها فرنجيّة هي ما أفصحت عنه تلفزيونيّاً، وببذاءة التعالي الطبقيّ الجلف، عمّته سونيا فرنجيّة الراسي حين أدرجت باسيل وعمّه في خانة "أزلامنا".

والمعروف، في سياسات الشمال، أنّ العونيّين ما إن بدأوا التمدّد نحو الكورة وزغرتا، حتّى قال لهم سليمان فرنجيّة ما سبق أن قاله جدّه سليمان للكتائب، من أنّ البترون حدودهم الأخيرة.

مصائر العائلات التقليديّة

لقد ابتدأت زعامة عائلتي عقل وضوّ في العهد العثمانيّ المتأخّر: آل عقل، العائلة الأكبر عدداً، مع إبراهيم الذي كان مدير مديريّة البترون ومقرّباً من البطريرك الحويّك، وآل ضوّ مع أسعد الذي أقبلت أسرته مبكراً على الجنديّة في الزمن العثمانيّ، وقد التفّوا لاحقاً حول آل فرنجيّة واستفادوا من خدمات وتقديمات أعطيت لهم في العهد الاستقلاليّ. فهم كانوا الدستوريّين في مقابل الكتلويّين من آل عقل الذين استقطبتهم زعامة إميل إدّه وأنجاله.

هذه القاعدة لم تتغيّر مع المهندس جبران باسيل، بل توسّع عملها وصار منهجيّاً. فإذا

صحّ أنّ المنافع التي تقدّمها السلطة هي ما يُنتج "الإقطاع السياسيّ" بديلاً من ملكيّة الأرض ونفوذها، صحّ اعتبار باسيل الثمرة الأبرز للسيرورة تلك. يكفي القول إنّ المهندس الذي اقترن في ١٩٩٩ بكريمة العماد عون، استثناءٌ في التاريخ السياسيّ اللبنانيّ الحديث من حيث تولّي الوزارة بلا انقطاع منذ ٢٠٠٨ على رغم الرسوب مرّتين، في ٢٠٠٥ و٢٠٠٩، في الانتخابات النيابيّة. وهذا فضلاً عن حقائب وزاريّة عدّة احتلّها العونيّون في حكومة نجيب ميقاتي خصوصاً وعن توجيهها بما يخدم مصالح باسيل.

وما من شكّ في أنّ التيّار العونيّ يملك من أسباب التأثير والشعبيّة ما هو صلب. فعون قويّ لأنّه، بحسب عصام خليفة، "طرح نفسه مع الدولة وضدّ الميليشيات"، وهو "محصّلة القوى التي كانت تناوئ الكتائب والقوّات"، فضلاً عن إفادته "من أخطاء خصومه في الحرب وبعدها". ثمّ إنّ التيّار العونيّ العابر للطبقات يرتكز إلى شريحة متعاطفة وجاهزة تتشكّل من متقاعدي الجيش ومؤسسات الدولة، وقد أضيف إليهم يساريّون ويساريّون سابقون يمتهنون كراهيّة الكتائب والقوّات. أمّا جبران الصهر فثمّة إجماع لا يشذّ عنه خصومه حول ديناميكيّته وتفوّقه في تقديم الخدمات، بالمعنى اللبنانيّ التقليديّ.

ويلاحظ الدكتور الياس غصن، القياديّ المحلّيّ في الحزب الشيوعيّ والمتعاطف مع باسيل، أنّ الأخير، بوصفه ابن مدينة البترون، يمثّل البترونيّين ممّن تقلّص نفوذ عائلتيهم السياسيّتين، عقل وضوّ، وبات باقي زعمائهم من الجرد أو من الوسط.

لكنّ التحفّظات، بدورها، لا تلبث أن تتلاحق. فكثيرون يتحدّثون عن أنّ باسيل "امتداد لحزب الله وإيران"، وهذا ما لا يسعف، بل يضعف صاحبه في البترون. ويضيف البعض أنّ صلات عمل وبيزنس تربط باسيل بـ"جهاد البناء" الإيرانيّة، فيما يذهب أحد نقّاده إلى أنّه "أدخل إلى البترون حزب الله عبر "شركة التاج"، فضلاً عن مشاريع تمديد المياه". كما يتحدّث آخر عن "تلزيمه سدّ بلعة لشركة إيرانيّة بـ ٤٠ مليون دولار". وثمّة من يجزم بأنّه ابتاع أراضي كثيرة سجّلها باسمه، وبنى قصراً في اللقلوق، وامتلك طائرة خاصّة، واشترى سبعة أو ثمانية بيوت قديمة رمّمها، وصار، من ثمّ، قوّة ماليّة وخدماتيّة جبّارة. ويتردّد أيضاً أنّه أنشأ "بترونيّات" لتكون واجهة لشراء مواسم الفلاّحين وتسويقها من دون أن يرافقها جهد إنمائيّ فعليّ. وتُسمع، في البترون، قصص متفرّقة عن استملاك جبران مدرسة بُنيت في عهد فؤاد شهاب لإعداد الكوادر الوسطى

والعليا للبحّارة، إلاّ أنّه أغلقها فترة ليعيد تسليمها لرجل دين من مؤيّديه وتحويلها مدرسة زراعيّة قبل أن يعيد بناء مدرسة جديدة في مكان آخر.

من أين أتى باسيل؟

والذين يأخذون على باسيل المآخذ الكبرى، ويعطفون عليها العجرفة والتعالي، يعودون إلى تاريخ عائليّ لا يرونه مُفضياً إلى قدرات كهذه. فكيف وأنّ القوى الاجتماعيّة في مدينة البترون، حيث يطغى صيّادو السمك وأصحاب الدكاكين، لا تتّسع لتمايزات اجتماعيّة ضخمة أصلاً؟

لقد صدر جبران باسيل عن عائلة صغيرة العدد، وهو ربّما كان عونيّاً قبل مصاهرته عون، إلاّ أنّه لم يكن ذاك المناضل أو الناشط العونيّ المميّز. فعند نقّاده، لم يكن جبران الشابّ أكثر من طامح إلى الترقّي والبروز. جدّه كان من صغار الوجهاء في البترون، هاجر إلى نيوزيلندا وعاد بثروة متواضعة أتاحت لوالده جورج التحوّل إلى ملاّك زراعيّ صغير وصاحب دكّان. أمّا عمّه كسرى فتمكّن، كوجيه محلّيّ وثريّ متوسّط يتأرجح بين آل فرنجيّة وآل عقل، من أن يترأّس المجلس البلديّ ذات مرّة.

ويبدو باسيل، وقد بات زعيماً، أكثر سعياً إلى محاكاة السياسيّين التقليديّين ممّا إلى تقديم نفسه نموذجاً حزبيّاً بديلاً. فبين حزبيّي التيّار الوطنيّ الحرّ يتّهمه كثيرون بالتقريب والتبعيد اللذين يخالفان إرادة القاعدة الحزبيّة. وهو، داخل هذه القاعدة، يستبعد، ضارباً بسيف عمّه، مَن سبقوه في الانتماء أو من فاقوه في النضاليّة، مُزكّياً صغار السنّ الذين واكبوا خطاه واستظلّوا بصعوده. وإذا صحّ أنّه مفرط في تقديم الخدمات، فهذا لا يلغي أولويّة المحسوبيّة، وصولاً إلى ما يُعتبر في الحسابات الريفيّة الضيّقة شطارةً وذكاءً. فهو يوسّع بيكار خدماته من دون أن ينبو عن الهدف الانتخابيّ المباشر، كأنْ يوفّر التراخيص لآبار ارتوازيّة في تنّورين، يفيد منها خصوم بطرس حرب أو من يقفون في موقع رجراج بحيث تستميلهم هذه الخدمة أو تلك. وبطبيعة الحال، وكما في باقي الخدمات التي من الطينة هذه، فإنّ الدولة هي التي تتكبّد الأكلاف وجبران هو من يقطف الثمرة.

هواء ملوّث

والحال أنّ في البترون كثيراً من الهواء الملوّث. فبين إشارات عدّة نقرأ في نشرة "صوت البترون" التي كان يصدرها حتى وقت قريب "التجمّع البترونيّ المستقلّ" (العدد ٤، ٢٠٠٩/٤/١): "ثمّة مجزرة ارتُكِبت وتُرتكب بدم بارد في الحيّ الأثريّ في البترون المعروف بحيّ القلعة أو جوار البحر: فقد سبق أن استملكت مديريّة الآثار بعض البيوت القديمة ووضعت اليد عليها مقابل أسعار بخسة، وأخلتها من سكّانها الذين عاشوا فيها على امتداد مئات السنين، وتركتها نهباً للحيوانات الشاردة أو للناس الخارجة عن القانون والأخلاق. وبعد مرور عشر سنوات على قيام الاستملاك وتأهّب معظم الأهالي لاستعادة أملاكهم، جرى تركيب مسرحيّة تمثّلت بتجديد الاستملاك وتسليم المنطقة إلى شركة سياحيّة مجهولة المصدر والتاريخ والهويّة. إنّ هذه المنطقة العريقة بكنائسها وعقودها وحجرها الرمليّ، ومن ضمنها نفق معقود تحت الأرض يصل إلى مئات الأمتار إلى مقربة من فرن مرشاق، تتعرّض اليوم لمحنة تهدّد تاريخ البترون وتراثها وأمنيات أهلها في الحفاظ على معالمها التاريخيّة".

وكثيرون هم مَن يشيرون بأيديهم القصيرة كي يدلّوا إلى مخالفات البناء على الشواطئ البحريّة ما بين البترون وكفر عبيدا. فهناك تُشاد عشرات الأبنية والمنتجعات، بينما يغدو وصول البتارنة إلى البحر امتيازاً مكلفاً.

ويتردّد، في هذه الغضون، اسم مارسلينو الحرك، رئيس البلديّة والمهاجر السابق إلى الولايات المتّحدة والمالك الحاليّ لمنتجع "سان ستيفانو" السياحيّ. فالحرك الذي كان محسوباً على سايد عقل ومقرّباً من أجواء ١٤ آذار، ثمّ انتقل إلى التحالف مع باسيل، ظلّ وجهاً مُتنازَعاً على صورته وطموحه السياسيّ. فهو، عند المهندس طانيوس كيرللوس، "شغّيل وحريص على المدينة وعلى آثارها ونهضتها". إلاّ أنّ آخرين يصدرون بحقّه أحكاماً جازمة، خصوصاً حين يقارنونه بما تفعله بلديّة جبيل لمدينتها. ذاك أنّ "أسواقنا أجمل من أسواق جبيل لكنّ لم يُهتمّ بها كما اهتُمّ بأسواق جبيل". ويبقى أكبر الاتّهامات التي تُوجّه إلى الحرك أنّه لم يواكب الفورة السياحيّة بإقامة بنية تحتيّة مناسبة، كالأرصفة وتمديدات الصرف الصحيّ، ما أفضى إلى اختناق تلك الفورة وعدّها طفرة عارضة.

وبالفعل ثمّة شعور محزن بأنّ شيئاً ما انتهى في البترون، تلمحه في ضعف حركة المرفأ الذي يكاد يخلو من كلّ "رِجل" غريبة أو قريبة، فيما تتكفئ المدينة على مصادر دخل متواضعة يوفّرها البحر والدكاكين فضلاً عن عائدات الاغتراب. فالبتارنة الذين قلّ إقبالهم على الجيش والإدارة تقليديّاً، فيما اهتمّوا بالتعليم أقلّ ممّا اهتمّ سكّان القضاء، راهنوا على السياحة حلاًّ سحريّاً يجرّبونه من خارجه من غير أن ينخرطوا فيه. فبحسب كيرللوس وآخرين، كان "الأغراب مَن يملأون النوادي الليليّة" دون البتارنة. لكنّ الحصانة هنا لا يمكن إلاّ أن تبقى نسبيّة: فالقيم المحافظة والمغلقة لا بدّ أن تتماسّ مع قيم أخرى حملها وافدون كثيرون إلى المدينة من خارجها. كذلك فإنّ شبّاناً ودّعوا مدارسهم وعملوا نادلين قبل أن تغلق المطاعم وعلب الليل وتتركهم بلا مهن. والأمر لا يخلو طبعاً من عادات وسلع تأتي مع كلّ فورة سياحيّة وقد لا تذهب بذهابها.

فحين نسأل المحامي خطّار عن أحوال المدينة والمنطقة في عمومها، يحسم بأنّها "ماتت". وهو يختار من الحياة الثقافيّة براهينه على ذاك الموت، فيقول إنّهم أنشأوا "المركز الثقافيّ البلديّ" وفي عداده مكتبة ضمّت ٢٠ ألف كتاب، ثم أنشأوا "المنتدى الثقافيّ" و"رابطة البترون الإنمائيّة الثقافيّة"، لكنّ هذه كلّها ذوت وانتهت، وهم بدورهم كفّوا عن إنشاء المراكز والنوادي.

الكنيسة أوّلاً

في الطريق المؤدّية إلى الجرد، يندر الأفراد الذين تقع العين عليهم. وفي بعض القرى يبدو الأمر كما لو أنّ الناس ممنوعون من التجوال. ذاك أنّ المنطقة عرفت هجرة ضخمة وتفريغاً سكانيّاً يعودان بأصولهما إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى. وفقط مع عهد فؤاد شهاب، في الستينات، توافرت الكهرباء والماء فيها. فأهل وسط البترون نموذجيّون في دفعهم ضريبة التهميش الذي يعانيه الاقتصاد الريفيّ اللبنانيّ، وحين يحدّثك بعضهم عن أزمة مياه مُلحّة وراهنة لا يفوت المتحدّثَ أن يذكّر بوقوع تلك المنطقة بين نهرين. وإذ يشير عصام خليفة، من بين أمثلة كثيرة أخرى، إلى غياب المشاريع الصغرى لتصنيع فاكهة المنطقة، يرسم حنّا صالح لوحة كئيبة لبلدتي الكفور ودوما اللتين عرفتا هجرة

هواء ملوّث

والحال أنّ في البترون كثيراً من الهواء الملوّث. فبين إشارات عدّة نقرأ في نشرة "صوت البترون" التي كان يصدرها حتى وقت قريب "التجمّع البترونيّ المستقلّ" (العدد ٤، ٢٠٠٩/٤/١): "ثمّة مجزرة ارتُكبت وتُرتكب بدم بارد في الحيّ الأثريّ في البترون المعروف بحيّ القلعة أو جوار البحر: فقد سبق أن استملكت مديريّة الآثار بعض البيوت القديمة ووضعت اليد عليها مقابل أسعار بخسة، وأخلتها من سكّانها الذين عاشوا فيها على امتداد مئات السنين، وتركتها نهباً للحيوانات الشاردة أو للناس الخارجة عن القانون والأخلاق. وبعد مرور عشر سنوات على قيام الاستملاك وتأهّب معظم الأهالي لاستعادة أملاكهم، جرى تركيب مسرحيّة تمثّلت بتجديد الاستملاك وتسليم المنطقة إلى شركة سياحيّة مجهولة المصدر والتاريخ والهويّة. إنّ هذه المنطقة العريقة بكنائسها وعقودها وحجرها الرمليّ، ومن ضمنها نفق معقود تحت الأرض يصل إلى مئات الأمتار إلى مقربة من فرن مرشاق، تتعرّض اليوم لمحنة تهدّد تاريخ البترون وتراثها وأمنيات أهلها في الحفاظ على معالمها التاريخيّة".

وكثيرون هم مَن يشيرون بأيديهم القصيرة كي يدلّوا إلى مخالفات البناء على الشواطئ البحريّة ما بين البترون وكفر عبيدا. فهناك تُشاد عشرات الأبنية والمنتجعات، بينما يغدو وصول البتارنة إلى البحر امتيازاً مكلفاً.

ويتردّد، في هذه الغضون، اسم مارسلينو الحرك، رئيس البلديّة والمهاجر السابق إلى الولايات المتّحدة والمالك الحاليّ لمنتجع "سان ستيفانو" السياحيّ. فالحرك الذي كان محسوباً على سايد عقل ومقرّباً من أجواء ١٤ آذار، ثمّ انتقل إلى التحالف مع باسيل، ظلّ وجهاً مُتنازَعاً على صورته وطموحه السياسيّ. فهو، عند المهندس طانيوس كيرللوس، "شغّيل وحريص على المدينة وعلى آثارها ونهضتها". إلاّ أنّ آخرين يصدرون بحقّه أحكاماً جازمة، خصوصاً حين يقارنونه بما تفعله بلديّة جبيل لمدينتها. ذاك أنّ "أسواقنا أجمل من أسواق جبيل لكنْ لم يُهتمّ بها كما اهتُمّ بأسواق جبيل". ويبقى أكبر الاتّهامات التي تُوجّه إلى الحرك أنّه لم يواكب الفورة السياحيّة بإقامة بنية تحتيّة مناسبة، كالأرصفة وتمديدات الصرف الصحيّ، ما أفضى إلى اختناق تلك الفورة وعدّها طفرة عارضة.

وبالفعل ثمّة شعور محزن بأنّ شيئاً ما انتهى في البترون، تلمحه في ضعف حركة المرفأ الذي يكاد يخلو من كلّ "رِجل" غريبة أو قريبة، فيما تنكفئ المدينة على مصادر دخل متواضعة يوفّرها البحر والدكاكين فضلاً عن عائدات الاغتراب. فالبتارنة الذين قلّ إقبالهم على الجيش والإدارة تقليديّاً، فيما اهتمّوا بالتعليم أقلّ ممّا اهتمّ سكّان القضاء، راهنوا على السياحة حلاًّ سحريّاً يجرّبونه من خارجه من غير أن ينخرطوا فيه. فبحسب كيرللوس وآخرين، كان "الأغراب مَن يملأون النوادي الليليّة" دون البتارنة. لكنّ الحصانة هنا لا يمكن إلاّ أن تبقى نسبيّة: فالقيم المحافظة والمغلقة لا بدّ أن تتماسّ مع قيم أخرى حملها وافدون كثيرون إلى المدينة من خارجها. كذلك فإنّ شبّاناً ودّعوا مدارسهم وعملوا نادلين قبل أن تغلق المطاعم وعلب الليل وتتركهم بلا مهن. والأمر لا يخلو طبعاً من عادات وسلع تأتي مع كلّ فورة سياحيّة وقد لا تذهب بذهابها.

فحين نسأل المحامي خطّار عن أحوال المدينة والمنطقة في عمومها، يحسم بأنّها "ماتت". وهو يختار من الحياة الثقافيّة براهينه على ذاك الموت، فيقول إنّهم أنشأوا "المركز الثقافيّ البلديّ" وفي عداده مكتبة ضمّت ٢٠ ألف كتاب، ثم أنشأوا "المنتدى الثقافيّ" و"رابطة البترون الإنمائيّة الثقافيّة"، لكنّ هذه كلّها ذوت وانتهت، وهم بدورهم كفّوا عن إنشاء المراكز والنوادي.

الكنيسة أوّلاً

في الطريق المؤدّية إلى الجرد، يندر الأفراد الذين تقع العين عليهم. وفي بعض القرى يبدو الأمر كما لو أنّ الناس ممنوعون من التجوال. ذاك أنّ المنطقة عرفت هجرة ضخمة وتفريغاً سكانيّاً يعودان بأصولهما إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى. وفقط مع عهد فؤاد شهاب، في الستينات، توافرت الكهرباء والماء فيها. فأهل وسط البترون نموذجيّون في دفعهم ضريبة التهميش الذي يعانيه الاقتصاد الريفيّ اللبنانيّ، وحين يحدّثك بعضهم عن أزمة مياه مُلحّة وراهنة لا يفوت المتحدّثَ أن يذكّر بوقوع تلك المنطقة بين نهرين. وإذ يشير عصام خليفة، من بين أمثلة كثيرة أخرى، إلى غياب المشاريع الصغرى لتصنيع فاكهة المنطقة، يرسم حنّا صالح لوحة كئيبة لبلدتي الكفور ودوما اللتين عرفتا هجرة

قديمة أنتجت تعمير بيوت لا يسكنها أحد اليوم. وبالطبع كان للحرب سهمها، إذ إنّ الكفور، مثلاً، وتبعاً للوائح الشطب في السبعينات، بلغ مقترعوها ٣٥٠٠ مقترع، كذلك ضجّت بحياة سياسيّة ونشاط حزبيّ محموم.

وفيما يمضي شبّان المنطقة في هجرتهم إلى الخليج، يُلاحَظ أنّ المدارس شرعت، منذ التسعينات، تغلق أبوابها لعدم وجود التلامذة.

وفي موازاة تعدّد القرى والبلدات وتبعثرها، تلوح الزعامة السياسيّة مفتّتة تشي كثرة الأعيان المحليّين بتفتّتها. وهؤلاء في أغلبهم متفرّعون عن عائلات وضعت قدماً لها في الوجاهة منذ عهد الانتداب، كالحويّك والبيطار وأرسانيوس وأبي صعب وبشير وسواهم.

بيد أنّ الكنيسة المارونيّة ربّما كانت، في الوسط كما في سائر القضاء، الطرف الجامع نسبيّاً والذي يصعب التخفيف من أثره في ماضي المنطقة وحاضرها. فهي مالك الأرض وصانع الأفكار ومصدر التعليم: فليس بلا دلالة، مثلاً، الموقع الفاعل الذي احتلّه البطريرك الحويّك، من حلتا، في النصف الأوّل من القرن الماضي، وهو من ارتبط اسمه بنشأة "لبنان الكبير"، وليس صدفة أنّ أخاه سعد الله ظلّ طويلاً الوجه السياسيّ البترونيّ الأبرز، أو أنّ آل البيطار، من كفيفان، هم الذين اضطلعوا بتدبير الأديرة في المنطقة ومواجهة ملتزمي آل حمادة الشيعة في العهد العثمانيّ.

وفي هذا المناخ برز خير الله خير الله، من جران، الوثيق الصلة بالبطريرك الحويّك، والذي عاش في فرنسا وكان أحد الشارحين الأوائل لـ"الفكرة اللبنانيّة". وكما في الوسط، ظهر في كفر عبيدا الساحليّة، على ما يروي خليفة، الأبوان فغالي اللذان عاشا في بوردو بفرنسا وانشغلا بـ"القضيّة اللبنانيّة". وقبل هؤلاء عرفت منطقة البترون المطران يوسف فريفر، من كفر حيّ، الذي أقام شبكة علاقات قاعديّة وكان لديه ما يشبه التنظيم الحزبيّ البدائيّ الذي استقطب "فرسان" المنطقة واستعرض ألفاً منهم في بيروت في ١٩١٠. وقد تعاون فريفر مع البطريرك بولس مسعد قبل أن يمثّل، إلى جانب البطريرك الحويّك، قوّة الكنيسة الاجتماعيّة والميليشيويّة.

ولأنّ الأديرة امتلكت من القوّة والنفوذ ما امتلكته، ساد في مواجهتها تقليد كنسيّ مقلوب لا يزال حاضراً، مفاده الوعي المساواتيّ الذي يذكّر بالنصّ الجبرانيّ في

مواجهة "الإقطاع". فهنا، لدى المثقّفين، تكثر إنشائيّات الاحتجاج على الكنائس وفصاحة عصر النهضة والإحياء اللغويّ ممّا يعبّر عنه أساتذة ذوو دعوات صاخبة إلى العلمانيّة.

والحال أنّ الكنيسة تملك أوقافاً كثيرة لا تُستغلّ، في عدادها بعض أفضل الأراضي الزراعيّة كدير حوب في تنّورين، كما تملك دير كفيفان، قرية القدّيس شربل، حيث أُهملت ملايين الأمتار المربّعة كما رُفضت إقامة حديقة عامّة على جزء منها.

وبفعل سطوتها وجهازها المتشعّب الأذرع، تبقى كلمة الكنيسة، الموزّعة الهوى بين ميشال عون والقوّات اللبنانيّة، مسموعة جدّاً.

كتائب وقوّات

وربّما صحّ القول إنّ الوسط عرف تقليدين سياسيّين، أوّلهما امتداد مدنيّ للكنيسة مثّله حزب الكتائب، ثمّ ورثت بعضه القوّات اللبنانيّة، والثاني اعتراض على الكنيسة بذهنيّة كنسيّة مقلوبة، وهو ما مثّله الشيوعيّون. وليس من دون دلالة تشابه المنشأ الاجتماعيّ بين الطرفين اللذين خاطبا، بالقطعيّة والخلاصيّة نفسيهما، الفئات الأكثر تهميشاً بين أهل الوسط.

فمنذ الثلاثينات، عقد تأسيس الحزب، ظهر للكتائب وجودٌ رمز إليه جاك شديد، من إدّه، الذي رُشّح للانتخابات في ١٩٦٠ وحصد نسبة معتبرة من الأصوات. ومع جورج سعادة، ابن شبطين، الذي تولّى مديريّة التعليم الخاصّ، قُدّمت خدمات في عدادها توظيف مدرّسين تحوّلوا أصواتاً صادحة للكتائب في وسط البترون. وبوصول سعادة إلى البرلمان في ١٩٦٨ و١٩٧٢، تجذّر وجود الكتائب، لا في الوسط فحسب، بل أيضاً في بلدات ساحليّة ككفر عبيدا. وعموماً، ووفقاً لفرنسيس وكيرللوس، حضر حزب بيار الجميّل بقوّة في السبعينات، سيّما أنّ الحرب كانت قد طحنت القوى التي تناهضه بعدما وسّعت تضامن المتضامنين معه ردّاً على محاولة عزله. ففي ١٩٧٧، وعشيّة جريمة إهدن التي أوقفت نموّه، أقسم ٣٣٠٠ شابّ من البترون يمين الانتساب.

في هذه البيئة نفسها ولدت القوّات اللبنانيّة وتعاظم حضورها، حتّى غدا مرشّحها، لا مرشّح الكتائب، رفيق بطرس حرب على لائحة ١٤ آذار الانتخابيّة. وكان من اختارته القوّات رجل الأعمال والكتائبيّ السابق أنطوان زهرا، ابن العائلة الصغيرة العدد في كفيفان، والذي وصل إلى البرلمان في ٢٠٠٥ و٢٠٠٩.

وزهرا، هو الآخر، تترجّح صورته بين تأويلين. فنقّاده يقولون إنّه جنى ثروة صغيرة من عمله وسيطاً بين أبناء عمّه الأغنياء والرئيس السابق إميل لحّود، وإنّه كان المسؤول عن حاجز البربارة الذي أقامته القوّات إبّان الحرب فاصلاً بين منطقة نفوذها ومنطقة النفوذ الزغرتاويّ والسوريّ. لكنّ آخرين يؤكّدون أنّه جنى ما جناه في الخليج، وأنّه لم يكن مرّة معنيّاً بحاجز البربارة، بل تولّى مسؤوليّة "قسم الاستطلاع" في ثكنة القطّارة للقوّات.

بيد أنّ المتحدّثين عن زهرا يُجمعون على أنّه نقيض جبران باسيل من حيث الديناميّة والخدمات. ويرى البعض أنّ القاعدة القوّاتيّة نفسها تجد من الصعب أن تتواصل معه، مفضّلة رفع مطالبها إلى نوّاب القوّات عن أقضية أخرى. وثمّة من يشيرون إلى أنّ نائب البترون القوّاتيّ أحال تدبير الرعيّة على شقيقه بيار زهرا الذي لا ينتسب إلى القوّات، مثيراً عند بعض رفاقه القوّاتيّين الامتعاض نفسه الذي يثيره باسيل عند بعض رفاقه العونيّين.

على أيّة حال، فجمهور الكتائب والقوّات في الوسط يفوق جمهور عون، من دون أن يكون الفارق كبيراً، علماً بأنّ بيئة القوّات، الفقيرة عموماً، تبدو أشدّ انسجاماً من البيئة العونيّة التي تمتدّ إلى شرائح أعلى قليلاً في الهرم الاجتماعيّ. لكنّ أسئلة الحرب ومساءلاتها لا تزال تطارد القوّاتيّين، خصوصاً أنّه بين ١٩٧٥ و١٩٩٠ قُتل أربعون شابّاً من قضاء البترون، سبعة منهم فقط على الجبهات، فيما الآخرون قضوا في المواجهات بين تنظيماتهم. أمّا الذين خرجوا من تنظيمهم فيملكون، بدورهم، أسئلة يحرّكها الشكّ في مدى ديموقراطيّة سمير جعجع وعقيلته ستريدا في قيادة التنظيم. فهم، بحسب أحدهم، يُقرّون بأنّ سياساتهم الوطنيّة العامّة تغيّرت بعد الحرب، إلاّ أنّهم يرون أن بنيتهم التنظيميّة والطريقة التي يُصنع القرار بموجبها لا تزال حربيّة، تقوم على أوامريّة الزمن العسكريّ.

شيوعيّون...

أمّا التقليد الشيوعيّ في البترون فارتبط، بدوره، باسمين بارزين: الأب طانيوس منعم، من إجدبرا، الذي عُرف بمناكفة بكركي وأثّر في طلاّب ومتعلّمين تحلّقوا حوله، ورشيد معتوق الطبيب الشيوعي من كفر حلدا والمليونير وصاحب المستشفى في دوما الذي ذاعت أخبار تكاد تكون فولكلوريّة عن تمجيده ستالين والاتّحاد السوفياتيّ.

وإذ انضوى في الشيوعيّة أفراد قليلون متعلّمون من المدينة، اختلف الأمر في الوسط الأفقر الذي عاش تقليديّاً على الزراعة، فيما راهن أهله على التعليم، ثمّ الحزبيّة، أداتين للترقّي الاجتماعيّ. ويُلاحظ أنّه فيما تقلّ كثيراً نسبة موظّفي الدرجة الأولى من أبناء القضاء، فإنّها ترتفع كثيراً في كوادر الصفّ الثاني للأحزاب السياسيّة، لا سيّما منها الشيوعيّ والكتائب.

لقد نما الشيوعيّون في قرى كإجدبرا والكفور وكفر حلدا، لكنّهم أيضاً استطاعوا أن يرثوا أو يجاوروا تقاليد ومواقع أخرى. ففضلاً عن استمراريّة أقاموها بينهم وبين تراث مناهضة الأكليركيّة، لم يكن بعيداً عنهم الحزب التقدّمي الاشتراكيّ الذي أنشأ حنّا يعقوب، من جران، موقعاً له في وسط البترون، وذلك إبّان التحالف الجنبلاطيّ الشيوعيّ المديد. كذلك تبنّوا واستدخلوا تجربة الوزير إميل البيطار، من كفيفان، الذي استقال في عهد سليمان فرنجيّة في ١٩٧١ معترضاً على سطوة مافيات الدواء، بعدما حاول جعل استيراده مباشراً عبر وزارة الصحّة، وخفض أرباح المستشفيات.

وإذ تولّى التعليم في بلدان المعسكر السوفياتيّ توسيع قاعدتهم، كانت للشيوعيّين محاولات انتخابيّة لم تكتمل، كترشيحهم أنطوان حرب وسجعان غصن، ثمّ دعمهم وسيم حرب في انتخابات ١٩٧٢.

بيد أنّهم، وبفعل علاقات عائليّة وريفيّة، وكره ثابت وراسخ للكتائب، لم يكونوا غرباء عن عائلات التقليد السياسيّ ورموزها. وهذا ما كان ينتج حالات لا تخلو من غرابة. فالشيوعيّ إلياس غصن يروي أنّه حين لم يكن هناك قرار حزبيّ صارم، كان شيوعيّو الجرد يقفون مع بطرس حرب، وشيوعيو الساحل مع سايد عقل، لاعتبارهم أن هذين ضمانتان ضدّ الكتائب. وبدوره عُرف رشيد معتوق بصداقة مع زعيم تنّورين "الشمعونيّ" جان حرب مصدرها معاداة "إقطاع" آل طربيه في البلدة ذاتها، فيما كان

الأديب اليساريّ ميشال سليمان يكتب خطابات "الكتلويّ" سايد عقل.

وعلى العموم مضى الحزب الشيوعيّ ينمو حتى حرب السنتين، ليتوقّف النموّ بعد ذاك ويباشر التشقّق في التسعينات. فبعضه انكفأ، وبعضه انحاز إلى اليسار الديموقراطيّ وبعضه تحوّل إلى العونيّة بحثاً عن وسيلة أنشط في معاداة القوّات. ولا يزال الشيوعيّون المقيمون على شيوعيّتهم يعقدون ندوات سياسيّة وثقافيّة يتحدّث فيها مُسنّون لمسنّين.

أمّا القوميّون السوريّون فلم يشكّلوا حالة بارزة في البترون. لقد وُجدوا في قرى القضاء الأرثوذكسيّة، خصوصاً حامات. ويبدو أنّ السلطة العسكريّة التي منحهم إيّاها السوريّون في الكورة إنّما مورست بطريقة باعدت بينهم وبين البتارنة "الموارنة" الذين أحسّوا أنّها تستهدفهم. هكذا، وبحسب توني فرنسيس، بات نهر الجوز، إبّان سنوات الحرب، أقرب إلى حدود بين قضاءين.

تنّورين وعائلاتها

وبدورها فقد أقبلت تنّورين، عاصمة الجرد، على الأحزاب، فبرز فيها كتائبيّ كالمحامي صلاح مطر، وسوريّ قوميّ كالشاعر غسّان مطر، وتقدّميّ اشتراكيّ كالمحامي إميل طربيه، وقبلهم كان أسعد داغر قد حفر اسمه في قاموس روّاد العروبة منشئاً في مصر، منذ ١٩٢٧، نشرة "مصر الجديدة". مع هذا، ظلّ إقبال التنارنة أقلّ من إقبال أهل الوسط: فالعائلات، لا سيّما أكبرها آل حرب، حافظت على درجة من التماسك واللحمة، بينما وفّر آل يونس، بحسب الباحث مسعود يونس، بيئة حديثة عمادها البيزنس والعلم قلّلت الإلحاح على طلب الأحزاب وحداثيّتها.

ويتوقّف توني فرنسيس عند خصوصيّة منعت تنّورين من أن تصبح زغرتا ثانية أو بشرّي ثانية. ذاك أنّ عنصرين التقيا على تحويل عاصمة الجرد مركزاً للاعتدال المسيحيّ، أوّلهما سلوك بطرس حرب الهادئ، والثاني أنّ منافسيه في العائلات الأخرى واكبوه في الاعتدال ولم يحاولوا المزايدة عليه.

وهذا ما اختُبر مبكراً مع بدايات حرب السنتين، حين قُتل في طرابلس تنوريّ يُدعى شفيق مراد، فردّ التنارنة بخطف باصّ كامل من الطرابلسيّين إلى بلدتهم. هكذا

تدخّل حرب وباقي أعيان العائلات فحلّوا المشكلة سلماً وأطلقوا المخطوفين. لكنْ فقط بعد توسّع نفوذ الأحزاب المسيحيّة، مع استطالة الحرب، أنشأ حرب "لواء تنّورين" لاستيعاب شبّانها والحؤول بينهم وبين تلك الأحزاب.

لقد وُلدت زعامة بطرس حرب مع انتخابات ١٩٧٢، بعد خلاف في عائلته بين أكثريّة أيّدته وريثاً لعمّه الراحل جان، وأقليّة دعمت ابن عمّه وسيم. مذّاك وهو يرسمل على واقع التشرذم الذي يعانيه خصومه، فيما عائلته العائلة الأكبر عدداً، في تنّورين كما في قرى محيطة بها أو متفرّعة عنها.

واليوم يُعدّ "شيخ" تنّورين القوّة الأولى في الجرد التي تقابل القوّة الأولى كما يعبّر عنها جبران باسيل في الساحل، من دون أن يلغي ذلك منافسة خصوم محليّين كان آخرهم رجل الأعمال نزار يونس الذي خاض انتخابات ٢٠٠٩ حليفاً لباسيل.

ومن الدارج في تحقيب الزعامة التنّوريّة اعتبار أنّها بدأت في العهد العثمانيّ مع آل طربيه بوصفهم جباة الضرائب، لتنتقل في عهد الانتداب الفرنسيّ إلى آل يونس وزعيمهم مسعود، كونهم الأقدر على التفاعل مع الإدارة والتعليم الحديثين، وتستقرّ، في العهد الاستقلاليّ، عند جان حرب وعائلته الذين استفادوا من قوّتهم العدديّة في ظلّ الدمقرطة النسبيّة للعهد المذكور.

وقد استطاع بطرس حرب أن يحقّق حضوراً ملحوظاً في السياسات الوطنيّة العامّة، وأن يحافظ بصورة إجماليّة على اعتداله فيها، فضلاً عن إثباته قدرة تقليديّته على الاستمرار. لكنْ يبقى أنّ العقليّة الخدماتيّة المألوفة ومواقفه الشديدة المحافظة، لا سيّما في "الدفاع" عن "الطائفة" و"كرامتها"، لا تميّزه كثيراً عن أقرانه ومنافسيه.

سنّة وشيعة وسوريّون

وبين أهل قضاء البترون سنّة وشيعة يشكّلون أقليّتين متفاوتتين تغلّبان كفّة على كفّة، لا سيّما في ظلّ تعادل المدينة (لمصلحة باسيل) والجرد (لمصلحة حرب).

فالسنّة في قرى وبلدات كراسنحاش والهري وشكّا ممّن يتراوح عددهم بين ثلاثة آلاف صوت وأربعة، يؤيّدون بأكثريّة الثلثين تيّار المستقبل، فيما الشيعة الذين يعدّون ما

بين ٦٥٠ و٧٥٠ صوتاً، في قرى كرشكيدا وداعل، يصبّون كتلة واحدة مع حزب الله. ولأنّ الأمر على هذه الحال، يتبدّى في التصويت الشيعيّ بعض ما يخالف تقاليد الخلاف والانشقاق التي درج عليها البتارنة، كما درج عليها الشيعة أنفسهم قبل حزب الله.

فحين يصل الكلام إلى السوريّين، شعباً ونظاماً وثورةً، يلوح الانشقاق في الرواية واضحاً صريحاً. ذاك أنّ أحد المتعاطفين مع عون وباسيل يرى أنّ "السوريّين كثيرون في البترون، يعملون في الأرض أو في البناء أو أنهم لاجئون. أعدادهم مخيفة وهناك امتعاض واسع منهم. ينبغي تنظيمهم وحصرهم أكثر"، بينما يقول آخر لا يتعاطف مع العونيّين إنّ "هناك شيئاً من الحذر حيال السوريّين لكنْ لا يوجد عداء لهم".

ويرى بترونيّ أنّ السوريّين في مدينة البترون كانوا، قبل أكثر من سنة، أربعة آلاف، يتجمّعون في الجامع، كلّ يوم جمعة، كي يتلقّوا مساعدات الأمم المتحدة. ويقول بترونيّ آخر إنّ مدرسة شبطين الرسميّة تضمّ ٧٠ تلميذاً سوريّاً، وليس فيها تلميذ واحد من شبطين.

وبعض ما يمكن تأكيده أنّ العونيّين ومؤيّدي فرنجيّة هم وحدهم الذين يؤيّدون النظام السوريّ، إلاّ أنّ الآخرين ليسوا بالضرورة مؤيّدين للثورة، أو حسّاسين حيال الألم السوريّ، خصوصاً مع المخاوف التي أثارها التكفيريّون والقلق المتزايد على المسيحيّين في سوريّة. وربّما جاز القول إنّ نسبة معتبرة ممّن يكرهون النظام السوريّ، جرّاء ما نزل بهم في عهد الوصاية، ترجموا كراهيّتهم تلك شعوراً بشعاً بالشماتة لا يميّز بين سوريّ وآخر. وفي بيئة كهذه تتردّد أخبار غير محقّقة من أنّ العمّال السوريّين، وهم أكثريّة المستأجرين في قرى الوسط والساحل، رفعوا أسعار الإيجارات، وأنّ عمّال البناء المحلّيّين لا يكفّون عن التذمّر منهم ومن منافستهم. لكنّ أحد الذين تحدّث إلينا أضاف، راسماً على شفتيه ابتسامة خبيثة: "إلاّ أنّ أكثر مشاريع البناء التي تعود إلى جبران باسيل عمّالها سوريّون".

كسروان: البحث عن المعنى الضائع

ثمّة دهشة بالعالم لم تضرب كسروان. أهل ذاك القضاء، الممتدّ ما بين نهري الكلب جنوباً وإبراهيم شمالاً، هيّأوا أنفسهم طويلاً وهيّأهم تكوين لبنان الطائفيّ، لأن يكونوا "عمق النصارى" في مواجهة الإسلام. لكنّهم لم يحظوا في تاريخهم الحديث إلاّ بأعداء مسيحيّين، وموارنة تحديداً.

فمن آل الخازن في مواجهة الكنيسة والفلاّحين أواخر القرن التاسع عشر، إلى بشراويّي "القوّات اللبنانيّة" في ثمانينات القرن العشرين، راحت الوقائع تعاند الأماني، وذهب كثيرٌ من إعداد النفس لليوم العصيب هباءً منثوراً. وبين هذين الانقسامين الكبيرين، رسم عام ١٩٦٨ ابنَ كسروان، الرئيس الراحل فؤاد شهاب، عدوّاً لبني جلدته. فقد أسقط "الحلف الثلاثيّ" الشهير لائحته في عقر داره باعتباره "عميلاً" لجمال عبد الناصر.

هكذا يُلاحَظ في الكسروانيّين أنّهم يتحدّثون عن "الإسلام" أكثر ممّا يتحدّثون عن "المسلمين"، فكأنّهم يرفعون قضيّتهم إلى مصاف الجوهر فيما يجنّبونها بشراً يجهلونهم. فهم، بحسب سيّدة أقامت طويلاً في جونية، عاصمة القضاء، "لا يعرفون مسلمين"، وحتّى الشيعة الذين يجاورونهم في البقاع، يقتصر التماسّ معهم على مناسبات عزاء متفرّقة.

وكسروان، ذاك القضاء الذي يعدّ أكثر من ٢٠٠ ألف نسمة، من أصفى المناطق المارونيّة في لبنان، إذ يبلغ موارنته ٩٠ في المئة من سكّانه. ولا شكّ في أنّ الصفاء هذا اضطلع بدور أساس في تعزيز اكتفائهم الذاتيّ، بحيث نُسبت إلى الكسروانيّين كلمة "غريب" التي قيل إنّهم يطلقونها على كلّ وافد حتّى لو عاش عشرات السنين بين ظهرانيهم.

وبالمقارنة مع سائر أقضية الجبل، يتجلّى اختلافها: فقد حضنت جبيل أقلّيّة شيعيّة كبرى، فيما للشيعة والدروز في المتن الجنوبيّ حضور كثيف، وتستمرّ زعامة الشوف وعاليه معقودة للدروز. وهذا كلّه غير وارد في كسروان التي لا "يلوّث" صفاءها المارونيّ أيّ حضور مسيحيّ آخر كالحضور الأرثوذكسيّ والأرمنيّ الوازن في المتن الشماليّ.

آل الخازن

وما يزيد حيرة كسروان بالعالم والحيرة بها في آن واحد أنّ الزمن يشهد انهيار دول برمّتها في الشرق الأوسط، لكنّ عالم جونية وكسروان يبدأ بالعائلات الضاربة في القدم وبها ينتهي. ولمّا كانت سياسة العائلات تختلط بمعارك البلديّة والمخترة، انطوى الأمر على كثير من السفاسف والترّهات.

فمع سلام الطائف، حلّ حزب الله وأمل محلّ عائلات الشيعة، وأزاح رفيق الحريري سائر الرموز السنّيّة. أمّا عند المسيحيّين الذين تشتّتت أحزابهم، ولم تطلب الرضا السوريّ، أو لم تحرزه، فاستُحضرت العائلات من ثلاّجاتها. وحين حدث التحوّل الكبير في ٢٠٠٥، وجد العائدان الكبيران، ميشال عون وسمير جعجع، أنّ عليهما التوافق مع هذه العائلات على نحو ما. هكذا تألّفت خلطة كسروانيّة تجمع على نحو غريب ومتقلّب وضعيف المعنى بين الحزب والعائلة. وبموجب التركيبة هذه، بات نفوذ الأوّل يجد في الثانية ممرّه الإجباريّ وشرطه الشارط.

وما إن تُذكر العائلات في كسروان حتّى يُذكر آل الخازن. فهم الذين لازموا تاريخ جبل لبنان منذ القرن السابع عشر، وضدّ "إقطاعهم" نهضت الحركات العامّيّة والفلاّحيّة في القرن التاسع عشر حيث برز اسم طانيوس شاهين.

ولئن امتدّ مهد خازنيّي الجرد من عجلتون حتّى مزرعة كفر ذبيان ومنها إلى الحدود مع البقاع، فقد توزّعوا على سائر قرى كسروان ومناطقها، من دون أن يتجاوز عددهم بضع مئات. بيد أنّ قدرتهم على توفير الخدمات، تبعاً لموقعهم من الإدارات المتعاقبة ولكونهم "حرّاس بكركي"، زوّدتهم شعبيّة أعرض من عددهم الأصليّ.

لكنّ الخازنيّين، على ما يشير النائب الحاليّ والأستاذ الجامعيّ فريد الياس الخازن، كانوا

دوماً متعدّدي الرؤوس والزعامات. فهم سبق أن انقسموا في الأربعينات والخمسينات بين النائبين السابقين فريد الخازن، الدستوريّ، وزعامته في غوسطا، وكسروان الخازن، الكتلويّ، وزعامته في عجلتون. ثمّ انقسموا في الستينات بين النائب السابق الياس الخازن، الشهابيّ، ورشَيْد الخازن، الشمعونيّ. وهم اليوم مقسومون بين فريد الياس، النائب الحاليّ، وخصمه النائب السابق فريد هيكل الخازن، مع وجود وجه ثالث لا يعوزه الطموح هو كلوفيس الخازن.

إلاّ أنّ تلك العائلة التي امتحنها التاريخ بقسوة غير مرّة، لا تزال أكثر العائلات الكسروانيّة تلاحماً. فإذا صحّ أنّ أعيانها راسلوا البطريركيّة المارونيّة معلنين أنّ فريد هيكل، لا فريد الياس، هو الذي يمثّلهم، وأنّ الأخير تؤخذ عليه "أكاديميّته" وضعف صلته بالسياسات المحلّيّة، فهذا لا يلغي أنّ أكثريّة العائلة تصوّت للمتنافسين الاثنين من أبنائها.

ويسجّل النائب الخازن، بحقّ، أنّ الذين دخلوا الحياة السياسيّة لاحقاً، من بوّابة عائلاتهم أو من باب حزب الكتائب، إنّما فعلوا من موقع الخصومة لآل الخازن وزعامتهم. ففي كتابه "بيروت ولبنان في عهد آل عثمان"، يروي يوسف الحكيم أنّ الأيّام الأخيرة من عهد المتصرفيّة شهدت تجدّد النزاع الناشب بين "حزب" المشايخ الخازنيّين ومَن يسمّيهم "حزب الشعب" الذي قاده حبيب بيطار ونعّوم باخوس وجورج زوين وبولس نجيم، الكاتب الذي عرف بـ"جوبلان" وكتب، منذ ١٩٠٨، عن "القضيّة اللبنانيّة". والزعامات هذه بدأت تطلّ برأسها مع بدايات عهد المتصرفيّة ونشأة "مشايخ الصلح" الذين أضحى أعضاء "مجلس الإدارة" يُنتخبون منهم، وعلى ضفاف تلك الانتخابات جعلت تنشأ وتتعزّز حزبيّات قرويّة جديدة تشقّ "حزب الشعب" نفسه وتصدّع وحدته.

الأنتي خازن

وبحسب الباحث أنطوان سلامة، ظهرت، مع المتصرفيّة، عائلات "بورجوازيّة" جديدة، مع نشأة مهن كالمرابة وبروز متعلّمين ومحامين وصيادلة من آل زوين وغانم وسواهما.

والراهن أنّ الزعامة انتقلت في فتوح كسروان إلى آل زوين، فمكثت في يد جورج إلى أن تعهّدها ابنه موريس. وبدورها التفّت العصبيّات المقابلة حول نعّوم باخوس الذي ينتمي إلى غزير، ومنه إلى قريبه لويس زيادة وصولاً الى فؤاد البون من جورة بدران الصغيرة، هو الذي ظلّ يؤيّد زوين ويواليه إلى أن حضّه الرئيس بشارة الخوري على منافسته بقصد إرجاع زوين إلى بيت الطاعة. فموريس زوين، على عكس عادته، عارض العهد إذّاك لأن الشيخ الدستوريّ فريد الخازن تخلّى عنه وتركه على قارعة لائحته الانتخابيّة.

أمّا في الساحل الذي يدور حول مدينة جونية فظهرت في ذوق مكايل عائلات نقّاع وبويز وكرم ظهور عائلة تقلا الكاثوليكيّة والشاعر الياس أبو شبكة. وكانت ذوق مكايل أحد المهود القليلة لسياسة حديثة نسبيّاً ارتبطت بفئات وسطى صاعدة. فهي إحدى المديريّات التسع التي قُسّم إليها قضاء كسروان بحسب نظام جبل لبنان في ١٨٦١ الذي عُدّل بعد عامين. وهي أساساً أكبر القرى الكسروانيّة والسوق التجاريّة التي يؤمّها أصحاب الحاجات للتبضّع والإفادة من جودة منتجاتها، وبين تلك المنتجات التي امتازت بها صناعات مختلفة أبرزها النسيج. وقد مرّ زمن عرفت الذوق خلاله ما ينوف على ثلاثمائة نول تغزل وتنسج، حتى تضافر انتشار الحياكة الآليّة وتفاقم الهجرة فحدّا منها وراحا يحاصرانها في رقعة منكمشة.

وهنا أيضاً لم ينفصل ظهور العائلات التي وفدت إلى السياسة، ككرم وبويز ونقّاع، عن النزاع مع الخازنيّين. ولئن تولّى زعامةَ العصبيّة الدستوريّة في الساحل آل تقلا الكاثوليك وجورج كرم المعروف بثرائه، فقد نيط أمر الكتلويّة بنهاد بويز الذي اقترن بآنسة من آل الدبس في البقاع سبق لشقيقة إميل إده، لويزا، أن تبنّتها وأورثتها ما تيسّر من أرزاقها. ومع التوسّع التدريجيّ الذي حقّقه حزب الكتائب، عبر مرشّحه التقليديّ غير الكسروانيّ الأصل لويس أبو شرف، استقرّت خريطة القوى الانتخابيّة حتّى حرب السنتين على النحو الآتي: جرود كسروان حيث الزعامة التقليديّة لآل الخازن المتعدّدي الرؤوس، وفتوح كسروان التي تتبع آل زوين في متنها ويعود هامشها لمن يناهضهم، والساحل المقسوم الى الحزبيّة الكتلويّة بزعامة نهاد بويز، والوجه الدستوريّ، ثمّ الشهابيّ، فؤاد نقّاع، وحزب الكتائب.

كتائب وحرب

مع الكتائب، نشأ الحزب الحديث الأهمّ والأكبر الذي لا يشبه ائتلافي العائلات اللذين عُرفا بالكتلة الدستوريّة لبشارة الخوري والكتلة الوطنيّة لإميل إدّه.

وبالفعل عرفت كسروان أفراداً شيوعيّين كان منهم أوّل شيوعيّي لبنان، النقابيّ الذي عاش في مصر فؤاد الشمالي، كما أثّرت بعض أفكارهم الإنسانويّة في الشاعر الياس أبو شبكة، من دون أن تزحزحه عن ولائه العميق للكتلة الوطنيّة. كذلك ظهر فيها أفراد قوميّون سوريّون حمل أبرزهم أيضاً اسم فؤاد الشمالي، المنضمّ إلى جماعة "أيلول الأسود" الإرهابيّة.

لكنّ الكتائب هم وحدهم الذين كوّنوا بيئة تناظر قوّتُها، وقد انضوت فيها عائلات صغرى ومهمّشة، قوّةَ العائلات السياسيّة الكبرى. هكذا تمكّن مرشّحهم الدائم وأحد خطبائهم، الياس أبو شرف، من الوصول مرّات عدّة إلى الندوة النيابيّة.

ومع اندلاع حرب السنتين، انكفأت العائلات السياسيّة كالخازن وزوين والبون، وبدا للأفراد بينهم ممّن أرادوا "الدفاع عن المسيحيّين" أنّ الأحزاب قاطرتهم إلى ذلك. وبالفعل وُجدت في كسروان التنظيمات الشبابيّة والراديكاليّة كلّها، من "التنظيم" الذي دعمته الرهبنة المارونيّة كما دعمته أجهزة تابعة للجيش، إلى "حرّاس الأرز" الذي استوحى، عند نشأته، هياج الشاعر سعيد عقل، المقفّى الموزون منه وغير الموزون.

يومذاك استُنفر "المجتمع المسيحيّ" كلّه. ولمّا كان المطران الذي تولّى البطريركيّة عام ١٩٧٥، مع اندلاع الحرب، رجلاً معتدلاً من الجنوب، هو أنطونيوس بطرس خريش، اضطلعت الرهبانيّات وجامعة الكسليك بوظائف الحضّ والتعبئة التي عزفت عنها بطريركيّة مترفّعة. وإذ لم تتورّع الرهبانيّات عن التسليح وتدريب التلامذة على القتال، لم تتورّع الكسليك بدورها عن دفع الأفكار إلى نهاياتها القصوى. وبوجود الأباتي شربل قسّيس على رأس الرهبانيّات، ولدت "الجبهة اللبنانيّة" في هذه البيئة الكسروانيّة الملتهبة.

لكنّ حزب الكتائب ظلّ القوّة السياسيّة والعسكريّة الأبرز، مثلما كان الإطار التنظيميّ الأوسع والأشدّ خبرة، فضلاً عن معرفة مديدة ربطت الكسروانيّين به. فإلى وراثة العائلات، بدا شريكا الانتصار الانتخابيّ في ١٩٦٨ مطروحين أيضاً للتوريث:

ذاك أنّ ريمون إدّه سلك طريقاً انشقّ بها عن قاعدته المارونيّة وانتهت به إلى المنفى الطوعيّ في باريس. أمّا كميل شمعون الذي تقدّمت به السنّ، فلم يعد يملك الجاذبيّة التي ينافس بها جاذبيّة الكتائبيّين الشبّان، وعلى رأسهم بشير بيار الجميّل. فالأخير، في توحيده البندقيّة المسيحيّة بعد حرب السنتين، وحّد الزعامة أيضاً في مهمّة تُوّجت عام ١٩٨٠ مع مقتلة الصفرا التي قضت على المسلّحين الشماعنة.

وعلى امتداد هذه السنوات التي حوّلت بشير الجميّل معبوداً للكسروانيّين، نزف دم كثير بعدما ارتسمت لوحات بالغة البشاعة سبق أن شهدتها ساحات جونية، إبّان حرب السنتين، حيث سُحل أفراد مغضوب عليهم وصفّقت لسحلهم وهلّلت جماعات غاضبة.

مع ذلك، ولأسباب كثيرة بعضها اقتصاديّ وبعضها يتعلّق بماضي الكتائب كحزب مألوف، وبنجم بشير الذي انبثق تمرّده من ذاك الكنف الأليف، لم ينفر الكسروانيّون من الكتائب النفورَ الذي عبّروا عنه لاحقاً حيال القوّات اللبنانيّة.

معضلة القوّات

لقد كان على القوّات اللبنانيّة، منذ بشير الجميّل وخصوصاً بعده، أن تموّل نفسها بنفسها. ذاك أنّها افتقرت إلى الدعم والتمويل اللذين وفّرتهما دول كالعراق وليبيا وإيران لميليشيات المناطق الغربيّة، ما جعل وطأة القوّات على "مجتمعها المسيحيّ" ثقيلة ومباشرة.

فمنذ ١٩٧٨، مع مباشرة "توحيد البندقيّة" وبناء جيش تنحلّ الميليشيات فيه، بُدئ بفرض الخوّات المنظّمة كضريبة الواحد بالألف على العمليّات العقاريّة، ووضع نظام للجباية، فضلاً عن افتتاح مؤسّسات ومجالس قضاء لديها محقّقون يتبعونها.

لكنّ ذلك رافقه توطّد في الأمن وازدهار أمّنته تجارة السلاح والمخدّرات والتهريب الواسع الذي أعقب نهب مرفأ بيروت. كذلك شرعت تنتعش صناعة الترفيه من أصغر "سناك" للوجبات السريعة إلى الكازينوهات والملاهي الليليّة بأنواعها المحلّلة والمحرّمة. ذاك أنّ مسيحيّي المناطق الأخرى تدفّقوا على جونية، من فقرائهم ومهجّريهم إلى

أغنيائهم ومستثمريهم، فيما باتت المدينة، وهي عاصمة المسيحيّين، مُطالَبة بتوفير الحاجات والخدمات التي يسعى إليها مقاتلوهم الشبّان.

فحين انتُخب بشير رئيساً للجمهوريّة، بدا للكسروانيّين أنّ تلك الصفحة طويت بحسناتها وسيّئاتها، وأنّهم كوفئوا على صبرهم المكافأة التي يستحقّون. لكنْ لا. فبشير ما لبث أن اغتيل، والطريق تبدّت طويلة وشاقّة ودامية أيضاً، فضلاً عن تناقضات لا تُحصى على جانبيها.

حبيقة وجعجع والشماليّون

لقد والت القوّاتِ اللبنانيّة، المولودة من رحم الكتائب والمستفيدة من شيخوختها، عائلاتٌ صغرى تشبه تلك التي والت الكتائب من قبل. أمّا العائلات الكبرى فسايرتهم بوصفهم السلطة التي تستطيع تدبير المصالح وتوزيع المغانم. ولئن لوحظ أنّ الإقبال كان في الفتوح أعلى منه في مدينة جونية، وفي القرى الصغرى أكثر منه في تلك الأكبر، فهذا لا يلغي أنّ كسروان تحوّلت عمقاً للسلطة القوّاتيّة وقلعة لها ومجمّعاً لأسلحتها الأثقل، كما كانت استراحةَ مقاتليها تبعاً لبُعدها النسبيّ عن مصادر القصف الذي كان يستهدف المناطق الشرقيّة.

على أيّة حال ما لبثت أن تجمّعت نُذر النقمة على القوّات الذين، كما قال لنا أكثر من كسروانيّ، "تورّطوا في أعمال قتل"، فيما هيمنوا على المنطقة صوتاً واحداً ولوناً واحداً. وإلى المعالم التي لا يزال يذكرها الكسروانيّون بوصفها الدلالة على العهد القوّاتيّ، كزحمة الأفران والسطو على بنزين المحطّات، زاد الفساد وتضاعفت الضرائب، مع أنّ التهريب المفتوح والسائب أتاح استمرار درجة ملحوظة من البحبوحة السابقة.

فوق هذا فعلت فعلها الارتدادات العنفيّة للصراعات داخل القوّات نفسها. فحين تمكّن سمير جعجع من إنزال الهزيمة بإيلي حبيقة، مطالع ١٩٨٦، بات "حكم أهل الشمال غليظاً وفاقعاً".

وفيما شرعت البيوت تبدي انزعاجها من ارتفاع الضرائب، راحت الشوارع والأحياء تبدي انزعاجاً مماثلاً من تكاثر اللهجة الشماليّة فيها. وهي حساسيّة يرى

الباحث أنطوان سلامة أنّ لها سوابقها في نزاع يوسف كرم وطانيوس شاهين، وفي خلافات دائمة كانت تنشب بين أساقفة بشرّي وأساقفة كسروان.

ويُلاحَظ، في هذا المعرض، أنّ تعبير "شماليّ" يدمج البشراويّ والزغرتاويّ، من دون تمييز، على رغم ما بينهما من حساسيّة لا تقلّ عن تلك الشماليّة – الجبليّة. فيُذكر، مثلاً، أنّ نزوح الشماليّين عن كسروان، بعد جريمة قتل توني فرنجيّة في ١٩٧٨، حرّر كازينو المعاملتين من قبضتهم التي فرضوها مع انتخاب سليمان فرنجيّة رئيساً للجمهوريّة قبل ثماني سنوات.

لكنّ أهل جونية والساحل يبقون أقلّ من أهل الجرد تعبيراً عن امتعاضهم من القواتيّين والشماليّين. فمن كسروان لم يُقتل كثيرون في الحرب، حتّى إنّ الساحل بقي عملياً خارجها. أمّا الأفراد الذين قضوا كمقاتلين فأكثرهم من غزير ومن حراجل وباقي قرى الجرد. فوق هذا، فسكّان جونية أقلّ انفعالاً وحدّة في التعبير، بسبب مدينيّتهم، كما بسبب مصالح ومشاريع تجاريّة على الساحل يملك الشماليّون جزءاً كبيراً منها.

بيد أنّ هذا وإن خفّف الاستياء، لم يخفّف الرغبة في توكيد المسافة عن القوّات بوصفها ميليشيا لا تليق بـ"حضاريّتنا".

... وجاء المخلّص

هكذا حين كانت قبضة القوّات ثقيلة على جونية وكسروان، ونشبت "حرب الإلغاء" في ١٩٩٠ بينها وبين ميشال عون، وقف أغلب الكسروانيّين ضدّ حكّامهم، متعاطفين مع قائد الجيش السابق. وعندما أُدخل سمير جعجع السجنَ في ١٩٩٣ سُرّ كسروانيّون كثيرون من غير أن يشمتوا.

فلوهلة جسّد عون الخير في مقابل الشرّ الذي جسّده لهم جعجع. ذاك أنّ أوّلهما استنطق العصبيّة الجبليّة ضدّ الشماليّين استنطاقه الاحتجاج الأخلاقيّ على القوّات. وحول عون التفّ المتضرّرون من القوّات ممّن عاهدوا أنفسهم ألاّ يقبلوا بغير السلطة الشرعيّة سلطةً وألاّ يدفعوا الضرائب لسواها. وبوصفه قائد جيش ورئيس الحكومة المسيحيّة التي خلفت عهد أمين الجميّل، حظي عون بتلك المواصفات. فمعركته مع

القوّات، وفقاً لجوان حبيش رئيس بلديّة جونية السابق، كانت "بداية تأسيسه مشروع الدولة الذي يحمله". وهذا ما عزّزه انتساب عون إلى المزاج السياسيّ نفسه الذي ينتسب إليه القوّاتيّون والكسروانيّون. فهو أيضاً حارب السوريّين وتعرّض للنفي الطويل بسبب حربه هذه، حتّى إذا عاد، عاد مرفقاً بصورة المسيحيّ القويّ الذي "لا يسير – كما يفعل جعجع – وراء سعد الحريري".

وكان المحكّ انتخابات ٢٠٠٥، حيث فاز الجنرال بأكثر من ٣٨ ألف صوت، فيما نال منصور البون الذي رأس اللائحة المنافسة، أقلّ من ٢٠ ألفاً. هكذا، وعلى نحو ذكّر بما فعله "الحلف الثلاثيّ" في ١٩٦٨، بدا الانتصار من نصيب الخطّ الذي رفع لواء "الدفاع عن مصالح المسيحيّين"، بعد "حملة صليبيّة" لمواجهة "الحلف الرباعيّ" المسلم.

ولئن "استدارت سيّدة حريصا" في ١٩٦٨، فقد ذهبت الخرافة في ٢٠٠٥ مذهب العثور على مخلّص كامل الأوصاف وعلى خلاص شامل يكون خاتمة الأحزان جميعها. فبحسب النائب الخازن الذي استعار تعبيراً شهيراً لوليد جنبلاط وأكسبه دلالة إيجابيّة، لفح عون المنطقة كأنّه تسونامي، فانتسب إلى تيّاره أربعون ألف شخص، واستطاع وحده أن يفعل ما فعله في ١٩٦٨ الزعماء الثلاثة الأكبر بين الموارنة آنذاك.

وربّما كان ارتفاع شعبيّة عون بين النساء الدليل الأبرز على ذاك التطلّع الذي عرفته مجتمعات كثيرة أخرى إلى المخلّص الفحل الذي يختصر الذكورة. وبالفعل استطاع قائد الجيش السابق أن يدغدغ صوراً وأن يخاطب مشاعر وافدة من نزاعات الإخوة والأشقّاء. فمن خلال مبايعته كُفّر عن الذنب حيال فؤاد شهاب الذي طعنه الكسروانيّون وتنكّروا له، وكان هو الآخر قائد جيش قبل أن يبني كرئيس جمهوريّة أوّل أوتوستراد ويربط بين جونية وقراها الجرديّة. وفي الوقت ذاته أقنع الكسروانيّون أنفسهم، عبر عون، بأنّ موارنة الجبل ما زالوا أقوياء: فلا الموت أخذ كميل شمعون، ولا حبيب الشرتوني قتل بشير الجميّل.

ولم يكن بلا دلالة أنّ الجنرال كان القطب المارونيّ الأوّل في التاريخ اللبنانيّ الحديث الذي يختار كسروان منصّته الانتخابيّة. فشمعون الشوفيّ اختار الشوف، وريمون إدّه جبيل، وبيار الجميّل بيروت، وحميد وسليمان فرنجيّة زغرتاويّان ما كان يسعهما إلاّ أن يختارا زغرتا.

حزب الله

لكنْ، وكما يعترف النائب العونيّ فريد الخازن، أدّى "التفاهم" مع حزب الله إلى تراجع نسبيّ في قوّة عون وتيّاره. ذاك أنّ تعلّق الكسروانيّين بـ"الدولة" الذي رفعوه في وجه القوّات، صُدم بهذا "التفاهم" مع حزب مسلّح. ثمّ إنّهم، على عكس موارنة عين الرمّانة مثلاً، لا يعرفون الضاحية الجنوبيّة ولا يختلطون بأهلها. وفي المقابل، فالشيعة، على عكس السنّة الذين يمرّون بجونية في طريقهم إلى طرابلس، لا يجدون ما يحوجهم إلى ذاك المرور.

لهذا، وعلى ما يرى الدكتور جوزيف خوري، كان لا بدّ من صنع صورة عن "الشيعيّ" يتداولها الكسروانيّون بوصفه المقاتل الشهم والبعيد في آن واحد. وقد انطوت الصورة هذه على تضاعيف عدّة، منها أنّ الشيعيّ ليس السنّيّ الذي والى عبد الناصر ثمّ والى المقاومة الفلسطينيّة، علماً بأنّ أحد أبرز قادتها قال إنّ "الطريق إلى فلسطين تمرّ من جونية". وهذا فضلاً عن أنّ الشيعيّ ليس من اعتاد حشر الرئيس المارونيّ مطالباً بالمشاركة، وليس من درج على قطع طريق الساحل كلّما تدهورت الأوضاع السياسيّة والأمنيّة. ولم يخلُ الأمر من تبريرات مصنوعة لإقناع صاحبها أوّلاً، مفادها أنّ عون إنّما "يستغلّ الشيعة لتكسير السنّة".

وربّما جاز القول إنّ النظرة الكسروانيّة إلى الشيعة أقلّ حدّة منها إلى السنّة، حيث لا تزال أشباح المماليك تحضر أحياناً. لكنّ هذا لا يلغي انطواء تلك النظرة على مصادر للحدّة والتوتّر. فمنذ أبي نادر وأبي نوفل الخازن، مطالع القرن السابع عشر، وهما المتّهمان بـ"تنصير الأرض"، لا يغيب النقاش في ما إذا كان الخازنيّان هذان قد اشتريا الأراضي من الشيعة أم استوليا عليها بالقوّة التي أفضت إلى تهجيرهم إلى بعلبك. وبالفعل، وكما يلاحظ أنطوان سلامة، لا تزال في كسروان آثار تدلّ على الوجود الشيعيّ، كمنطقة بيت المهدي قرب ميروبا وحيّ دار علي في فاريّا، كذلك لا تزال بلدة حراجل، حيث احتدم الصراع القديم حول الملكيّة، تعبّر عن هذا التشبّع المسيحيّ والنضاليّ الذي ينمّ عنه التقديس البالغ للعذراء وطقوس الاحتفال المبالغة بسيّدة حراجل. وهي أحداث كان للتاريخ أن يطويها لولا أنّ الواقع يعيد نكأها مرّةً بعد مرّة في منطقة لا يموت موتاها. فقبل عام ونيّف مثلاً، كان لاحتكاك بين شبّان من قريتي ميروبا وحراجل

وآخرين من قرية لاسا الشيعيّة أن تسبّب بسقوط قتيلين. ولم يكن سبب الاحتكاك يتعدّى أفضليّة مرور الشاحنات على طرقات محفّرة.

فالتحالف مع حزب الله يبقى، في آخر المطاف، أمراً ملتبساً. فمن جهة، وبسبب الانكفاء المسيحيّ عن السياسات الوطنيّة في متنها العريض، والاستغراق في الهموم المحلّيّة والعائليّة الصغرى، يلوح كأنّ ذاك التحالف هو ما يمنّ عليهم بموقع في تلك السياسات، وما يلبّي بالتالي المزاعم التأسيسيّة الكبرى لدى المسيحيّين. ومن جهة أخرى، هناك خوف من حزب الله فاقمته أحداث أيّار (مايو) ٢٠٠٨ حين وجّه الحزب سلاحه إلى الداخل، فلم يكن ذاك الشهم البعيد الذي صوّره لهم عون.

وهذا، على عمومه، ما عكسته نتائج انتخابات ٢٠٠٩ العامّة، خصوصاً وقد انحازت البطريركيّة المارونيّة، وعلى رأسها البطريرك نصرالله صفير، إلى خصوم الجنرال. فعلى عكس الانتصار المؤزّر في ٢٠٠٥، نال عون قرابة ٣٢ ألف صوت فيما نال منصور البون، رئيس اللائحة المقابلة، أكثر من ٢٩ ألفاً، مقلّصاً الفارق بينه وبين جيلبرت زوين، المرشّحة على لائحة عون، إلى بضع مئات من الأصوات.

ضدّ بيروت

وجونية تغيّرت كثيراً منذ حرب السنتين. فالبلدة البحريّة ذات السطوح القرميديّة، المنسجمة والمتواضعة في استعراض مفاتنها، لم يبقَ منها الكثير. ذاك أنّ القرى الثلاث، حارة صخر وساحل علما وصربا، التي تشكّلت جونية من تمدّدها العمرانيّ، باتت هدفاً للباطون الزاحف الذي يستهوي الباحثين عن سكن رخيص مثلما يستهوي الساعين إلى ربح وفير.

فمع تلك الحرب، أواسط السبعينات، تدفّق المسيحيّون بكثرة عليها. لقد جاؤوا من مناطقهم الأبعد بحيث أصابوها بنموّ عشوائيّ مصحوب، كما الحال دوماً، بعديد المشاكل البيئيّة. فقبلاً لم يكن فيها سوى الكازينو ونادي اليخوت في الكسليك وبعض الفنادق المتفرّقة، وبالطبع جامعة الكسليك. لكنْ مع الحرب، ومع شفط الرمول، تكاثر البناء ونشأت المشاريع السياحيّة الكبرى ومسابح وفنادق خاصّة وعشوائيّة يحميها

في الغالب متنفّذون أقوياء، فيما راحت تتزايد الجامعات الخاصّة عاماً بعد عام. كذلك ارتفع عدد سكّان المدينة ومحيطها القريب إلى ٢٥٠ ألفاً، أي أضعاف ما كان عليه من قبل.

وجونية، التي كانت أساساً مرفأ صغيراً وسوقاً لأهل الجرد الكسرواني، نما اقتصادها وليلها على إيقاع الدفق السكّاني والشبّان المقاتلين. لكنْ ربّما جاز التأريخ لبداية ذاك التحوّل بسرقة مرفأ بيروت حيث انفجرت التجارة في جونية بعدما نُصبت فيها الخيم لبيع السلع المسروقة في العاصمة ومنها. ولئن حصل هذا قبل أن يزدهر مرفأ جونية نفسه، والذي اضطلع بدوره بدور أساسيّ في الحرب، فإنّه نمّ عن وجه بارز من وجوه العلاقة ببيروت وبفكرة "المركز" اللبنانيّ ذاته.

فكسروان، بوصفها "عاصمة الموارنة"، تستبطن وعياً نافياً لـ"عاصمة اللبنانيّين" أو محتجّاً عليه. فلم يكن صدفة أن يمهّد انهيار الوسط التجاريّ وسرقة المرفأ لانتفاخ جونية التي آوت المسيحيّين الهاربين من مناطقهم والمهدَّدين فيها. والحال أنّ الوعي هذا، في اكتفائه الذاتيّ وفي انكفائه على رقعته الجغرافيّة، يرى إلى بيروت بوصفها، وفقاً لجوزيف خوري، "المكان المسلم، الشاهق والبعيد في وقت واحد". وأغلب الظنّ أنّ اكتظاظ الأوتوستراد الذي يصل جونية ببيروت، مُنكداً ومُلوّثاً حياة السكّان على جانبيه، يضيف جرعة عداء أخرى لبيروت. وفي الأحوال كافّة يُلمَس كيف أنّ ما يجري في العاصمة لا يكاد يعني الكسروانيّين، حتّى لا نذكر ما قد يجري في طرابلس أو صيدا.

كذلك لم يكن صدفة أنْ يترافق تراجع جونية السياحيّ والخدميّ، حين غادرها مع انتهاء الحرب كثيرون من المهجّرين إليها ومن التجّار الذين قصدوها، مع انبعاث بيروت بعد اتّفاق الطائف. وهذا ما أثار لدى الكسروانيّين فرضيّات تغازل الوعي التآمريّ، بعضها يردّ ذاك التراجع إلى قيام الوسط التجاريّ، وبعضها يردّه إلى توسّع شارع فردان، لكنّها كلّها تردّه إلى بيروت مرموزاً إليها بهذه التسمية أو تلك. هكذا، مثلاً، سرت سريان النار في الهشيم شائعة أنّ آل الحريري ينوون بناء جامع في جونية، أو أنّ حليفهم المناوئ لميشال عون، منصور البون، يبيع أراضي للحريري ويبني مسجداً بين ظهرانيهم.

لكنّ ما لا يُنتبه دائماً إليه أنّ الكتائبيّين، والقوّاتيّين من بعدهم، هم الذين كانوا وسيط

التغيير الذي لفح جونية. فهم من فتح الباب لـ"الأغراب"، إمّا كمقاتلين أو كلاجئين هجّرتهم الحرب التي خاضها الطرفان المذكوران، ولاحقاً كمستثمرين وباحثين عن أرباح سريعة. وبالمعنى هذا، انكسر "الغريب" الذي وُصف به طويلاً أهل جونية، ليستقرّ في الجرد محافظاً هناك على درجة من "الصفاء" أعلى.

فالوافدون، أو بعضهم، عمّروا المدينة بأموالهم تعميراً سيّئاً، وأحدثوا انفتاحاً على العالم الخارجيّ لم تعرفه من قبل كسروان. وكان هذا، على ما يجري عادة في الحروب، مختلطاً وملتبساً بما فيه الكفاية. فقد استثمروا على البحر وأقام البيارتة منهم، وخصوصاً الشماليّين، مطاعمهم، كما انتشرت مشاريع سياحيّة رخيصة على الساحل، جاعلةً السباحة هواية مكلفة ومحصورة بأعضاء نادي اليخوت في الكسليك.

والحال، كما يلاحظ جوزيف خوري، أنّ التقليد التجاريّ ضعيف أصلاً في جونية. ذاك أنّ المشاريع التي انتقلت منها، وربّما كانت بوظة القزيلي أهمّها، لم تنجح في التمدّد إلى باقي المناطق اللبنانيّة. بيد أن التمدين "بالرخص"، كما وصفه واحد ممّن تحدّثنا إليهم، جعل المدينة متاحة ماليّاً لأعداد أكبر من المسيحيّين الذين تضاعف تدفّقهم عليها.

انفتاح... يجدّد الانغلاق

فباسم الدفاع عن الطائفة إذاً انهارت خطوط الدفاع عن المنطقة التي تهاوت عزلتها. وهو انهيار انطوى على تناقضات وتفاوت. فلدى الاستماع مثلاً إلى نائب رئيس البلديّة الحاليّ فؤاد بويري يتحدّث بشيء من الافتخار عن نشأة الفنادق والفورة العمرانيّة، لا يفوته تحوّل "عدم بيع الأراضي للغريب" شاغلاً أساسيّاً، وإن ظلّ مُحدِّثنا يرفض الربط بين غربة "الغريب" وطائفته. بيد أنّ السنوات الأخيرة شهدت ضخّ أموال عراقيّة مسيحيّة، كما شاع شراء بعض المسيحيّين العراقيّين بيوتاً في وسط المدينة، واليوم يُلحظ في كسروان رأس مال سوريّ مسيحيّ أيضاً.

لكنّ شعوراً غامضاً يلازم الناظر إلى هذا الشريط الساحليّ مفاده أنّه يأخذ سالكه إلى لامكان، أو يردّه لا محالة إلى المكان الذي انطلق منه أصلاً. فجونية وساحلها محبوسان في نهاية الأمر بين طرابلس وبيروت السنيّتين، محكومان بأفقهما المُلزم، ولن يغيّر كسرُ

عزلتهما حقيقةَ أنّ الجرد الكسرواني سيبقى، حتّى إشعار آخر، الرئة المضمونة.

هكذا، ومن بين أسباب عدّة أخرى، تُفهم قوّة ما سمّاه أحدهم "العصب الدينيّ" في كسروان، وهو ما يُلحظ، مثلاً لا حصراً، في إقبال الشبيبة على الكهنوت. فالرهبانيّات المارونيّة اللبنانيّة الأكبر مركزها كسروان، وثمّة نشاطات رعويّة وأخويّات كثيرة كـ"الحبل بلا دنس" و"جنود مريم"، التي تعقد مؤتمراً سنويّاً وتبدو أشبه بحزب غير سياسيّ ينضوي فيه أفراد تعدّدت أحزابهم واختلفت، إلاّ أنّ قيادته تعود حصراً إلى بكركي. وبدورها تملك الأخيرة جيشاً "أبيض" مؤلّفاً من رجال الدين والرعويّات والأديرة والمدارس والجامعات وسائر المؤسّسات، ما يمنحها موقعاً مؤثّراً في توجيه شرائح كبيرة من السكّان وفي رسم خياراتهم. وتضطلع الآلة الإعلاميّة للكنيسة، خصوصاً محطّة "تيلي لوميار" (النور) التلفزيونيّة، بدور ساعدها في نشر أشكال جديدة من التشدّد الدينيّ والطقوس المصاحبة له، كـ"الخلوات" التي تستقطب شبّاناً وفتيات إلى أديرة يقيمون فيها أسبوعاً أو أكثر منقطعين للعبادة والصلاة. وغنيّ عن القول إنّ تماثيل العذراء بالأحجام جميعاً، فضلاً عن باقي الصور والرموز المسيحيّة، هي من حواضر كلّ بيت وكلّ شارع في كسروان التي تحضن، بسبب بكركي وحريصا والتلفريك، سياحة دينيّة مرموقة.

هكذا يبدو طبيعيّاً أن تظهر احتجاجات أخلاقيّة على بعض نتائج الانفتاح التي استمرّت بعد ضمور الدور السياحيّ لجونية. فمنذ الثمانينات، نمت خدمات في المعاملتين استفزّت المحافظين، وكان وجود المسلّحين الشبّان وضرورة ترفيههم والترويح عنهم أحد أسباب الطلب على الخدمات تلك. لكنْ في أواخر ذاك العقد، كما في التسعينات، تظاهر كسروانيّون مؤمنون ضدّ هذا الوسواس الخنّاس، وشملوا بغضبهم الإعلانات التي عدّوها جنسيّة وغير أخلاقيّة.

ويبدو فؤاد بويري أحد أصوات الاحتجاج الأخلاقيّ على بعض نتائج السياحة. فهو يتحدّث عن الإزعاج الليليّ للسكّان، وعن "أوكار دعارة ومخدّرات" يقول إنّها "ضُبطت"، كما يستنكر وجود علب ليل على مقربة من كنائس ومدارس.

ودور الكنيسة، على أيّ حال، لا يلغي التراجع الذي أصاب بعض وظائفها. فهي، بحسب كثيرين، لم تعد تقدّم الخدمات التي درجت طويلاً على تقديمها من تعليم

وطبابة، وبات جلّ اهتمامها، كما يقول نقّادها، منصبّاً على تعمير الأديرة المهدّمة.

الحياة القليلة والصغرى

هذا العالم الأبرشيّ المحكوم بخلطة العائلات والأحزاب والكنيسة يمضي في حياته التي تظهّرها انتخابات البلديّة والمخترة. وبالطبع يبقى ميشال عون وزعامته أكبر محطّات التقاطع بين مصادر تلك الحياة الصغرى والقليلة. فهو الذي يصفه جوان حبيش بأنّه مَن "أعاد فرز المجتمع والعائلات" و"مَن تدور المعارك الانتخابيّة بين من يؤيّده ومن لا يؤيّده"، من دون أن تحول هذه الحقيقة دون اضطرار عون، في ٢٠٠٥ ثمّ في ٢٠٠٩، إلى اصطحاب اثنين من أبناء العائلات السياسيّة، هما جيلبرت زوين وفريد الخازن، على لائحته.

ويندفع بعيداً نعّوم جرجي مطر، مختار حارة صخر غير المولع بعون، في توكيده أهميّة العائلات، بحيث يشدّد على أنّ شرط إسقاط الجنرال في أيّة انتخابات مقبلة تشكيل لائحة عائلات في وجهه من دون مشاركة الأحزاب. لكنّ التفتّت الكسروانيّ يجعل المرشّحين، العائليّين والحزبيّين، يفيضون كثيراً عمّا تسعه لائحتان متنافستان تقتصر كلّ منهما على خمسة مرشّحين فحسب. وهذا ما يهبط إلى السويّات التمثيليّة الأدنى، بحيث سبق لـ١٣ مرشّحاً، على ما أخبرنا مطر، أن خاضوا معركة المجلس الاختياريّ في حارة صخر.

ثمّ إنّ السياسة في كسروان هي التسلّي بأخبار السياسيّين. فنوّاب عون، مثلاً، يرفلون في العاديّة فلا يثيرون انطباعات أو ردود فعل يحتكرها عون وحده. أمّا خصم الجنرال الأبرز، منصور البون، وهو نجل فؤاد البون، فيبدو كأنّ لكلّ كسروانيّ من أيّ عمر وبلدة رواية شخصيّة معه. فمنزله امتداد للشارع، يرتاح فيه سائقو سيّارات الأجرة في ساحة جونية شتاءً، فيدخلون من دون أن يقرعوا الباب. وليس من باب الدعابة ما يحكى عن أنّ البون يسبق الناس إلى المستشفى أو المطار لعيادة مريض أو لاستقبال جنازة.

وفي مقابل البون، "الخدوم" و"الشعبيّ"، يقف فارس بويز، نجل نهاد بويز والصهر السابق للرئيس الياس الهراوي. فهو من تصطنع صورته بالتعالي والعنجهيّة والامتناع

عن تقديم الخدمات من أيّ نوع، بحيث نال في انتخابات ٢٠٠٩ أقلّ الأصوات في اللائحة التي ضمّته. وثمّة أسماء جديدة، أو جديدة نسبيّاً، يتداولها الكلام، كنعمت أفرام، نجل الوزير الراحل جورج أفرام، وابن شقيق رئيس البلديّة الحاليّ أنطوان. وميزة عائلة أفرام كونها أسرة صناعيّة تملك مؤسّسات وشركات كـ"إندفكو" للإنماء الصناعيّ و"سانيتا"، فضلاً عن مؤسّسات علاج من إدمان المخدّرات كـ"أمّ النور". وهذا جميعاً ما يتيح لهم توفير فرص عمل كثيرة لطالبيها، أو تقديم منح دراسيّة وخدمات إنمائيّة متفرّقة.

ويُذكر في هذا المعرض رئيس اتّحاد بلديّات كسروان نهاد نوفل الذي يُربط اسمه غالباً بـ"الإنماء" وبكونه "محسوباً على الرئيس السابق ميشال سليمان".

الوضاعة الأبرشيّة

لكنّ الباحث عن مواقف كبرى، تتجانس مع المزاعم الوطنيّة أو المارونيّة، فعن عبث يبحث. ذاك أنّ الغالبيّة الساحقة لزعماء كسروان وسياسيّيها تعاملت مع عهد الوصاية السوريّة، وشغلت في ظلّه مواقع نيابيّة أو وزاريّة. فالراحل جورج أفرام كان نائباً في ٢٠٠٠ – ٢٠٠٤ وتولّى العديد من الحقائب الوزاريّة، ناجحاً في إخفاء كلّ لون سياسيّ له. أمّا فريد هيكل الخازن فكان نائباً في الفترة نفسها، يصفه بعض محبّيه بأنّه "لا يشتم سوريّة لأنّ مصالح وعلاقات وثيقة تربطه بها". وبدوره حلّ فارس بويز نائباً ووزيراً شبه دائم في سنوات الوصاية، وكوزير خارجيّة كان محامياً لا يلين عن "وحدة المسار والمصير". وثمّة كثيرون يتّهمون بويز بأنّه سعى طويلاً، مثله مثل فريد هيكل الخازن، لإغراء ميشال عون باصطحابه على لائحته. ومعروفٌ أنّ منصور البون، مثله مثل بويز، رشّح نفسه للتعيين نائباً في ١٩٩٢ على رغم إرادة بكركي المقاطعة. إلاّ أنّه سارع، بُعيد اختياره، إلى الصعود إليها وسؤال البطريرك صفير غفرانه.

هكذا يتصرّف السياسيّ الكسروانيّ بموجب حكمة تقول إنّ الغياب عن المنصب لأربع سنوات متتالية كفيل بتقويض زعامته. ووفقاً لحكمة كهذه تراه يبدي استعداداً مطلقاً للإذعان وللرضوخ لكلّ باب عالٍ، بحيث ينشأ نوع من الوضاعة الأبرشيّة غير

المعنيّة بأيّ بُعد وطنيّ مزعوم.

وهذا ما يفسّر جزئيّاً الاكتساح العونيّ في ٢٠٠٥، إذ خاطبت العونيّة أيضاً الشعور بالكرامة والرفض لسنوات الوصاية وللذلّ الذي مارسه الأعيان الصغار إبّانها. لكنّه يفسّر أيضاً كيف أنّ كسروان لم تنجب زعيماً مارونيّاً واحداً من صنف زعماء الصفّ الأوّل. وعلى رغم كونها "عاصمة الموارنة"، لم يبرز من المحاربين، خلال سنوات الحروب، إلاّ اسم كسروانيّ واحد، هو القياديّ القوّاتيّ فادي أفرام الذي بقي هامشيّاً جدّاً في عائلته ومنطقته.

هذا العالم الغريب

يسير التاريخ سيراً بطيئاً، لكنّه مخادع، في كسروان. فالعونيّون والقوّاتيّون، وفقاً لأنطوان سلامة الذي وضع كتاباً عن طانيوس شاهين، يتنازعون على من هم الأحفاد الفعليّون للثائر الفلاحيّ. وهناك دائماً من يفتخر خطابيّاً بشاهين، أو بالراديكاليّ الكسروانيّ الآخر فارس الشدياق. لكنّ كسروان التي كانت الأبكر في ضرب العائلات، تعود إلى سياسة الأعيان الصغار وإلى همومهم.

يزكّي هذا الميلَ أنّ المسيحيّين عموماً، والكسروانيّين منهم خصوصاً، باتوا يفتقرون تماماً إلى كلّ أداة في فهم واقع بدأ منذ ١٩٩٠ يبدو لهم غريباً وغامضاً.

فعند جوان حبيش، "لا يبدي الكسروانيّون أيّ قلق حيال الفراغ الرئاسيّ وباقي المسائل الوطنيّة الكبرى. ما يهمّهم هو الأمن والاستقرار ولقمة العيش، لأنّ همومهم اليوميّة أكبر من كلّ همّ سياسيّ". أمّا اللاعبون الكبار والمؤثّرون فكلّهم غرباء مطلقون، أكانوا لبنانيّين أم غير لبنانيّين.

وإذا كانت حركة "داعش" أثارت لديهم بعض الخوف، وقدّمت للعونيّة حججاً سبق أن انتزعها منها "التفاهم" مع حزب الله، فهذا لا يحول دون آراء واسعة لا تنقصها سذاجة الاستخفاف بالحركة المذكورة. فـ"داعش"، بحسب أحدهم، "لا تعنينا... فإذا جاءت أغلقنا حدودنا من المدفون إلى نهر الكلب، والسلاحُ موجود والشباب موجودون".

وربّما عزّز هذا النظر الضيّق إلى الأمور المحيطة أنّ الكسروانيّين، الذين استقبلوا المهجَّرين اللبنانيّين إبّان الحرب، لم يُهجَّروا هم أنفسهم من قبل. فحين انفجر الوضع السوريّ، وهو بدوره حدث غير مفهوم تماماً، تأكّد لهم صواب انكفائهم واكتفائهم، واتّسعت دائرة الكلام عن فدراليّة ترسّخ مسافتهم وتسهر عليها.

فهم تعاطفوا مع السوريّين في بدايات ثورتهم، لكنّ الثورة طالت و"باتت تُضجرنا"، فضلاً عن تراجع العداء لآل الأسد، وهم أعداء الأمس، مع تقدّم الحركات السلفيّة والجهاديّة.

فوق هذا، فالثورات العربيّة، لا سيّما منها السوريّة، ضربت الكثير من الصادرات الزراعيّة الكسروانيّة، التي يعتمد عليها أهل الجرد، إلى ليبيا ومصر والخليج.

وإذ يُقدّر اليوم عدد السوريّين في جونية بخمسة آلاف، معظمهم عمّال ورش تقيم عائلاتهم معهم، فإنّ التذمّر يتزايد من تسوّل السوريّين الأفقر. وبينما يتفهّم البعض ألمهم "لأنّنا سبق أن عرفنا آلام المهجّرين اللبنانيّين الذين أتوا إلينا"، فهذا لا يلغي أنّهم "حين يتكاثرون قريباً من مناطق سكنيّة يسبّبون إزعاجاً (...). لقد طرأت حوادث مع العمّال السوريّين وبعض القرى منعتهم من الحركة ليلاً".

ونحن، في آخر المطاف، مقيمون هنا. ونحن، في آخر المطاف، هكذا نقيم. وليتدبّر سائر الكون أمره.

جديدة مرجعيون... أو أن تكره السياسة

لا تنفعل جديدة مرجعيون ولا تغضب. هي تمقت السياسة، ولديها صيغ كثيرة في إعلان مقتها هذا. وحين يتناول أهلها التطوّرات الكبرى لتاريخهم، يبدون كمن يؤرّخ ببرودة الجيران أحداثاً حصلت في غرفة نومهم. فوق هذا، تراهم دائماً يصوّرون تلك الأحداث كما لو أنّها فاتت وصارت وراءنا.

يقول واحدهم: "نعم، كان هناك احتلال إسرائيليّ..."، أو يقول آخر: "نعم، حصل تحرير..."، ثمّ يمضي كلّ منهما في تقريريّته التي يتساوى فيها كلّ شيء بكلّ شيء آخر.

حياد سويسريّ!

فالحقب الحادّة المثيرة للانفعال أو للانحياز، وتاريخُ جنوبيِّ الجنوب كلّه كذلك، يعالجونها بنزعة تكاد تكون سويسريّة. فكأنّهم، هناك في تلك الرقعة، قرّروا أن ينكروا وأن يعلنوا الحياد من طرف واحد عن هذا الصخب حولهم وفي تاريخهم. فهم، مثلاً، حين يعمدون إلى تفسير عزوفهم عن الانخراط في جيش لحد، يقولون إنّ الأوضاع الاقتصاديّة لمن بقي في الجديدة من سكّانها لم تحوجهم إلى ذلك، وهي الأوضاع نفسها التي أحوجت الآخرين الأفقر، من مسيحيّي القرى المجاورة ومن الشيعة والدروز، إلى الانخراط فيه. هكذا تتداعى حلقات منطق وظيفيّ جدّاً، لا مكان فيه للقضايا الكبرى ولا لأيّة اعتذاريّة حيال مقدّس مفترض.

وبدورها، كانت حرب ٢٠٠٦ لسكّان الجديدة، ولعموم مسيحيّي المنطقة، مشهداً برّانيّاً قد يثير التعاطف مع الذين لجأوا إليهم من القرى الشيعيّة المنكوبة، إلاّ أنّها لم تكن

تورّطاً مباشراً. ذاك أنّ الإسرائيليّين "كانوا يقصفون على النقاط التي يُقصف منها عليهم، وهي شيعيّة ينتشر فيها حزب الله. لهذا لم تُضرب القرى المسيحيّة"، كما رأى أحدهم بدقّة وصفيّة تتجرّد من أحكام القيمة.

والكلام الذي يتردّد هنا مختلف عن السائد المعمّم. فهم لا يحبّون إسرائيل لأنّهم يكرهون الاحتلال، وقد كان انتقال معظم أهل الجديدة إلى بيروت ما بين ١٩٨٢ و ٢٠٠٠، مثلهم مثل باقي الجنوبيّين، تصويتاً بالأقدام ضدّ المحتلّين. بيد أنّهم ليسوا مستعدّين لمقاتلة إسرائيل أو لمقاتلة أيّ طرف كان، لأنّ القتال يحصل لآخرين في أمكنة أخرى. أمّا أن يلقي أحدهم صاروخاً عليها، فهذا اليوم أشدّ ما يكرهونه ويخافونه، كما يخافه باقي جيرانهم، لأنّه نذير بكابوس الاحتلال وباحتمال رجوعه.

إلاّ أنّ مقارنات الباحث، المُرّ حيناً والسينيكيّ حيناً والمحايد أحياناً، تتسلّل إلى بعض كلامهم. فهناك تسمع مثلاً أنّ المنظّمات الفلسطينيّة فجّرت مضخّة المياه لدى دخولها جديدة مرجعيون أواخر الستينات، وفي أوائل الثمانينات أصلح الإسرائيليّون "الطامعون بمياهنا" تلك المضخّة وعزّزوها بتمديدات جديدة لا تزال تعمل حتّى اليوم.

ولأنّ الجديدة لم تُعانِ قسوة إسرائيل كما عانتها قرى أخرى انتسب أبناء منها إلى مقاومة حزب الله، تسمع فيها من يشير إلى "حرّيّة التعبير" في زمن الاحتلال. فالإسرائيليّون "لا يعنيهم مَن معهم ومَن ضدهم، وتستطيع التعبير عن رأيك ما شئت ما دمت لم تنتقل إلى العمل العسكريّ ضدّهم".

لكنّ الاستعارة الكبرى التي تكثّف الفوارق والمقارنات لديهم تبقى مستشفى مرجعيون. فهي، إبّان الاحتلال، شُغّلت بكامل طاقتها كما ضُمّ إليها مبنيان كبيران وكان يصرف عليها نحو مليوني دولار سنويّاً. وحتّى الحالات الصحيّة المستعصية كان أصحابها يُنقلون إلى داخل إسرائيل عبر ما سمّي آنذاك "الجدار الطيّب". وهذا كلّه صار من الماضي، إذ أتى التحرير مصحوباً بعودة ظافرة للإهمال اللبنانيّ الشهير.

فجديدة مرجعيون تقيم إذاً بين نفيين، عدم الانتساب إلى جيش لحد وعدم الانخراط في المقاومة. وللوفاء بمهمّة الحياد هذه، لا بدّ من أن تُدفع أكلاف، ولا بدّ كذلك من تعديل يطال المكان نفسه: فال"هنا" تراها مخفّفة دائماً فيما الـ"هناك" كثيرة جدّاً. ذاك أنّ بيوتاً عدّة في الجديدة فارغة من أهلها المقيمين في أوروبا وأميركا، وبيوتاً عدّة يتخلّل

أحاديثَ أهلها ذكرُ أقارب في الجامعة الأميركيّة في بيروت أو في أكسفورد أو ستانفورد، يتواصلون معهم يوميّاً ويزورونهم هناك ويستقبلونهم هنا. فعندما يتحدّث أحد أعضاء البلديّة عن ضمانات بلدته، يشير إلى القوّات الدوليّة والقرار ١٧٠١، موحياً بأنّ العالم كلّه موصول بهذه الرقعة التي يحقّ لها أن تقلق من نزاعات الأهل المباشرين.

وقد كان لافتاً، لدى اتّصالنا بأفراد من الجديدة لتحديد موعد معهم، أنّ أكثر من نصفهم تحدّثوا إلينا بالإنكليزيّة. وللّغات دائماً أجنحة تحمل إلى "هناك" أو تستحضره وتبثّه في الـ"هنا". وهذا فضلاً عن أنّ كثيرين منهم كانوا عائدين للتوّ من سفر إلى بريطانيا أو أميركا، أو كانوا يتهيّأون لسفر إليهما.

"دفن" الأمّيّ الأخير

وإذ يلتفت الزميل والروائيّ محمّد أبي سمرا إلى ورائه، يذكّرنا بأنّ الجديدة كانت في السبعينات حاضرة المنطقة الممتدّة من الخيام غرباً إلى شبعا في الشرق. فهناك المدارس وهناك المقاهي، وفيها يتمرّن الشابّ على أوّل الكلام مع فتاة أو على سهر تضيق به باقي المنطقة.

صحيحٌ أنّ بعض أبناء جديدة مرجعيون انتسبوا، في حقبة سابقة، إلى أحزاب سياسيّة. هكذا نما فيها، هي التي عُرفت طويلاً بارتباطها بفلسطين وبالداخل السوريّ، قوميّون سوريّون كما وُجد عروبيّون تعلّقوا جميعاً ببلاد كانت ذات مرّة أكبر. كذلك عرفت شيوعيّين تداخلت في شيوعيّتهم نوازع العدالة والتقدّم وشيء من أرثوذكسيّة ينتمي إليها أكثر السكّان، أو كتائبيّين طمأنهم لبنان في الصورة التي ارتسم عليها فاستبدّ بهم الخوف من زوال صورته تلك.

لكنّهم دائماً، وبحسب وصف أحد أبناء الجديدة، "كانوا ينتسبون إلى الأحزاب في الجامعات، لا هنا"، والأهمّ أنّ جديدة مرجعيون لم تُنعم على تلك الأحزاب بقياديّين بارزين أو بمناضلين معروفين. وفي المعاني المخفّفة هذه، تتراءى العصبيّة الحزبيّة هناك شيئاً من الماضي يكاد يقتصر الآن على متقدّمين في السنّ هم حزبيّون سابقون فقدوا الطاقة التي تستدعيها العصبيّة. فوق هذا، باتت الحزبيّة، في أزمنة تضجّ بأعمال في ضخامة

الاحتلال والتحرير، تتطلّب هويّات أخرى تفرّق الطوائف أكثر ممّا تجمع الشعوب، كما تتطلّب من الهِمم ما يتعدّى إبداء الرأي في جلسة مقهى.

وهِمم سكّان الجديدة مبذولة في مكان آخر. فالأفراد الذين هم موضع افتخارهم إنّما ينتمون إلى صنف لا يسعى إلى البطولة ولا يغريه تقديم الشهداء: إنّهم المؤرّخ ألبرت حوراني والطبيب مايكل دبغي والموسيقار وليد غلميّة ومن يندرجون في الخانة هذه. وحين يُترك للمحامي مالك راشد، رئيس نادي مرجعيون، أن يتباهى ببلدته، يذكّرنا بأنّ آخر أُمّيّ فيها "دفنّاه" عام ١٩٣٢، وأنّها كانت سبّاقة في إنشاء شبكة للصرف الصحّيّ وفي الإنارة بالكهرباء حيث تولّى مهاجروها تزويدها بالمولّدات.

بين انفصال واتّصال

ويسهب البروفيسور سيسيل حوراني في وصف علامات الزمن، زمنه وزمن بلدته. ذاك أنّ أهل الجديدة، الذين لم تستهوهم "سياسات التطرّف"، ركّزوا دوماً ومبكراً على التجارة والتعليم والهجرة إلى أميركا وكندا والبرازيل والخليج، وهي ما وفّرت المال الذي عُمّرت به بيوتهم الجميلة. فمن عائلة واحدة، هي ليست من أكبر أُسَر البلدة، يبلغ عدد المهاجرين ١٥ ألفاً.

وأهل الجديدة، بالتالي، كانوا سبّاقين في إرساء تقليد تجاريّ وسط بيئة من المزارعين، حضّهم على ذلك أنّهم، منذ نشأة لبنان الكبير في ١٩٢٠، شكّلوا مدار المنطقة الشّاميّة الفلسطينيّة ومحورها.

فهم أقرب إلى فلسطين منهم إلى لبنان: جنوباً يرتبطون بالقدس، ومن باقي الجهات يتّصلون بمدن الداخل السوريّ. أمّا مَن أراد التوجّه من عكّا إلى الشّام فكان عليه المرور بمرجعيون والالتفاف حول جبل الشيخ. آنذاك كانت بيروت بعيدة وغريبة كما لو أنّها تدور في فلك آخر.

صحيح أنّ نشأة إسرائيل في ١٩٤٨ قطعتهم، كما قطعت سائر الجنوبيّين، عن فلسطين، ثمّ أتت وحدة ١٩٥٨ ومن بعدها هزيمة ١٩٦٧ تعقّدان علاقتهم بالداخل السوريّ، إلاّ أنّ هذا الانقطاع وثّق الصلة بالعاصمة اللبنانيّة كما بالهجرة، فلم يبق من

ذاك الماضي إلاّ الشبه بين لهجتهم ولهجة سكّان الجليل. وهم، كما لو أنّهم يكافحون النسيان أو يعتدّون بقوّة الذاكرة، يذكّرون بأنّ سهل الحولة، المنطقة الزراعيّة الأغنى في فلسطين، ظلّ حتى ١٩٢٣ جزءاً من لبنان الكبير الحديث الولادة.

وفي السهل المذكور امتلك بعض المرجعيونيّين وبعض الجنوبيّين أراضي زراعيّة حملتهم على توقيع عريضة تطالب بعدم ضمّ الحولة إلى فلسطين الانتدابيّة، لكنّ القرار كان قد اتُّخذ ونُفّذ من دون أن يُدفع للملاّكين الجنوبيّين أيّ تعويض. وفي ١٩٤٨ كُرّس الوضع الجديد هذا وتبخّرت أراضٍ وأملاك فات حزب الله، على ما يبدو، أن يُدرجها في مطالبه.

كتب لا بنادق

بيد أنّ العلاقة بالسياسة أعقد قليلاً من رفض العنف أو كره الترتيبات الدوليّة. فتقليديّاً كان النائب الأرثوذكسيّ عن قضاء مرجعيون – حاصبيا واحداً من أبناء الجديدة. لكنّ الذين مثّلوها ومثّلوا الأرثوذكس في سنوات ما قبل الحرب، كأسعد بيّوض ورائف سمارة، إنّما نمّوا عن تواضع في التعبير وانخفاض في النبرة. لقد كان أهمّ ما يفعلونه استرضاء كامل الأسعد، زعيم المنطقة ورئيس اللائحة، وانتزاع موافقته على اصطحاب واحد منهم على اللائحة. وهذا الدور القليل الزعاميّة لا يكفي لإقناع المرجعيونيّين بفضائل السياسة، ولا يغري طامحاً منهم بها، إذ يسع التجارة أو العلم أو المهنة تلبية طموحه على نحو أفضل وأشدّ احتراماً لذات تمرّست بفرديّتها.

وبالفعل لا يبدو أهل الجديدة في حاجة إلى سياسة كهذه. ففضلاً عن أنّ العائلات التي كانت ترشّح أفراداً منها للانتخابات، كبيّوض وسمارة، تقلّصت كقوى سياسيّة، فابن مرجعيون الذي لا يصفّق لزعيم، لا يحتاج إلى زعيم يعلّمه أو يوظّفه أو يشقّ له طريقاً.

أمّا الأحزاب في حلّتها الجديدة فلم تُحسن بدورها كسر عزوفهم المديد عنها. فعندما خرج الإسرائيليّون عام ٢٠٠٠، لم تتقدّم منهم تلك الأحزاب بأبهى صورها. لقد استنكف حزب الله عن دخول الجديدة بعد التحرير مراعاةً لمسيحيّتها، مكلّفاً الحزب

السوريّ القوميّ النيابة عنه. وفعلاً أنشأ القوميّون مقرّاً لهم لا يزال علم الزوبعة يرفرف فوقه، إلاّ أنّ السكّان لا يجدون فيه أكثر من ممثّليّة غريبة لحزب الله. وبدورها، زحفت حركة أمل إلى الجديدة جاعلة من بيت أنطوان لحد مركزاً لها. واليوم تحيط بالبلدة صور الحركة والحزب وشاراتهما ورموزهما التي تهيمن على طرقات المنطقة كلها وعلى مفارقها.

وهذه تجارب كنّا رأينا مثلها ذات مرّة، كما قد يقول أهل البلدة. فبحسب أبي سمرا، سبق أن تمدّدت المقاومة الفلسطينيّة ومكاتبها إلى جديدة مرجعيون عبر شبّانها من السنّة الذين يشكّلون ما بين ١٠ و١٥ في المئة من سكّانها. فبعد أن أنشأ المسلّحون "فتح لاند" في قرى العرقوب السنّيّة غير البعيدة، بعد توقيع اتّفاق القاهرة في ١٩٦٩، حظيت الجديدة بحصّتها من المكاتب والسلاح قبل أن يقيم مسؤول حركة فتح، يحيى رباح، في بيتٍ مختارٍ من بيوتها.

وينقل رئيس البلديّة آمال حوراني حادثة دالّة يتناقلها السكّان عن تلك الحقبة: فقد قيل إنّ المسلّحين الفلسطينيّين طالبوا أهل البلدة، لدى قدومهم إليها، بتسليمهم مائة بندقيّة، فردّ الأهالي بأنّهم لا يملكون بنادق لكنّهم يستطيعون تزويدهم، بدلاً منها، بعشرة آلاف كتاب.

بعد ذاك استأنفت الأمور سوءها بأشكال أخرى. ففي عهد الوصاية السوريّة المديد انتُزع من الجديدة تمثيل الأرثوذكس، وإن من غير أسف، وعُهد به إلى السوريّ القوميّ أسعد حردان، ابن راشيّا الفخّار. وحردان الذي صار رئيس حزبه، لا يشبه أهل الجديدة المرتابين بالحزبيّة، كما أنّه يغري الكثيرين بتقديم الطعون: فثمّة من يقول إنّه لا يمثّل الأرثوذكس، لا في الجديدة ولا في راشيّا الفخّار نفسها، بدلالة الفشل الذي حصدته اللائحة البلديّة التي رعاها في بلدته. وثمّة بين أصحاب الحميّة الأرثوذكسيّة من يذهب أبعد، مذكّراً بأنّ حردان كاثوليكيّ المذهب تحوّل إلى مذهبهم لأنّ الوصاية السوريّة قرّرت إحلال سوريّ قوميّ في هذا المقعد المقرّر للأرثوذكس.

كائناً ما كان الأمر، فإنّ الأحداث كلّها وسّعت المسافة الفاصلة بين السياسة وأهل الجديدة الشاخصين إلى فضاءات أخرى. وهي مسافة لم يقصّرها الحضور الشكليّ للدولة اللبنانيّة. صحيح أنّ أهل الجديدة، لا يريدون، ما خلا توفير الأمن، الكثير من الدولة، إلاّ أنّ

القليل الذي قد يريدونه لا يملكون وسائل البلوغ إليه. فـ"أهل المحيط يتمثّلون، من خلال أحزابهم وزعمائهم، بقوّة لا تُقارَن بها قوّتنا. ومع هذا فحين لا تتحقّق مطالبهم ينزلون إلى الشارع ويقطعون الطريق ويحرقون الدواليب. وهذا ما لا نفعله، مكتفين بآليّات المطالبة الرسميّة كرفع العرائض وتقديم الشكاوى، ممّا لا ينتج شيء منه".

واللافت، كما قال كثيرون هناك، أنّ الدولة اللبنانيّة كانت حاضرة خلال الاحتلال أكثر ممّا بعد التحرير. فآنذاك كانت المحكمة والشرطة والجباية تعمل بشكل جيّد، وهو ما لم يعد يُعتدّ به اليوم كثيراً.

عائلات وقرية رحبانيّة

هكذا تراهم، في هذه الغضون، يكتفون من الشأن العامّ ببلديّتهم وعائلاتهم الطامحة إلى تمثيل دور جديد في مسرح القرية الرحباني. فأرثوذكس الجديدة رأّسوا بروتستانتيّاً على بلديّتهم، والسنّة رفعوا في ساحة البلدة يافطات ترحيب بانتخاب المفتي الجديد عبد اللطيف دريان، يافطاتٍ يبدو أنّها تحظى بقبول الجميع.

وإذ يعمل المخفر والمحاكم بطريقة توحي ظاهراً أنّ الأمور في غاية العاديّة، ينهض التمثيل البلديّ على توافق العائلات المتوافقة أكثر ممّا يجب. ذاك أنّ المجلس البلديّ الذي يمنع تعليق أيّة يافطة حزبيّة تفادياً للخلاف، ائتلاف يقف على رأسه آمال حوراني الذي التقيناه مصحوباً ببعض أعضاء فريقه المتجانس. وتقول الرواية السائرة أنّ حوراني، وهو رجل أعمال قدّم لبلدته خدمات لم يُرد مقابلاً لها، استُدعي من مهجره كي يدير شؤون بلدة أرادت تكريمه.

والحال أنّ الأمور لم تكن على هذا النحو من قبل. فقد درجت عائلات الجديدة على أن تتنافس في الانتخابات البلديّة. إلاّ أنّهم حين يتحدّثون اليوم عن ذاك التنافس يقدّمونه في صيغة لا تجمع الجدّ بالمزاح فحسب، بل أيضاً تجمع التاريخ بالميثولوجيا. هكذا يقولون إنّ انقسامهم كان دائراً بين العائلات التي ترقى وفادتها من حوران، خصوصاً من بلدة عزرا، إلى مطالع القرن السابع عشر، والعائلات "البلديّة" التي أقامت قبلها في الجديدة. وحين تأخذهم الرغبة في مزيد من الشرح، يضيفون أنّ كنيستهم

كانت قديماً ذات بابين، واحد للبلديّين وآخر لأهل حوران ممّن شجّعهم فخر الدين المعنيّ الثاني على القدوم. غير أنّهم لا يلبثون أن يضحكوا، فيما بعضهم يقهقه، على تاريخ لاعب أو لعوب.

عاصمة القضاء

لكنّ عدد المقيمين في جديدة مرجعيون لا يزيد في الشتاء على ٨٠٠ شخص، يأوون إلى بيوتهم في الخامسة مساءً. وفي ذلك شيء مصغّر من فيينا، ولو اختلفت الأسباب. ذاك أنّ سكّان عاصمة النمسا لم يكفّوا عن الانخفاض في القرن العشرين بسبب قتلاهم في حربين عالميّتين، حتّى صار التقدّم في السنّ واللون الأسود لملابس نسائهم من معالم المدينة. ويلوح، والحال هذه، كأنّ الإبقاء على الجديدة عاصمةً لقضائها جهد مقصود لا يقوى أهلها على احتماله ولا يقتنعون ببذل الجهد المطلوب لمواكبته. فهي، فضلاً عن مدارسها، لا تزال تقيم فيها سراي القضاء وثكنته العسكريّة، فضلاً عن فروع لخمسة بنوك بينها، على ما قال أحد محدّثينا، "بنك شيعيّ"، قاصداً بنك الجمّال. ومع أنّ الخيام وحاصبيّا تضمّان فروعاً لمصارف مماثلة، يبدو أنّ الجوار لا يزال يفضّل مرجعيون لتعاملاته الإداريّة والمصرفيّة.

وأهل الجديدة، إلى هذا، لا يضطرّون إلى إرسال أبنائهم إلى خارجها للدراسة، فيما أهل جوارها، لا سيّما بلدة الخيام الشيعيّة، ماضون في إرسال أبنائهم إليها. وهذا بمثابة تقليد يرقى إلى عشرات السنين، على ما يقول الدكتور توني فرهود، كان الجيران وفقاً له يتعلّمون في مدارس الجديدة. ولا يتردّد مرجعيونيّ آخر في القول إنّ أكثر طلاّب مدرسة الصراط للراهبات والمدرسة الوطنيّة هم من الشيعة، والبنات فيهما "لا يتحجّبن".

إلاّ أنّ من الملحوظ هناك ندرة الفنادق والمطاعم وقلّة المقاهي ومخازن البيع، وإن كانت الصيدليّات كثيرة تلبّي حاجات الفئات العمريّة المتقدّمة والمتكاثرة قياساً بباقي فئات السكّان.

ويبدو أنّ الانفجار الذي تعرّض له الجنود الإسبان في القوّات الدوليّة، عام ٢٠٠٧، كان ضربة موجعة للحركة التجاريّة، فضاعف إقناع السكّان بأنّ المستقبل الذي يستحقّ

السعي إليه مقيم "هناك" لا "هنا". وما إن طرأ قدر من التحسّن حمل السكّان على إطلاق مهرجان سياحيّ صيفيّ، حتّى اضطرّوا إلى إلغائه في سنته الرابعة. ذاك أنّه، ووفقاً لما قاله مالك راشد، "ما من أحد يخاطر باستثمار قد يقضي عليه حادث أمنيّ هنا أو هناك".

لقد نُقل مركز القضاء إلى الجديدة أواخر القرن التاسع عشر، أو بحسب التأريخ المحليّ، "على أيّام كامل الأسعد الجدّ". يومذاك كانت أكثريّة المنطقة مسيحيّة، فكان هذا سبباً إضافيّاً وراء جعلها مركزاً للقضاء. أمّا التغيّرات اللاحقة التي جعلت من الشيعة أكثريّة فيلمسها بعض السكّان هناك في حركة بيع الأراضي، بحيث قرّرت بلدة الخيام، مراعاةً منها لمخاوف جيرانها، التوقّف عن شراء أراضي المسيحيّين وممتلكاتهم.

والفارق بين واقع الجديدة الراهن وموقعها كمركز للقضاء يجلوه الفارق بين الليل والنهار. فالحقيقة تظهر ليلاً، توجزها المئات القليلة من السكّان الذين يلوذون ببيوتهم في الخامسة. أمّا نهاراً، فينشأ نوع من تزوير تلك الحقيقة، إذ يرفع الموظّفون والتلامذة العدد من ثمانمائة شخص إلى قرابة أربعة آلاف يغادرونها لحالها بعد انتهاء الدوام الرسميّ.

"نومانز لاند"

في فندق دانا، في إبل السقي المجاورة لجديدة مرجعيون، الذي افتُتح بسبب إقامة الجنود الدوليّين هناك، ثمّة ما يذكّر بالمنطقة الخضراء في بغداد: فتيات أجنبيّات يسبحن في "البيسين"، وجنود من القوّات الدوليّة يتوزّعون طاولات البهو، وأزيز طائرات حربيّة إسرائيليّة تُسمع في عموم المنطقة، تتخلّلها أصوات المروحيّات التي تستخدمها القوّات الدوليّة.

إذاً، نحن لسنا في سويسرا كما تتخيّلها جديدة مرجعيون. فهناك يواجهنا فيلم سينمائيّ عن قيامة قد لا تكون الآن. وإذ لا تتبدّى الحياة المدنيّة على ما يرام، يلوح كما لو أنّ قبضة من حديد تمسك بكلّ شيء وتؤجّل حدوثه. فوق هذا، يتراءى أنّ تلك الرقعة المنتزَعة من الحرب والمنتزَعة في الآن نفسه من السلم، مُصفّاة أيضاً من الأمم والشعوب

والأوطان والهويّات. إنّها، بالتالي، وحتّى إشعار آخر، "نومانز لاند".

يضاعف الشعور هذا ندرة البشر الذين تقع العين عليهم، وذاك الهدوء المريب في حركة السيّارات والشاحنات القليلة والبطيئة. وهو ما يزيد في تظهيره انخفاض نسبة السكّان وفراغ الطبيعة المشرّعة بسهولها وجبالها المحيطة، فكأنّها فائضة عن بشرها أو مُخبّئة إيّاهم في مكان ما. فحين تغنّي فيروز في بهو الفندق، يتراءى كأنّ الصوت لا يشبه المكان ولا مزاج أهله "اللبنانيّين". فهو هناك يأتي مجرّداً من كلّ أوجه الطبيعة والاجتماع، الفعليّة أو الوهميّة، التي حفّت بالغناء الرحبانيّ. هكذا تغدو فيروز – إبل السقي محاولة تقرّب من "لبنان الذي كنّا ننزل إليه" في سنوات الاحتلال، كما يقول سكّان القرى الحدوديّة.

ولا يطرد القلقَ الآتي من طبيعة الأشياء اتّفاقُ معظم الناس على أنّ "منطقتنا – التي يعيش فيها الشيعة والمسيحيّون والسنّة والدروز – منطقة تعايش نموذجيّ". فهذه اللازمة المتكرّرة، التي ربّما كانت العبارة الوحيدة التي تردّدها أكثريّة اللبنانيّين، لا تصمد، هنا أيضاً، أمام اختبار جدّيّ.

أحزاب المسيحيّين

وبالتسميات يبدأ الخلاف الذي يصفه الفولكلور الوطنيّ بأنّه اتّفاق. فمسيحيّو المنطقة الحدوديّة يسمّون "سهل مرجعيون" ما يسمّيه شيعتها "سهل الخيام". ولا تكاد تُذكر بلدة أو قرية في المنطقة، ما بين الخيام وشبعا، إلاّ يُذكر أنّ نسبة كبيرة من سكّانها كانت مسيحيّة ذات يوم ثمّ تقلّصت، كما في الخيام، أو اندثرت، كما في شبعا.

بطبيعة الحال، لا يجهر موارنة المنطقة بولائهم للأحزاب المسيحيّة الـ ١٤ آذاريّة. فالانتساب إلى القوّات اللبنانيّة أقرب إلى العمل السرّيّ، وهو ما يبدو أنّ الكتائب استفادت منه، لاعتبارها "أكثر اعتدالاً" من القوّات، فباتت أقوى تلك الأطراف الضعيفة وأشدّها علنيّة. أمّا ميشال عون، فلم يُقلع تيّاره في المنطقة الحدوديّة، على رغم الوجود التقليديّ والكثيف للمؤسّسة العسكريّة في قرى مارونيّة كالقليعة. ووفقاً لأحدهم، كان أكثر ما أساء إلى التيّار الوطنيّ الحرّ اختياره رموزاً محلّيّين هم إمّا معروفون

بالتعاون مع الإسرائيليّين إبّان الاحتلال، وإمّا وافدون إلى الجنوب بعد قطيعة وغياب مديد.

لكنّ مسيحيّي تلك المنطقة لا يفوّتون فرصة إلاّ يعبّرون فيها عن إعجاب ما بحزب الله، إعجاب يتاخم الحبّ أحياناً. وهنا أيضاً يستدرجنا التمحيص.

ذاك أنّ إزعاج الحزب للمسيحيّين يبقى من النوع غير المرئيّ. فهو اكتفى، في عموم المنطقة، بتشكيل المناخ المضبوط على إيقاعه السياسيّ الذي ينفي إيقاعات سواه. ويعرف الجميع أنّ ذاك المناخ محميّ بتوازن قوى شديد الاختلال، يخفض موقع الآخرين ويعدم خياراتهم. هكذا لا يكتفي المسيحيّون بكلام ذمّيّ عن حسن نصرالله يكاد يكون ودّيّاً، بل يمدّون لطفهم ليشملوا به نائب القضاء والوزير عن حركة أمل، علي حسن خليل، الذي "يزفّت طرقات في القرى المسيحيّة".

فحزب الله، وبذكاء يُحسب له، آثر أن يبتعد عن التفاصيل الأخرى، الاستفزازيّة والثأريّة. ولمّا كان وحده الممسك بلبّ السلطة، فلماذا، بعد ذاك، التمسّك بقشورها؟

يعزّز إيجابيّةَ الأمر الواقع حياله أنّ ما من شيء جدّيّ يحصل، منذ صدور القرار ١٧٠١ في ٢٠٠٦، مع إسرائيل. فلا الحزب يزجّ السكّان في حرب، ولا إسرائيل تجبرهم على اختيار. ويبقى أهمّ من كلّ ما عداه ما يفعله خطر داعش المستجدّ. فالمسيحيّون هناك، كما في مناطق لبنانيّة أخرى، يسكنهم خُواف هذا التنظيم المخيف. إلاّ أنّ الأعرف بينهم والأكثر تجربة أو حنكة يضيفون في غرفهم المغلقة: لكنّ حزب الله يبالغ في نشر هذا الخطر، وهو قائم، لإشعارنا بأنّ داعش أقرب ممّا هو فعلاً.

وعلى العموم، يُلحظ أنّ لغة سياسيّة مسيحيّة – شيعيّة يتمّ تأليفها هناك، لغةً تغرف من الهواجس الأقلّيّة حيال السنّة، والتي درج نقّادها في الماضي على وصمها بـ"الانعزاليّة".

دروز وسنّة

وبعض ما يرتّبه الهلع الذي استثمرت فيه صحف ومحطّات تلفزيون غير بعيدة عن الحزب شيوع لغة حربيّة وسلاحيّة. فأحد سكّان الشريط الحدوديّ، مثلاً، حدّثنا عن "الحماية الضروريّة التي يوفّرها حزب الله"، ليضيف كما لو أنّه يطرد خوفه: "ثمّ إنّ

الدروز الذين يتسلّحون في حاصبيا يشكّلون خطّ دفاعنا الأوّل في وجه داعش".

وتسلّح القرى الدرزيّة لم يعد سرّاً على أحد، خصوصاً وقد استولت جبهة النصرة على أجزاء واسعة من القنيطرة. فالمؤيّدون لطلال أرسلان، وهم كثر بين دروز حاصبيّا، كرهوا الثورة السوريّة منذ بداياتها، وكان من السهل إقناعهم بأنّ الأمر كلّه لا يعدو التعبير عن تعصّب سنّيّ مقلق. ومع التحوّل الأخير لوليد جنبلاط واعتباره أنّ العداء لداعش يعلو كلّ عداء آخر، صارت غالبيّة الدروز الكاسحة في صفّ متجانس.

فالمناطق هنا، في حاصبيّا الدرزيّة وفي العرقوب السنّيّ، امتداد جغرافيّ للجولان، وعلى الضفّة السوريّة قرى كعرنا وبيت جنّ ومجدل شمس وحضر وسواها، كانت دائماً على تواصل، ودّيّ أو عدائيّ، بعضها مع بعض ومع مثيلتها على الضفّة اللبنانيّة.

وبحسب محمّد أبي سمرا، "راح أهل شبعا السنّة، مع نشوب الثورة السوريّة، ينقلون على بغالهم جرحى الجيش الحرّ، لا سيّما أبناء قرية بيت جنّ، إلى مستشفيات لبنانيّة. غير أنّهم ما لبثوا أن تعرّضوا لكمين نصبته لهم في الجبل مجموعة مسلّحة من أبناء قرية حضر الدرزيّة السوريّة قتلت عدداً من النازحين". ويبدو أنّ العداء قديم بين القريتين اللتين لا يخلو تاريخهما من أعمال ثأريّة متبادلة. وهذا لئن فاقمه تباين موقفيهما من الثورة، فقد تولّى الكمين المذكور، ومن بعده مهاجمة جبهة النصرة قريةَ حضر، وضع المنطقة كلّها على حافّة الاحتراب.

وإذ أُمعن في انتهاك الحدود بين البلدين حتّى أضحت لزوم ما لا يلزم، بات الحدث السوريّ حدثاً لبنانيّاً، مثلما صار دروز حاصبيّا امتداداً آليّاً لدروز سوريّة، وغدا سنّة العرقوب أيضاً امتداداً للسنّة السوريّين.

والراهن أنّ علاقات السنّة في قرى شبعا وكفر حمام وكفر شوبا والهبّاريّة بالسوريّين وراء الحدود، قديمة ووثيقة، بعضها شرعيّ وبعضها غير شرعيّ، فيما بغال المكاريّين تبقى أداة تواصلها الأنجع. وهم، الذين يعيشون في زاوية منزوية نسبيّاً، وجدوا أنفسهم دائماً يختارون في السياسة خيارات تتعارض مع ما تختاره باقي طوائف المحيط الأعرض.

فلقد تعاطفت أكثريّتهم مع الثورة السوريّة في مقابل التعاطف الشيعيّ الغالب مع نظام الأسد. وكانت العلاقات بين الجماعتين قد شرعت تتدهور مع مقتل رفيق

الحريري في ٢٠٠٥، فيما تيّار المستقبل أقوى الأطراف السياسيّة في العرقوب السنّيّ. فلم يكد الغضب يخبو قليلاً حتّى جاءت حركة أحمد الأسير وذيولها توجّجه. آنذاك، ووفقاً لعلي ضيا، طبيب الأسنان ومدير "المركز الإعلاميّ"، بات "النفور" يهيمن على العلاقات الأهليّة التي أصابتها الثورة والحرب السوريّتان في الصميم.

واليوم، ومن دون أن يخلو الأمر من تهويل يعزوه البعض إلى "التضخيم الإعلاميّ"، يتردّد على ألسنة كثيرين تشبيه شبعا وجوارها السنّيّ بعرسال. فإلى التجاور مع سوريّة، يوصف آل الزغبي الذين كانوا أكثر الشبعاويّين حضناً للّاجئين السوريّين وأبكرهم، بتعاطف سلفيّ أحدثته لديهم هجرة بعضهم إلى الخليج. وثمّة من يشير إلى عناصر من "الجماعة الإسلاميّة" في الهبّاريّة، من آل عطوي، تحوّل بعضهم إلى تكفيريّين، وكان أحد هؤلاء، حسين عطوي، من أطلق الصيف الماضي صاروخاً على إسرائيل. وفي المعرض هذا يشار إلى دور دعويّ نشط اضطلع به عدد قليل من المشايخ المصريّين انتقلوا، في ٢٠٠٦، إلى لبنان، وأقاموا في تلك المنطقة تحديداً.

وثمّة محطّات سابقة في التنافر: ففي الستينات والسبعينات كانت شبعا أساسيّة في حضور المنظّمات الفلسطينيّة المسلّحة وفي تمدّدها، وهي ظلّت على ولائها هذا بعد انفجار التنازع الشيعيّ – الفلسطينيّ. وإبّان الحرب الأهليّة الصغرى في ١٩٥٨، منح العرقوب السنّيّ قلبه لعبد الناصر و"الجمهوريّة العربيّة المتّحدة"، ومن دمشق وصل إليه المدعوّ علي الوحش، الذي يُرجّح أنّه كان يعمل لمخابرات "العربيّة المتّحدة"، فجنّد شبّاناً من شبعا وقتل بعض القوميّين السوريّين المسيحيّين من إبل السقي ممّن كانوا يحالفون كميل شمعون الذي التفّت حوله عصبيّة المسيحيّين.

العدوّ: "السوريّ"

تحت هذه الأرض، وفي موازاة صدوعها، تنهمك اللغة المسيحيّة – الشيعيّة في صنع العدوّ الذي يراد التوحّد حول عداوته، وهو "السوريّ". وهنا يُلحَظ تقسيم عمل ينمّ عن توازن القوى القائم، من دون أن يخفى خبث أحد طرفيه وسذاجة الطرف الآخر. ذاك أنّ حزب الله، وهو طبعاً السلطة الفعليّة، يتولّى تأليف القاموس، فيما يتولّى

المسيحيّون ترداد مصطلحاته وإعلانها.

وأغلب الظنّ أنّ الأخيرين، لا سيّما أبناء القرى المارونيّة الذين شُهّر بهم بذريعة "العلاقة بإسرائيل"، يجدون في هذا العداء الجديد ما يصالحون به جوارهم فيما يكفّرون عن الذنب الإسرائيليّ الذي يؤاخَذون وحدهم عليه. وطبعاً يجتمع الطرفان، الشيعيّ المتحفّظ والمارونيّ المجاهر، عند اشتقاق صورة السوريّ "الغريب" من صورة الفلسطينيّ "الغريب" في الستينات والسبعينات. فـ"الناس متخوّفون لأنّ السوريّين جاؤوا مثلما جاء الفلسطينيّون قبلهم، لاجئين وهاربين، وإذا بهم يحملون السلاح ضدّنا". أمّا القاسم المشترك الثاني فالولاء المتفاوت الفولكلوريّة للجيش اللبنانيّ. وهذا، بدوره، كلام يبيعه حزب الله، وهو جيش نفسه الذي لا يحتمل جيشاً فعليّاً آخر، للمسيحيّ الذي لا يملك إلاّ أن يشتريه.

وهذا ما يبدو على أجلى صوره في القليعة حيث النزاع الراهن مع السوريّين، والشراكة فيه مع الشيعة، هو وحده ما قد يساعد في طيّ صفحة الماضي. ذاك أنّ أبناء القليعة الذين انتسبوا بكثرة إلى الجيش اللبنانيّ حملتهم الظروف المعروفة على الانضمام إلى قوّات لحد، قبل أن ينتهي بعضهم في إسرائيل.

وليس بلا دلالة أنّ تلك البلدة التي انصبّ عليها معظم النقمة، هي اليوم الأشدّ عداءً للسوريّين. فقد طالب أهلها بجلائهم كلّهم، وهم ١٣ عائلة، عن بلدتهم. ومن دون أن ينفّذوا ذلك، استقبلوا عائلات مسيحيّة من العراق قيل إنّهم سيحلّون محلّ المنبوذين من أبناء الملّة الأخرى.

وإذ نتحدّث إلى شابّ من القليعة آثر عدم ذكر اسمه، يُخيّل إلينا أنّنا نتحدّث إلى واحد من المزارعين البيض المستوطنين في جنوب أفريقيا إبّان الستينات. فهو لا يجد ما يجمعه بـ"هؤلاء السوريّين" بتاتاً، لا في الملبس ولا في السلوك ولا في العادات والتقاليد ولا في النظافة والترتيب ولا في معاملة النساء والأطفال. ولحسن الحظّ لا يبدو صاحبنا على بيّنة من الأفكار العلمويّة التي كان في وسعها أن تؤدلج مشاعره البدائيّة وتحوّلها "علماً" عنصريّاً.

في المقابل، يزوّدنا علي ضيا بمطالعة تحاول أن تكون على شيء من التماسك. فهو يقول إنّ ظاهر المنطقة هادئ، إلاّ أنّ ثمّة توتّرات تقيم تحت أرضها. وفي استطراده يذكر

محدّثنا الهمّ المعيشيّ والهمّ الأمنيّ، لأنّ "جيرة إسرائيل ليست مسألة بسيطة. يكفي أنّ المنطقة تفرغ بمجرّد أن يسمع الأهالي بأنّ أحداً قصف إسرائيل". إلاّ أنّه لا يلبث أن يتوقّف مطوّلاً عند كثرة السوريّين.

تسييس العداوة

يقول ضيا: "في كلّ الجنوب لا توجد مخيّمات للسوريّين إلاّ عندنا. فهنا تجمّعُ خيم مرج الخوخ القريب من إبل السقي، والذي يضمّ ١٧٠ خيمة يقيم في واحدتها ما بين أربعة أشخاص وسبعة. إنّهم سوريّون من المناطق كلّها وأكثرهم من إدلب، ومن الرقّة جاءت آخر الدفعات. في البداية كانت العلاقة ممتازة بوصفها ردّ جميل على استقبالهم الجنوبيّين في ٢٠٠٦، أمّا اليوم فسيّئة، خصوصاً وأنّ ما ظُنّ أنه مؤقّت طال كثيراً".

وإذ نسأل محدّثنا عن تسييس هذه العداوة، يردّ بأنّ التسييس بدأ مع إعدام التنظيمات السوريّة المتطرّفة جنوداً لبنانيّين. وفي مجملها كان لأحداث عرسال دور أساسيّ في ذلك كلّه.

لكنّ ضيا لا يلبث أن يضيف: "كون منطقتنا فقيرة يجعل التنافس حادّاً في مجالي الزراعة والبناء. لقد باتوا في القطاعين يطردون اللبنانيّ ويأتون بالسوريّ الذي يرضى بأجر أقلّ. وهناك أيضاً الغيرة من مساعدات المنظّمات غير الحكوميّة للسوريّين، وهو ما لا يصيب المعوزين اللبنانيّين شيء منه".

والحال أنّ الجيش يدهم تجمّعات السوريّين في الجنوب، لا سيّما خيم مرج الخوخ. وفوق هذا، توزّع يوميّاً مناشير ضدّهم في معظم القرى والبلدات على اختلاف ألوانها الدينيّة والمذهبيّة. ويبدو أنّ السوريّين في المنطقة باتوا كلّهم ممنوعين من التجوال بعد الثامنة مساءً. فهناك في ساحة الجديدة يافطة تقول: "يمنع تجوال العمّال غير اللبنانيّين في جديدة مرجعيون من الثامنة مساءً حتّى السادسة صباحاً"، والتوقيع: بلديّة مرجعيون. وحين سألنا أحد أعضاء البلديّة عن ذلك، ردّ بأنّ النهار عندنا ينتهي في الخامسة، وهذا يعني أنّ السوريّين يتمتّعون بفائض من الحرّيّة!

لكنّ المدهش، وبسبب العدوى والمزايدات، أنّ بلدة كشبعا، أيّدت وتؤيّد الثورة السوريّة، باتت في عداد الـ ٤٥ قرية وبلدة التي تمنع تجوال السوريّين بعد الثامنة. فأن تكون مؤيّداً لثورة ما شيء وأن تكون مؤيّداً لناسها شيء آخر.

تحوّلات التذكّر

لقد نجح حزب الله، ومن دون أن يتدخّل مباشرة، في أن يحوّل الناس عن العداء لإسرائيل إلى العداء للسوريّين. وبالتدريج راح يتبدّى كأنّ العداء الأوّل ينضمّ إلى الأرشيف أو ينسحب إلى الخلفيّات.

وربّما لم يكن من الصدف البحتة أن يترافق التحوّل هذا مع ظهور اعتراضات أوّليّة بين سكّان مدينة النبطيّة، وربّما في سواها، على مشاركة الحزب القتاليّة في سوريّة. إلاّ أنّ علامات الاستياء ما لبثت أن خبت تباعاً، واستأنفت بيئة الحزب الأعرض سيرها وراءه، خصوصاً مع ظهور داعش الذي جعل الجمهور أشدّ تطلّباً وأكثر جذريّة من حزبه.

إلاّ أنّ التحوّل هذا ينهي محظوراً يتعلّق بالكلام عن الاحتلال الإسرائيليّ وسنواته. فإلى الإشارات المتفرّقة إلى القسوة والعدوانيّة الإسرائيليّتين، لم يعد من المحرّم الإشارة إلى دورة اقتصاديّة أحدثها ذاك الاحتلال في تلك المنطقة ونجمت عنها بحبوحة لم تتكرّر. ذاك أنّ حديث الأجور التي كانت تُدفع للمنضوين في جيش لحد، ومعها الأجور الأخرى التي تُدفع للعمّال اللبنانيّين في إسرائيل وتُنفق في الشريط الحدوديّ، بدأ يصير تذكّراً مشروعاً ومستقلاً عن التذكّر السياسيّ للاحتلال.

فـ"الناس كانوا يذهبون إلى إسرائيل للطبابة وقضاء شهر عسل والتسوّق وقضاء ما يلزم، أكان في الخيام أم في حاصبيّا"، لكنْ أيضاً "لا يزال اليوم في إسرائيل ما بين ألفين وثلاثة آلاف لبنانيّ أوضاعهم معلّقة مثل أوضاع السلام في المنطقة".

لقد كتب أنتوني شديد، وأصله من جديدة مرجعيون، عاش في أوكلاهوما سيتي وغدا مراسلاً لـ"واشنطن بوست" ثمّ لـ"نيويورك تايمز"، كتاباً عنوانه "بيت من حجر: مذكّرات منزل وعائلة وشرق أوسط مفقود". وعاجل الموت شديد في نوبة ربو على

الحدود السوريّة – التركيّة، فيما لم يكتمل بناء البيت، وبقي الشرق الأوسط "مفقوداً"، على ما تُظهره، ببلاغة وشفافيّة، قرى الشريط الحدوديّ وبلداته.

ماذا يُعمل؟ "ما من شيء يُعمل"، كما تقول العبارة التي افتتح بها صموئيل بيكيت "في انتظار غودو". أمّا سكّان جنوبيّ الجنوب فلا يعرفون ماذا ومَن ينتظرون.

حازم صاغيّة وبيسان الشيخ صحافيّان جالا في ١٣ منطقة لبنانية وتعرّفا عن كثب إلى طوائفها وأحوالها وقضاياها كما ظهّرتها الحرب السورية. وفي جولتهما اكتشفا كم يختلف اللبنانيون في مصادر وعيهم وفي أسباب خوفهم، حتى ليكاد "الشعب اللبناني" يخبّىء فيه شعوباً كثيرة.

"... لم نكن، مثلاً، غرباء عن واقع التفتّت الذي ينتظم طوائف لبنان ومناطقه. إلا أنّ جولاتنا أقنعتنا، فيما الانهيارات الجيولوجية تضرب مجتمعنا، بأنّ التفتّت هذا يرقى بـ"الشعب اللبناني"، أو ينحطّ به، إلى سويّة شعوب، شعوبٍ يصعب أن تجتمع على شيء كما تجتمع على تناقضاتها.

ولا نعرف ما إذا كان جائزاً ترشيح هذا الكتاب لسدّ بعض النقص في معرفة لبنان الراهن. ما نعرفه أنّنا حاولنا، وفي غضون المحاولة اكتشفنا وجوهاً من ثقافات فرعية وأطللنا على وجوه من تواريخ محلّية بعضها القليل مشترك وبعضها الكثير متنافر. وكان ممّا راعنا، وهذا من المشتركات القليلة، ندرة النساء اللبنانيات اللواتي يتحدّثن في الشأن العام أو يُعنين به. بل كان لافتاً أنّ رجالاً كثيرين ممّن تحدّثنا إليهم لا يألفون توجيه مخاطبتهم إلى المرأة. وحتّى حين تكون المرأة فينا (بيسان) مَن يطرح السؤال، يكون الرجل فينا (حازم) من يتلقّى الجواب."

حازم صاغية كاتب ومعلّق سياسي.
بيسان الشيخ كاتبة وصحافية لبنانية.



www.daralsaqi.com